إيران

ماضيها وحاضرها

IRAN PAST & PRESENT

تأليف

دونالد ولبر

by Donald N. Wilber

ترجمه عن الانجليزية

الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

أستاذ كرسي ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها

بكلية الآداب جامعة عين شمس

الناشرون

دار الكتاب المصري — القاهرة

دار الكتاب اللبناني — بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة ج.م.ع
٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٤١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX: 92336
ATT: 134 K.T.M CAIRO

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)
تلفون ٢٥١٢٩٤ ٢٢٧٥٣٧
TELEX: K.T.L 22865 LE
BEIRUT

الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عرّف دونالدولبر مؤلف هذا الكتاب« إيران ماضيها وحاضرها » بإيران منذ أقدم ماعرف عنها إلى عام ١٩٥٠م حين نشر الكتاب فى عصر الشاه محمد رضا بهلوى آخر ممثلى النظام الملكى فى إيران ، وقمت بترجمة الكتاب لما تضمنه من معلومات صحيحة مفيدة للدارسين والمثقفين فى عام ١٩٥٨ بعد بضع سنوات من صدوره بالإنجليزية ، وصدرت ثلاث طبعات أخرى للكتاب فى أثناء حكم الشاه نفسه مع تكملة لبعض المعلومات فى الهوامش ، دون زيادة على نص الكتاب نفسه .

غير أن الأحداث تلاحقت فى إيران فى عام ١٩٧٨ بما يشير إلى اهتزاز النظام الملكى وتداعيه ، فاشتدت المعارضة للنظام الملكى -الذى يمثله الشاه- وكثرت المطالبة بالقضاء عليه وإسقاطه ، وركب رجال الدين وعلماء المذهب الشيعى - بزعامة آية الله الخمينى - موجة الأحداث ، ونادى الخمينى من منفاه بباريس بفرنسا بضرورة إقامة حكومة إسلامية فى ظل نظام جمهورى فى إيران يحل محل الملكية المنهارة - حينذاك - ولم تلبث الثورة الإسلامية أن حققت نجاحا باهرا فى أوائل عام ١٩٧٩م ، فأسقطت النظام الملكى بعد عودة الخمينى إلى إيران ، ودخولها دخول الظافرين ، فأسدل بذلك الستار على النظام الملكى الذى ظل قائما فى إيران أكثر من خمسة وعشرين قرنا من الزمان .

واستقر المطاف بالشاه فى القاهرة بجمهورية مصر العربية ، ولم يلبث أن توفى ودفن فيها ، صحيح أن ابنه رضا الثانى قد أعلن نفسه ملكا بعد ذلك ، لكن هذا لايعنى عودة النظام الملكى إلى ايران لأنه شئ شكلى على الورق ، لايقض مضجع الثورة الإسلامية القائمة فى إيران فى الوقت الحاضر ، ولا يؤثر فى سير الأحداث فيها فى قليل أو كثير .

وأصبحت الثورة الإسلامية فى إيران-منذ قيامها حتى هذه اللحظة-شغل العالم بعامة ، والدول الإسلامية والعربية بخاصة ، وكثرت الكتابات عنها من مؤيديها ومخالفيها على السواء خاصة بعد اشتعال نيران الحرب فى الخليج بين العراق وإيران ، وهى حرب دخلت عامها الرابع أى الجزء الأكبر من عمر الثورة الإسلامية نفسها ، منذ قيامها حتى الآن .

ولهذا وجدت من الضرورى والمفيد أن أضيف إلى هذا الكتاب جزءا جديدا أتابع فيه سير الأحداث فى إيران فى العصر الحاضر حتى أصل إلى قيام الثورة الإسلامية حتى تكتمل ملامح صورة إيران فى حاضرها كما اكتملت فى ماضيها .

وكنت فى الحقيقة- منذ نجاح ثورة الخمينى - أتردد فى الكتابة عنها ، والتعريف بها ، حتى تتضح صورتها ، وكنت أنوى القيام بزيارة لإيران فى ظل هذه الثورة ، حتى تكون دراستى على الطبيعة والواقع ، ولكن تطور سير الأحداث فى إيران بعد نجاح الثورة ، ثم قيام الحرب بينها وبين العراق حالا بينى وبين إخراج تلك النية إلى حيز التنفيذ ، فاضطررت إلى الكتابة عنها فى القسم الأخير الذى أضفته إلى هذا الكتاب تأليفا ، تحت عنوان « إيران فى حاضرها » وأعنى بهذا إيران فى ظل ثورة الخمينى .

وقد اجتهدت - قدر المستطاع - أن أكون موضوعيا فلا أتعصب لثورة الخمينى ، كما لا أتحامل عليها وأتعصب ضدها لأن التعصب يفسد العلم ويحجب الباحث عن رؤية الحقيقة ، كما أن التعصب ليس صفة محمودة فى الباحث ، أيا كانت جنسيته وعقيدته .

ولهذا حاولت - فى القسم الذى أضفته - أن أعرض للأحداث التى سبقت قيام الثورة الخمينية ومهدت لظهورها واشتعال نيرانها - كما وقعت - دون تعليق عليها ، تاركا للقارئ حرية فهمها - دون توجيه لها - والاشتراك معى فى فهم الحقيقة التى تبدو من ثنايا هذه الأحداث .

وقد ساعدت سياسة الشاه محمد رضا بهلوى على إشعال نيران الثورة ضد النظام الملكى الذى يمثله ، واعترف بنفسه بعد خروجه من إيران واستقراره فى القاهرة -بعد نجاح ثورة الخمينى- أنه كان يدور فى فلك الغرب ، ويرسم مستقبل بلاده بمفرده ، فقال بالحرف الواحد[1] «إن هناك إرادة ماشاءت أن أخرج من إيران ، أرادوا أن أخرج لأنى كنت مستقلا فى تفكيرى وتدبيرى ورسم مستقبل بلادى ، ولعلى كنت مستقلا أكثر مما يجب ، إننى الآن أرى كل شئ بوضوح ، أرى كل أخطائى ، ومن بين أخطائى المميتة أننى صدقت الغرب كالأعمى وأننى أخذت قضية صداقة الغرب شيئا مسلما به ، لقد كنت أعمى ، وبعد أن استسلمت لهذه الصداقة ، ذهبت بسرعة إلى ماتمنيته لبلادى أعطيت بلادى أكثر وأكبر مما تقدر على هضمه » .

والواقع أن الشاه محمد رضا بعد إسقاطه حكومة محمد مصدق الوطنية بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية ، وعودته إلى إيران بعد فراره منها ، انتهج سياسة موالية للغرب باعترافه ، وصار يمثل دور شرطى الغرب فى منطقة الخليج ، ثم أنشأ جهاز السافاك[2] للبطش بمخالفيه ، فشاع الخوف والرعب بين طوائف الشعب الإيرانى ونفى الزعيم الدينى آية الله العظمى روح الله الخمينى من إيران إلى العراق فى عام ١٩٦٤ ثم أوعز إلى العراق أن يخرجه من أراضيه ، فخرج الخمينى إلى تركيا ثم إلى فرنسا حيث استقر به المطاف فى العاصمة الفرنسية باريس إلى أن عاد إلى إيران منتصرا وانتقم من الشاه بإسقاط نظامه الملكى وإعلان الجمهورية الإسلامية فى إيران .

وقد حاول الشاه أن يقوم بإصلاحات فحاول تطوير الزراعة والصناعة

(١) جاء هذا فى حديث صحفى أجراه معه أنيس منصور ونشر بالقاهرة فى مجلة ٦ أكتوبر العدد ١٩٢ الصادر فى ٢٩ يولية من عام ١٩٨٠ .

(٢) عرفت بجهاز السافاك فى القسم الأخير الذى أضفته إلى الكتاب .

وفرنجة المجتمع الإيرانى ، فقام على حد تعبيره بثورة بيضاء فى عام ١٩٦١ ولكنه فشل باعترافه فشلا ذريعا لأنه حاول أن يفعل فى بلاده أكثر وأكبر مما تقدر على هضمـــــه وكانت النتيجة أن تردت الأوضاع فى إيران ، وأخذت تسير من سئ إلى أسوأ وفشل حزب الشاه الحاكم فى إصلاح الأوضاع الاقتصادية والحد من التضخم ، ومعالجة المشاكل الاجتماعية ، والتخفيف من سخط الشعب الإيرانى على الشاه ونظامه ، فتمكن أعداء النظام الملكى من تنظيم صفوفهم وتعاونت القوى الثورية على اختلاف مذاهبها ومشاربها على إحراج النظام الحاكم ، ثم زلزلة أركانه وهدم بنيانه .

وقد عرضت الأحداث التى أدت إلى إسقاط النظام الملكى فى إيران ، وإبداله بالنظام الجمهورى الإسلامى وفقا لمبادئ المذهب الشيعى الاثنى عشرى — كما حدثت - دون تلوين لها أو تغيير فى ملامحها -- كما ذكرت - أظهرت الأحداث أن الخمينى لم يكن المخطط الحقيقى للثورة التى عصفت بالنظام الملكى فى أوائل عام ١٩٧٩ ، وإنما المخطط الحقيقى لهذه الثورة هو الدكتور أبو الحسن بنى صدر أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية بعد نجاح الثورة ، وهو مقيم حاليا فى باريس بعد عزله وهروبه من إيران .

أما الخمينى فقد ركب موجة الأحداث ووجد فيه الثوار رمزا يلتفون حوله ، وتتجمع صفوفهم حول رايته ، وبعد نجاح الثورة أمسك أعوانه بزمام الأمور فى إيران ، وكانت الموجة عارمة ، فلم يتمكن الخمينى نفسه من السيطرة عليها ، لأن الرغبة فى الانتقام من أعداء الثورة ، غلبت على الرغبة فى التصدى لحل المشاكل التى قامت الثورة من أجل التصدى لها وحلها ، فتفجرت المشاكل الداخلية وفى مقدمتها مشكلة الأقليات الدينية والعنصرية كمشكلة الأكراد ، كما تفجرت المشاكل الخارجية ، وفى مقدمتها مشكلة الحدود المشتركة بين إيران والعراق فى منطقة الخليج وهى المشكلة التى أشعلت نيران حرب ضروس بين الدولتين مازالت مشتعلة إلى هذه اللحظة ، وهى حرب تهدد أمن الخليج والعالم كله ، ولا يعلم إلا

الله نتائجها الخطيرة ، بعد أن فشلت – حتى الآن – جهود الوساطة التى بذلت لوضع حد لها ، وإنقاذ الدولتين المتحاربتين والعالم من ويلاتها .

وأرجو أن تكتمل بالقسم الأخير -الذى أضفته إلى هذا الكتاب – ملامح صورة إيران فى ماضيها وحاضرها على السواء .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

القاهرة فى ١٧ ربيع الثانى من عام ١٤٠٤ هـ
الموافق ٢٠ يناير من عام ١٩٨٤ م

عبد النعيم محمد حسنين

إيران فى حاضرها

تمهيد :

تغيرت صورة إيران بعد نجاح ثورة الخمينى تغيرا كبيرا غير ملامح صورتها تغييرا جذريا ، فتغير أسلوب حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، وظهر ذلك بوضوح فى مظاهر النشاط البشرى المختلفة فى هذه البلاد ذات الحضارة العريقة التى تغوص جذورها فى أعماق الزمن إلى مسافات بعيدة ، كما تغيرت صبغة الحضارة فيها ، فقد كان النظام الملكى سائدا فيها قبل شروق شمس الإسلام عليها ، وظل سائدا بعد أن دخلت إيران تحت راية الإسلام ، واستظلت بظله ، فسقط هذا النظام الملكى بعد أن ظل قائما أكثر من خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، واستبدلته ثورة الخمينى بالنظام الجمهورى ، وتغير كذلك أسلوب الحياة فى إيران المعاصرة فى جميع جوانبها ، وفى مختلف ميادينها بحيث أصبح لزاما على الدارس لحضارة إيران فى ماضيها وحاضرها أن يدرس ثورة الخمينى دراسة علمية وموضوعية لا تتحيز لها ولا تتحامل عليها ، لأن التعصب للشئ أو عليه يحجب عن الدارس الرؤية الصحيحة للأشياء على حقيقتها ويحول بينه وبين الحكم الصحيح على الأحداث ، ينتفى بذلك العلم الصحيح بها ، لأن العلم لا يفسده شئ بقدر ما يفسده التعصب سواء كان للشئ موضع الدراسة أو كان عليه

وسأحاول فى هذا القسم الأخير من كتاب « إيران ماضيها وحاضرها » وهو القسم الذى أعددته أنا – تأليفا – بعد أن كان ما سبقه ترجمة عن الانجليزية لما كتبه المستشرق الأمريكى دونالد ولبر . . أقول سأحاول فى هذا القسم أن أدرس ثورة الخمينى دراسة موضوعية غير متعصبة لها أو عليها وأن أتبين آثارها فى إيران فى حاضرها الجديد الذى يختلف اختلافا جوهريا عن ماضيها التليد حتى تكتمل ملامح صورة إيران فى ماضيها وحاضرها ، وفى حياتها المعاصرة ، وبالله التوفيق ، وهو جل شأنه وحده المستعان وعليه التكلان .

* * *

ثورة الخمينى

مقدمات الثورة :

إن الشئ الذى لا شك فيه هو أن ثورة الخمينى لم تقم بين عشية وضحاها بل سبقتها أحداث كثيرة تلاحقت على مدى ربع قرن من الزمان بعد سقوط محمد مصدق وفشل حركته المناوئة للنفوذ الأجنبى فى إيران ، وبعد أن أخذ الشاه[1] محمد رضا بهلوى آخر ملوك إيران يدور فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية ، ويمثل دور شرطى الغرب فى منطقة الخليج .

ولئن ظهرت ثورة الخمينى فى صورة ثورة شعبية ، فإن مسببات ظهورها تكمن فى تطور العلاقات بين السلطة الحاكمة ممثلة فى الشاه محمد رضا وأعوانه ، وبين الشعب بمختلف طوائفه وأحزابه وإن الدارس للأحداث التى سبقت قيام الثورة ليستطيع أن يتبين فى سهولة ويسر أن تغير أسلوب معاملة الشاه محمد رضا للشعب الإيرانى ساعد على تقوية الاتجاه إلى الثورة عليه ، ومكن الخمينى من العودة من المنفى واقتلاع جذور الملكية من إيران .

ويمكن تلخيص أهم الأحداث التى مهدت لقيام الثورة فيما يلى :

أولا : تغيير النظام الحزبى :

كانت فى إيران أحزاب متعددة ، توالى ظهورها بعد قيام الحياة النيابية ، وكثرة ارتفاع الأصوات المطالبة بجعل النظام الديمقراطى هو النظام السائد فى هذه البلاد ، غير أن الشاه أصدر أمرا بتوحيد الأحزاب الايرانية القائمة فى حزب واحد أطلق عليه اسم « حزب رستاخيز إيران » ومعناه بالعربية « حزب نهضة إيران » وأصبح هذا الحزب الجديد حزب الشاه الذى يأتمر بأوامره ، بينما أوقف الشاه نشاط الأحزاب المعادية له ، بحجة توحيد القوى السياسية وتوجيهها إلى اتجاه واحد ، وهى فكرة مستوحاة من النظم الاشتراكية .

---

(١) « الشاه » كلمة فارسية معناها « الملك » .

وقد ظل « حزب نهضة إيران » ممسكا بزمام الأمور فى إيران طوال المدة التى تولى فيها أمير عباس هويدا منصب الأمين العام للحزب مع بقائه رئيسا للوزراء ، فقد استطاع هويدا أن يخمد صوت المعارضة غير أن الشاه لم يلبث أن خشى من ازدياد نفوذ هويدا ، فعزله من رئاسة الوزارة ومن الأمانة العامة للحزب كذلك وعيّنه وزيراً للبلاط ، وأسند رئاسة الوزارة إلى جمشيد آموزكار الذى لم يلبث أن انتخب أمينا عاما للحزب .

ولم ينجح نظام الحزب الواحد ، فأخذت ريح التغيير تهب فى الميدان السياسى وظهرت حركة انشقاق فى صفوف الحزب نفسه ويبدو أن الشاه اختلف مع قادة حزب « نهضة إيران » الحاكم فسمح للصحف بانتقاد تصرفات الحزب والمطالبة بتأليف أحزاب أخرى معارضة ، ولاحت فى الأفق السياسى فى إيران ملامح تحول إيران من نظام الحزب الواحد إلى نظام تعدد الأحزاب مرة أخرى[1] .

ثانيا : ظهور معارضة قوية :

كان فساد نظام الحزب الواحد فى إيران فى أواخر عهد الشاه محمد رضا سببا فى ظهور معارضة قوية فى مجلس النواب الإيرانى،وإن الدارس لما كتبته الصحف الإيرانية الصادرة فى صيف عام ١٩٧٨ م ليدرك وجود هذه المعارضة القوية لنظام الحزب الواحد؛ فقد شهد مجلس النواب الإيرانى فى جلسته التى انعقدت يوم ٢١ يونيو ١٩٧٨ حربا كلامية عنيفة بين أنصار الحزب الحاكم ومعارضيه حتى اضطر رئيس المجلس إلى مغادرة القاعة[2]، مما يشير إلى اضطراب الأوضاع السياسية فى إيران فى ذلك الوقت .

---

(١) صحيفة كيهان العدد ١٠٤٩٥ الصادر فى ٣١ خرداد ماه من عام ٢٥٣٧ ملكى .

(٢) ارجع إلى صحيفة اطلاعات فى عددها رقم ١٠٤٩٥ الصادر فى أول تيرماه عام ٢٥٣٧ ملكى

وحاولت الحكومة تهدئة الأوضاع فاعلنت ترحيبها بالنقد الموجه لها ، وسمحت بعودة المواطنين الذين كانوا يعارضون النظام وغادروا البلاد خوفا من بطش الحكومة، وأكدت سماحها لهم بحرية النقد والعمل السياسى، وسارعت بإجراء تعديلات فى قيادات الحزب، وبدأ الحزب عقد ندوات لمناقشة قضية الحرية وتعدد الأحزاب ، وعبرت الحكومة عن رغبتها فى الإصلاح فزادت عدد الطلاب المقبولين فى الجامعات ، كما زادت عدد المواطنين المسموح لهم بأداء فريضة الحج ، كما أصدرت عددا من القرارات للتخفيف من أزمة الإسكان وأصدرت كذلك قرارا بتغيير مدير شركة البترول الوطنية كما أعلنت العزم على حل المشكلات الاقتصادية التى تشكو منها البلاد [1]

ثالثا : تشقق تحالف السلطة[2] :

ومما زاد الطين بلة أن تحالف السلطة لم يلبث أن تشقق بعد ظهور المعارضة القوية فى مجلس النواب الإيرانى واضطراب الأوضاع السياسية فى البلاد ، وفجر هو شنك النهاوندى أحد كبار المنشقين فى حزب نهضة إيران الحاكم الموقف حين نشر تقرير لجنة تقصى الحقائق التى شكلها الشاه برئاسته ، فقد كشف التقرير فشل الحكومة فى معالجة المشاكل الاقتصادية ومكافحة التضخم. وعدم انسجام القوانين المالية والضريبية مع التغيرات الاقتصادية ، وفساد الأجهزة الحكومية ، وفقدان التخطيط فى الشئون الاقتصادية والعمرانية، خاصة بعد سنة ١٩٧٤م كما أن الزيادة فى دخل البترول ، مع ظهور الفساد فى الأجهزة التنفيذية .

جعل كل شئ يمكن شراؤه بالمال مما أدى إلى اضطرابات اقتصادية واجتماعية

---

(١) ارجع إلى صحيفة اطلاعات فى عددها رقم ١٠٦٥٤ الصادر فى أول تيرماه عام ٢٥٣٧ ملكى .

(٢) ارجع إلى كتاب مسألة الثورة الإيرانية للدكتور محمد السعيد عبد المؤمن لمزيد من المعلومات فى هذه المسألة .

وقد اقترح التقرير عدة حلول وطالب بتنفيذها على الفور[١] كما هاجم التقرير سلطتين قويتين فى البلاد هما الحكومة والاتحادات النقابية .

وكان طبيعيا أن يثير هذا التقرير موجات من ردود الفعل من جانب الحكومة والاتحادات النقابية ، أما الحكومة فقد استجابت لما جاء فى التقرير فأباحت المظاهرات السياسية والاجتماعية تحت رقابة القانون ، ولم تتدخل فى انتخابات نقابة المحامين القوية مما سمح بنجاح شخصيات قوية معروفة بميولها الثوريه فاختير حسن نزيه نقيبا للمحامين وعبد الكريم الأنوارى وهدايت الله متين دفترى نائبين للنقيب .

وأما الاتحادات النقابية فقد استنكرت ما جاء فى التقرير فازداد تشقق تحالف السلطة مما أدى إلى ازدياد الاضطراب السياسى ، واختلال الأوضاع بعامة فى إيران ، وأخذت نقابة المحامين بعد تحررها تساهم فى توجيه الأحداث السياسية فى إيران ، وطالب مجلس إدارتها بالدفاع عن المتهمين السياسيين فى المحاكم المدنية والعسكرية ، كما طالب بإعادة محاكمة المعتقلين السياسيين[٢] وتفكك الحزب الحاكم إلى أجنحة مختلفة المشارب والمناهج ، وهكذا ازداد التشقق فى اتحاد السلطة، وازدادت الأحوال فى إيران اضطرابا وكثرت التيارات السياسية المتعارضة المتضاربة ، وصار الجو مشحونا بالنذر ، مليئا بالمتفجرات ، وباتت الليالى من الأيام حبالى ، وقد يلدن كل عجيب .

أما الجامعات الإيرانية فقد ظلت طوال سنوات حكم الشاه خصما عنيدا للنظام ، لأنها كانت مشحونة بالأفكار التحررية المتباينة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وأما الشاه فقد سلك أساليب متعددة فى التعامل مع الجامعات

---

(١) نص التقرير منشور فى كتاب مسألة الثورة الإيرانية للدكتور محمد السعيد عبد المؤمن ص ٤٧ – ٤٩ نقلا عن جريدة اطلاعات العدد ١٥٦٥١ الصادر فى ١٩ تيرمن عام ٢٥٣٧ ملكى .

(٢) جريدة آيندكان العدد ٣١٦٧ الصادر فى ٢٤ تيرمن عام ٢٥٣٧ ملكى .

تتراوح بين الاسترضاء والقهر ، فحاول إسكات الأصوات المعارضة لنظامه عن طريق إبعاد الأساتذة أو اعتقالهم أو فصلهم أو منع ترقيتهم أو تهديدهم فى أنفسهم وعائلاتهم ، مع تعيين الموالين لنظامه فى الوظائف الحساسة بالجامعات وإغداق المزايا والهبات عليهم ، كما حاول كذلك استرضاء الأساتذة بزيادة مرتباتهم ومكافآتهم زيادة كبيرة ، وإغراقهم بمزايا مادية لم يكن لهم سابق عهد بمثلها ، فسكت بعض الأساتذة وآثروا السلامة ، وظل البعض الآخر تعلو أصواتهم بمعارضة النظام بين الحين والحين .

وأما طلاب الجامعات فكانوا شغل النظام الشاغل ، فقد اعتنقت طائفة منهم المبادئ الشيوعية ، بينما وجد حماة المذهب الشيعى فى الجامعات تربة مناسبة لنشر مبادئ التشيع ، فاعتنقتها طائفة أخرى من طلاب الجامعات لتصمد فى وجه الشيوعيين الملحدين ، ولم يفكر النظام الحاكم فى قهر الجماعة الإسلامية ليستفيد منها فى مواجهة الشيوعيين .

وقد استعمل الشاه مختلف الأساليب لإسكات صوت الطلبة المتمردين على نظامه ، وتنوعت هذه الأساليب بين القهر والتعذيب والسجن والحرمان من استكمال الدراسة ، ونشر الجواسيس بينهم لإثارة الرعب فى نفوسهم فكان الطلاب يتحينون الفرصة للعمل ضد الحكومة والنظام ، وهكذا تلاقت مطالب الأساتذة مع مطالب طلابهم حين اجتمعوا فى جامعة طهران ، واتفقوا على مطالبة الحكومة بضمان حرية القول والبيان والفكر وإلغاء الحرس الجامعى ، ومنح الاستقلال الكامل للجامعات ومعاهد التعليم العالى ، وإعادة الجامعيين الذين طردوا من الجامعات لأسباب واهية أو استقالوا بسبب مضايقات النظام لهم ،وتوفير المناخ الملائم للطلاب للدراسة وإحياء النشاط الاجتماعى ، وإعادة الطلاب الذين طردوا من الجامعات بسبب نشاطهم السياسى[1] .

---

(١) جريدة كيهان ، العدد ١٠٥٩١ الصادر فى ٢٩ من عام ١٣٥٧ هـ . شمسى .

وهكذا أخذت مظاهر الاعتراض على الحكومة تتخذ شكلا أكثر عنفا فكثرت مظاهرات الطلاب ، وازداد العنف ، وكثر اعتقال الأحرار وتقديمهم للمحاكمة ، وبات حدوث ثورة مضادة للنظام الحاكم أمرا وشيك الحدوث .

رابعاً : فشل الشاه فى احتواء الأوضاع الجديدة :

ولقد حاول الشاه احتواء الأوضاع الجديدة ، وامتصاص غضب المتمردين من الطلاب وغيرهم من طبقات الشعب المختلفة ، ولكنه فشل فى ذلك فشلا ذريعا ، وتوالى قيام المظاهرات ، وظهور أعمال العنف وعمت الفوضى ربوع البلاد ، وكثر إحراق دور السينما ، وأصبح الشاه وحكومته فى وضع قلق مهزوز ، وبدا أن سقوط نظام الشاه بات وشيك الحدوث .

خامسا : تشكيل حكومة جديدة :

وشعر الشاه بأن نظامه الملكى يسرع إلى الزوال ففكر فى تشكيل حكومة جديدة ، لعله بذلك يرضى الرأى العام ، خاصة بعد أن أدرك أن أعداء النظام يحاولون إثارة المشاعر الدينية ضده ، فعين شريف إمامى رئيس مجلس الشيوخ رئيسا للوزارة بدلا من آموزكار وقام شريف إمامى بتشكيل وزارة من عناصر معتدلة لتكون وزارة مصالحة وطنية ، ولم تلبث الوزارة الجديدة أن أعلنت برنامجها الذى يقضى بتنفيذ القوانين الإسلامية وتطبيق المبادئ الديمقراطية ومحاربة الفساد،وضمان حرية الانتخابات وحرية نشاط الأحزاب وحرية السلطة القضائية والاهتمام بالشباب والجامعات،والعناية بالزراعة وبالإنتاج الوطنى بعامة وتوفير المياه والكهرباء والخدمات الطبية ،وإصلاح الطرق وتعقب المتهربين من دفع الضرائب المستحقة عليهم وإصلاح الجهاز الإدارى ومعاقبة المسئولين المخالفين وتدعيم السلطة التشريعية .

وكان هذا البرنامج كافيا لتهدئة جماهير الشعب الإيرانى الساخطة على نظام الشاه وبادرت الحكومة كذلك ، بإلغاء التقويم الملكى والعودة إلى العمل بالتقويم الهجرى الشمسى ، وكان الشاه قد أمر بالعمل بالتقويم الملكى بعد الاحتفال بمرور

خمسة وعشرين قرنا على تأسيس الملكية فى الأمبراطورية الإيرانية كوسيلة للتعبير عن أصالتها وعراقتها ، ولبيان عظمة الحضارة الإيرانية ، ولربط الشعب الإيرانى بالنظام الملكى ، كما قامت الحكومة الجديدة بإغلاق نوادى القمار والحانات وما شابهها(١) ، وأعلنت أنها ستتصل بكبار رجال الدين ورؤساء الجماعات الدينية والسياسية المختلفة للتشاور معهم من أجل إيجاد حلول سريعة للمشاكل التى يعانى منها الشعب الإيرانى ، وبادرت كذلك بالاعتراف بوجود ثلاثة عشر حزبا وجماعة سياسية وبحرية هذه الأحزاب فى الحركة والنشاط .

غير أن شريف إمامى رئيس الوزارة الجديدة كان معروفا بتأييده لنظام الشاه وميله إلى الغرب ، فكان اختياره رئيسا للوزارة محاولة من الشاه للاستفادة من خبرة شريف إمامى السياسية فى تهدئة الموقف المتوتر وإرضاء رجال الدين لأن شريف إمامى نفسه ينتمى إلى أسرة كبراؤها من رجال الدين .

وحاول شريف إمامى الاتصال برجال الدين ولكنه لم يجد ترحيبا منهم بالتعاون معه ، كما فشل فى امتصاص غضب الشعب الإيرانى الذى يعرف ولاء شريف إمامى الشديد للشاه ونظامه ، فلم تلبث المظاهرات أن اندلعت من جديد فى العاصمة وغيرها من المدن الكبرى فازداد الوضع توترا ، وأخذت الشخصيات الدينية فى الظهور على المسرح السياسى فى إيران ، فظهر آية الله العظمى شر يعتمدارى وأخذ يدعو الجماهير الغاضبة إلى الهدوء حفاظا على مصالح البلاد كما قامت الحكومة باطلاق سراح عدد من رجال الدين المعتقلين وراجت إشاعة عن موافقة الحكومة على عودة آية الله العظمى الخمينى من منفاه بالعراق(١) ، كما أعلنت الحكومة أن كل مواطن له الحق فى التعبير عن رأيه بحرية

---

(١) جريدة رستاخيز : العدد ١٠٠٠ الصادر فى يوم ٦ شهور من عام ١٣٥٧ هـ . شمسى .

(٢) كان الشاه قد نفى الخمينى إلى العراق فبقى فيه خمسة عشر عاما ثم أخرجه العراق بايعاز من الشاه فرحل إلى تركيا ثم إلى فرنسا قبل أن يعود إلى إيران ويسقط النظام الملكى .

تامة فى إطار القانون ، وأن الدراسة فى الجامعات لن تعطل مرة أخرى[1] .

غير أن محاولات الحكومة الجديدة لتهدئة الأحوال ذهبت أدراج الرياح ، فلم تُجد شيئا ، وظلت المظاهرات المعادية للنظام تزداد شدة يوما بعد يوم ، وتنتشر فى سائر أنحاء إيران ، ونشط كبار رجال الدين فى مطالبة الحكومة بالإفراج عن رجال الدين المسجونين من أمثال آية الله منتظرى وآية الله طالقانى والسماح بعودة آية الله العظمى طباطبائى وآية الله العظمى الخمينى إلى إيران وكان شريعتمدارى يتزعم رجال الدين حينذاك ويقود حركتهم ضد الحكومة ويعطيها مهلة لا تتعدى ثلاثة أشهر للاستجابة لمطالب رجال الدين .

كما عاودت الجبهة الوطنية الظهور على المسرح السياسى بعد تنظيم صفوفها واختيار كريم سنجابى أمينا عاما لها ، ودعت إلى عودة العناصر الوطنية المقيمة بالخارج للمشاركة فى العمل الوطنى ، كما دعا سنجابى إلى السماح للشيوعيين بممارسة العمل السياسى وإعطائهم حرية التعبير عن آرائهم ، فاستطاع حزب تودى المنحل معاودة الظهور من جديد من خلال هذه الأحداث ، ودعا الأحزاب المختلفة إلى تشكيل جبهة واحدة ضد الحكومة تعمل على إسقاطها وتأميم صناعة البترول وإنهاء الأحلاف العسكرية وتشكيل حكومةائتلافية تقوم بتغيير النظام الحاكم ومحاكمة المسئولين فيه وإلغاء القوانين المخالفة للدستور وإطلاق الحريات وطرد المستشارين العسكريين الأمريكيين .

وهكذا ازدادت حركة المعارضة ضد حكومة شريف إمامى التى قامت بدورها بإعلان الأحكام العرفية وتعيين حكام عسكريين على طهران والمدن الكبيرة الأخرى بينما ألغى الشاه زيارته التى كان يعتزم القيام بها لأوربا الشرقية وأقال أمير عباس هويدا من وزارة البلاط[2] .

---

(١) جريدة كيهان : العدد ١٠٥٥٢ الصادر فى ٨ شهر يور من عام ١٣٥٧ هـ . شمسى .

(٢) جريدة كيهان العدد ١٠٥٥٩ الصادر فى ١٦ شهر يور من عام ١٣٥٧ . هـ شمسى .

وحاول شريف إمامى الخروج بالبلاد من الأزمة التى تمر بها فقدم برنامجا جديدا لحكومته إلى مجلس النواب يقوم على إقرار الأمن وحفظ النظام وإجراء انتخابات حرة تشترك فيها الأحزاب الشرعية مع ضمان الحقوق والحريات الفردية والاجتماعية وترقية جميع العاملين فى الدولة درجة مالية ، وتطهير الجهاز الإدارى ومنع استغلال النفوذ ،وضمان استقلال القضاء ،وإعفاء المنتجات الزراعية والحيوانية وتربية الماشية من كل أنواع الضرائب،وتسهيل زيارة الأماكن المقدسة لجميع الراغبين فى زيارتها (١) .

والدارس لبرنامج الحكومة يستطيع أن يجد فيه مفاسد نظام الشاه وعيوبه التى ثار الشعب بسبب وجودها وطالب بالإصلاح ثم باسقاط النظام نفسه ، فلم تستطع حكومة شريف إمامى أن تهدئ من ثورة الشعب الإيرانى ، فاستمر اندلاع المظاهرات فى مختلف أنحاء إيران برغم الأحكام العرفية ، ثم بدأت المعارضة للحكومة والنظام تتخذ شكلا مسلحا منذ أكتوبر من عام ١٩٧٨ م وبدأت تهاجم رجال الأمن بالأسلحة المختلفة ، وأخذ القتلى والجرحى يتساقطون من الجانبين .

وحاولت الحكومة تهدئه الموقف باطلاق سراح بعض المعتقلين السياسيين وإنقاص مدة سريان الأحكام العرفية والقبض على عدد من الوزراء السابقين والمسئولين فى الوزارات السابقة بتهمة الفساد والوعد بالقيام باصلاحات شاملة (٢) .كما أعلنت الحكومة سماحها للذين فروا بعد إعلان الأحكام العرفية بالعودة إلى إيران مع تأمين حريتهم ، كما أطلقت سراح مهدى بازركان زعيم الجمعية الإيرانية للدفاع عن حقوق الإنسان ، غير أن هذا كله لم يخمد نيران الثورة المتأججة ضد الشاه ونظامه .

---

(١) جريدة كيهان العدد ١٠٥٦٠ الصادر فى ١٨ شهر يور من عام ١٣٥٧ هـ . شمسى ،

(٢) جريدة اطلاعات العدد ١٥٧١٣ الصادر فى ٢٦ شهر يور من عام ١٣٥٧ هـ شمسى .

سادسا : تعديل نظام السافاك :

السافاك هو الكلمة التى تطلق على هيئة الأمن والمعلومات التى أنشاها تيمور بختيار الحاكم العسكرى فى ١٩٥٦ م (١٣٣٥ هـ . ش) لإنهاء حالة الطوارئ بعد أن سادت البلاد موجة من الاغتيالات السياسية استمرت ثلاث سنوات على أيدى أعضاء حزب توده الشيوعى ، وكان عمل هذه الهيئة هو تعقب الشيوعيين والقبض عليهم وسجنهم وقد قامت السافاك بمهام الحكم العسكرى - بعد إلغائه - واستطاع تيمور بختيار بواسطة السافاك طوال الخمس السنوات التالية لإنشاء الهيئة المذكورة ، أن يعتقل المناهضين للنظام على اختلاف مذاهبهم وأن يقدم الكثيرين منهم إلى فرقة الإعدام ، غير أن بختيار نفسه سقط فى عام ١٩٦١ م (١٣٤٠ هـ . ش) وفر من البلاد وصرح للصحفيين فى مطار روما بأن الحرية لا وجود لها فى إيران(١) .

وخلف حسن پاكروان تيمور بختيار فى رئاسة السافاك لمدة ثلاث سنوات وكان آخر عمل قام به بأمر من الشاه هو نفى آية الله الخمينى فى ٤ أكتوبر ١٩٦٤ م (١٣٤٣ هـ . ش) بتهمة التحريض على الثورة ضد النظام الحاكم ، والعمل ضد أمن البلاد واستقلالها ، ثم تولى بعده نعمة الله نصيرى رئاسة السافاك لمدة أربعة عشر عاما قاسى الإيرانيون فى خلالها ، أنواعا من الرعب لا مثيل لها،فقد كان المعتقلون يعذبون حتى الموت ويعتقلون لأتفه الأسباب،ولما اضطربت الأحوال فى إيران فى أواخر حكم الشاه أثارت المعارضة قضية جهاز السافاك ، فاضطر الشاه إلى عزل نصيرى رئيس الجهاز وتعديل نظامه ، وجعل عمله قاصرا على مطاردة المخربين من الذين يعملون فى داخل البلاد أو من القادمين من خارجها،حتى يغير السافاك صورته المخيفة ،ويصير عمله مشروعا،فيه خدمة للوطن .

---

(١) جريدة كيهان : العدد ١٠٥٩٩ الصادر فى ١٨ بانماه من عام ٧ ، ١٣ هـ ش .

غير أن التعديل الذى أدخله الشاه على نظام السافاك لم يطفئ غضب الشعب ، فطالب بالقبض على نصيرى ومحاكته واستجاب المسئولون لما طالب به الشعب ، فتم القبض على نصيرى وتقديمه للمحاكمة[1] .

سابعا : عجز الحكومة عن الصمود أمام ضغط المعارضة :

بلغت الأوضاع فى إيران درجة من الاضطراب فى أواخر عام ١٩٧٨ م بحيث عجزت الحكومة عجزا تاما عن الصمود أمام ضغط المعارضة الشديد المتزايد يوما بعد يوم ، حتى طالبت المعارضة الحكومة بالكشف عن المفسدين والمستغلين والمختلسين من كبار رجال الدولة واعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة ، كما أثارت المعارضة قضية المعتقلين السياسيين بشكل جاد وطالبت باطلاق سراح المسجونين من الوطنيين ، ووقف التعذيب فى المعتقلات ، واطلاق حرية الصحافة ، ورفع الرقابة عن الصحف والمطبوعات .

وحاولت الحكومة مهادنة المعارضة فأعلنت وقف مساعداتها المالية لحزب نهضة إيران تمهيدا لحله وإلغائه، ثم قامت بحل الحزب فعلا وتسليم أمواله ومبانيه ومنقولاته للحكومة ، وأمر الشاه بمنع أعضاء الأسرة المالكة من التدخل فى الشئون الحكومية أو استخدام النفوذ للحصول على منفعة شخصية لهم أو لأفراد آخرين ، وأنشأ رئيس الوزراء لجنة لتعقب المنحرفين والمفسدين فى كافة الأجهزة الحكومية والوزارات وشركات القطاع العام وزادت مرتبات الموظفين لحمايتهم من الانحراف .

غير أن الحكومة لم تستطع مع هذا توفير الأمن والاستقرار فى إيران فظلت جماهير الشعب ثائرة ، وكثر الحديث عن المستقبل السياسى لإيران ، وارتفعت الأصوات مطالبة بتغيير النظام لإنقاذ البلاد من أخطار حرب أهلية يكتوى الجميع بنارها .

---

(١) ارجع إلى كتاب الثورة الإيرانية للدكتور محمد السعيد عبد المؤمن ص ٧٣٠٧٢ للحصول على مزيد من المعلومات حول هذه المسألة .

ثامنا : ظهور رجال الدين على مسرح الأحداث :

واستطاع رجال الدين بزعامة آية الله العظمى شريعتمدارى أن يستفيدوا من حالة الغليان الموجودة بين أفراد الشعب الإيرانى فى توجيه الثائرين بما لهم من نفوذ روحى عليهم ، وحاول شريف إمامى رئيس الوزراء أن يسترضى الجماهير الثائرة فأفرج عن الزعماء الدينين المعتقلين — كما ذكرنا — ووعد بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وكان آية الله العظمى شريعتمدارى بطبيعته رجلا معتدلا ، فقدر ظروف الحكومة وموقفها الحرج ، ودعا الجماهير الثائرة إلى الهدوء والتزام النظام ، وإعطاء الحكومة فرصة لإثبات حسن نواياها ، فلم يعجب هذا التوجيه الجماهير الثائرة ، فاتجهت جبهات المعارضة الوطنية إلى آية الله العظمى الخمينى لقيادة الثورة .

وكان الخمينى حينذاك فى باريس بعد أن غادر العراق فى الخامس من أكتوبر من عام ١٩٧٨ (١٣٥٧ هـ . ش) ، ويعد هذا التاريخ بداية للعمل السياسى المنظم من جانب الخمينى ضد النظام الملكى الحاكم فى إيران ، بعد أن سمحت الحكومة الفرنسية له بممارسة نشاطه السياسى واستقبال أصدقائه وأتباعه ، فبدأت تصريحاته السياسية تخرج من العاصمة الفرنسية منذ ذلك الوقت ، فشجعت هذه التصريحات أقطاب المعارضة فى البرلمان على إثارة قضية إخراج الزعيم الدينى من البلاد واستجواب الحكومة حول أسباب إخراجه ومطالبتها بإعادته إلى البلاد . ٠

ثم التقى الخمينى فى باريس بمهدى بازركان رئيس لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان ، فاتفقا على تشكيل جبهة بزعامة الخمينى مهمتها مناوأة النظام الحاكم والعمل على إسقاطه[1] بالتعاون مع جميع أجنحة الثورة السياسية المخالفة للنظام داخل إيران وخارجها .

---

(١) جريدة اطلاعات : العدد ١٥٧٣٩ الصادر فى ٢٥ فهرمان ١٣٥٧ هـ . ش .

ونجحت خطة الخميني فانضمت – إلى جبهته – جبهة إيران الوطنية بزعامة كريم سنجابي الذى طار إلى باريس والتقى بالخميني ثم أعلن أن الجبهة الوطنية ستلتزم بالعمل بتوجيهات الخميني ، كما تصاعد نشاط رجال الدين فى إيران على ضوء تصريحات الخميني ، وصار مطلبهم الوحيد – الذى أعلنوه صراحة – هو إقامة حكومة إسلامية بعد إسقاط النظام الملكى ، وصار هذا المطلب مقبولا لدى جميع القوى الوطنية المعارضة لنظام الحكم فراحت تؤيدة بكل طاقاتها .

ثم أعلن الخميني أن إيران ينبغى أن تصير جمهورية إسلامية , فأقدمت الحكومة على تحديد إقامة شريعتمدارى – الزعيم الدينى المعتدل – وكان هذا العمل من أفظع أخطائها التى زادت الثورة ضد النظام اشتعالا وضراوة ، خاصة بعد أن أعلن الخميني أن كل من يتصل بالنظام أو يتفاوض معه يعد عدوا للحركة الإسلامية .

وحاول الشاه دفع الفوضى السياسية عن البلاد ، فأخذ يبحث عن رئيس وزراء قوى يستطيع الإمساك بزمام الأمور وإقرار الأوضاع المضطربة فى إيران ، ثم وقع اختياره فى النهاية على شابور بختيار الرجل الثانى فى الجبهة الوطنية لتولى رئاسة وزارة تخلف وزارة شريف إمامى ، ولكن الخرق كان قد اتسع على الراقع فقد كان النظام الملكى حينذاك فى حالة احتضار .

تاسعا : بداية نهاية النظام الملكى :

كان النظام الملكى فى إيران – فى أواخر عام ١٩٧٨ م(١٣٥٧ هـ . ش) فى حالة احتضار يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وكانت الأحداث تتلاحق ، وتضيق الخناق على الشاه ، بحيث وجد نفسه مضطرا إلى التعاون مع الجبهة الوطنية ، دون زعيمها سنجابى الواقع تحت تأثير الخميني ، فاتصل بالرجل الثانى فى الجبهة شابور بختيار وعرض عليه تولى رئاسة وزارة تخلف وزارة شريف

إمامى ، وقبل بختيار على أن يعين الشاه مجلس وصاية ينوب عنه بعد مغادرته البلاد فى عطلة يقضيها فى الخارج[1] .

وفشل بختيار منذ البداية فى معالجة الموقف ، وثارت عليه جميع الحركات المعادية لنظام الشاه ، وطردته الجبهة الوطنية من صفوفها ، كما طرده الخمينى من الحركة الإسلامية ، ورفضت الأحزاب المعارضة التعاون معه بينما أعلن بختيار تعهده بالقيام بالإصلاحات التى يطالب الشعب بها ، من خلال الدستور ، واتفق مع الشاه على مغادرة البلاد فى إجازة حتى تستقر الأوضاع ثم يعود بعدها ملكا يملك ولا يحكم .

ولكن بختيار فشل فشلا ذريعا ، لأنه كان يجهل ما خططه الخمينى بمساعدة أنصاره فى داخل إيران وخارجها ، فحاول الاستعانة بالجيش للسيطرة على الموقف ، فنزلت وحدات من القوات المسلحة إلى الشوارع ، وكان معنى هذا تصعيد الصراع إلى ذروته ، فقد عُدَّ نزول الجيش إلى الشوارع عملا عدائيا ضد الشعب واستفزازا صريحا له ، فأعلن رجال الدين الثورة الشعبية ، ودعوا جماهير الشعب إلى النزول إلى الشوارع تصديا للاستبداد ، فأخذت الجماهير تتدفق على الشوارع والميادين بتحريض من قيادات المعارضة ، وحاول الجيش إبعاد الناس وتفريق جمعهم واضطر فى النهاية إلى الانسحاب إلى ثكناته وترك جماهير الشعب تتصرف كما تشاء ، فكان هذا إيذانا بانتهاء النظام الملكى وسقوطه ، ونجاح ثورة الخمينى وأنصاره .

عاشرا : عودة الخمينى وإعلان الثورة الإسلامية :

تهيأت الظروف لعودة الخمينى إلى إيران بعد فشل بختيار فى السيطرة على الموقف بمساعدة الجيش ، واضطر بختيار فى النهاية إلى الرضوخ للأمر الواقع والموافقة على عودة الخمينى .

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، العدد الصادر فى ١٩٨٠/١٢/٢٤ وفيه مذكرات الشاه .

ووصل الخمينى إلى إيران فاستقبل استقبال الأبطال الفاتحين المنتصرين والتف الناس حوله فأصبح سيد الموقف ، واضطر بختيار إلى مغادرة البلاد والذهاب إلى باريس فبدأت بذلك مرحلة جديدة من تاريخ إيران هى مرحلة الثورة الإسلامية بزعامة الخمينى والمجلس الثورى الإسلامى الذى يبدو أنه شكل قبل عودة الخمينى إلى إيران .

وقد عين الخمينى فور عودته مهدى بازركان رئيسا لحكومة مؤقتة تدير دفة الأمور فى البلاد ، وحاول إرضاء جميع القوى الوطنية التى شاركت فى الثورة ، فكانت الحكومة فى الحقيقة حكومة زعامات أكثر منها حكومة إسلامية متجانسة ، واضطر الخمينى إلى الإبقاء على المجلس الثورى ليحكم البلاد عن طريقه بمساعدة الحرس الثورى الذى يكفل له السيطرة على الموقف .

وأعلنت الحكومة أن مهمتها هى إجراء استفتاء فى البلاد على نظام الحكم واختيار رئيس للجمهورية ، ومضت فى الإعداد لهذا الاستفتاء الشعبى ، الذى باركته كافة الجماعات السياسية ، حتى حزب توده الشيوعى أعلن أنه سوف يصوت لصالح الجمهورية الإسلامية ويؤيدها(1) .

وهكذا سقط النظام الملكى فى إيران بعد أن ظل قائما أكثر من خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، وكان يعد أعرق النظم الملكية ، وأطولها عمرا ، وأعمقها تأثيرا فى النظم الملكية المختلفة القائمة فى أنحاء العالم ، وتلك سنة الله فى خلقه ، وهو وحده – جل شأنه – مالك الملك ، وهو سبحانه القائل : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شئ قدير(2) » صدق الله العظيم .

---

(1) جريدة كيهان : العدد ١٠٦٩٤ الصادر فى ٢٤ اسفند من عام ١٣٥٧ ه . ش .
(2) سورة آل عمران : آية ٢٦ .

إيران المعاصرة فى ظل ثورة الخمينى :

ليس من الأمور السهلة على الدارس أن يقوِّم ثورة الخمينى ، ويبين آثارها فى إيران استنادا إلى ما تكتبه الصحف المختلفة أو ما تذيعه أجهزة الإعلام المتنوعة ، سواء منها المؤيد للثورة أو المعادى لها فالمعلومات المستقاة من المؤيدين للثورة أو من المعارضين لها لا تصلح مادة علمية صحيحة يعتمد عليها فى الدراسة والتقويم وإصدار الأحكام العلمية الصحيحة أو القريبة من الصحة ، ولذلك فقد ترددت كثيرا فى الكتابة عن ثورة الخمينى وآثارها فى إيران المعاصرة ، وكنت أنتظر فرصة مواتية لزيارة إيران وهى فى ظل ثورة الخمينى ، كما زرتها من قبل مرات عديدة فى ظل النظام الملكى ، حتى تكون دراستى واقعية على الطبيعة ولكن الزيارة لم تتيسر لى – حتى الآن – ووجدت من الضرورى والمفيد أن أكمل كتاب إيران ماضيها وحاضرها حتى لا يصدر كما صدر قبل ثورة الخمينى منتهيا عند عهد الشاه محمد رضا بهلوى ، ففضلت أن أضيف إليه هذا الجزء الأخير عن ثورة الخمينى فى إيران ، وقد استقيت أكثر معلوماتى عن الصحف الإيرانية التى يتيسر الحصول عليها وبخاصة الصحف التى صدرت قبيل الثورة ومن كتب الخمينى وقادة الثورة أنفسهم وحاولت أن أكون موضوعيا – بقدر المستطاع – فأعرض الأحداث كما وقعت دون تفسير موجه لها ، فكثيرا ما تكون الحقيقة كامنة فى ثنايا الأحداث بحيث يستطيع الدارس والقارئ استخلاصها يقينا أو ترجيحا والله الموفق للصواب والهادى إلى سواء السبيل .

والشئ الذى لا شك فيه بين الدارسين أن الزعيم الدينى الإيرانى آية الله العظمى روح الله الخمينى هو الذى خطط لقيام ثورة فى إيران ضد نظام الشاه محمد رضا بهلوى الذى أخرجه من إيران فى عام ١٩٦٤ ونفاه إلى العراق وهو الذى أطلق على ثورته اسم الثورة الإسلامية ولكن الأحداث تثبت غير ذلك والخمينى – كما هو معروف – عالم دينى وزعيم شيعى ، جاوز الثمانين من عمره حتى

الآن ، ومازال يشترك فى توجيه سير الأحداث فى إيران ، ويحاول أن تكون له الكلمة الأولى فى كل الأمور.

والخمينى كغيره من علماء الشيعة الإمامية قد درس علوم القرآن والحديث والفقه من وجهة النظر الشيعية ، وحاول الاستفادة من تجارب ثوار الشيعة السالفين مع السلطات الحاكمة ، وهو يعتقد أن الإصلاح لا يتم إلا على يد حكومة إسلامية بالمفهوم الشيعى لهذه الحكومة ، فهو يعتقد أن انحراف العالم يمكن أن يؤدى إلى انحراف أمة ، فمسئولية العلماء تختلف عن سائر الناس فى حجمها وثقلها ، ولهذا كان التركيز على العلماء فى توجيه دفة الحكم فى إيران بعد الثورة،والمقصود بهم علماء المذهب الشيعى الذين يلقب الواحد منهم بآية الله ، ويلقب الواحد من كبارهم بآية الله العظمى .

والعلماء بمبادئ الدين الإسلامى وأصول المذهب الشيعى الإمامى[1] هم أجدر الناس بإقامة الحكومة الإسلامية ، وتولى أمور المسلمين ، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وقد عين الرسول صلى الله عليه وسلم - خليفة[2] يتولى أمور المسلمين بعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، ثم تعاقب الأئمة من نسل على كرم الله وجهه بعد استشهاده إلى الإمام الثانى عشر محمد المهدى - رضى الله عنه - وهو الإمام الغائب ، الذى غاب غيبة كبرى فى ١٥ شعبان من عام ٢٦٠ هـ وسيكون ظهوره إيذانا بقيام الساعة ، فينبغى أن يكون هناك وكيل للإمام أو نائب عنه يتولى أمور المسلمين ويرعى حرمات الله ، ويطبق مبادئ الإسلام ، والعلماء هم

---

(١) الشيعة الإمامية أو الإثنا عشرية أو الجعفرية هم الذين تقوم لهم دولة فى إيران منذ العصر الصفوى ابتداء من عام ٩٠٦ هـ أى منذ خمسة قرون تقريبا ، وسموا إمامية لاعتقادهم بضرورة وجود إمام يتولى أمور المسلمين ، وسموا اثنى عشرية لاعتقادهم فى اثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكرى المهدى الغائب،وسموا جعفرية نسبة إلى الإمام السادس جعفر الصادق الذى قنن المذهب الشيعى .

(٢) يرى الشيعة أن الرسول (ص) عين عليا خليفة له فى أثناء عودته من حجة الوداع .

أجدر الناس بتولى هذه المهمة نيابة عن الإمام الغائب فهم أولى الناس بإقامة الحكومة الإسلامية والإمساك بزمام الأمور فى بلاد المسلمين[1] .

وعلى أساس هذا الفكر الشيعى قام الخمينى بثورته ؛ وأطلق عليها اسم «الثورة الإسلامية » ، وطالب بإقامة حكومة إسلامية ، وتقدم علماء الشيعة وفقهاؤهم للإمساك بزمام الأمور فى إيران – بعد نجاح الثورة – واصبح لهم سلطان قوى فى إيران المعاصرة .

وقد بين الخمينى فى كتبه التى ألفها عن الحكومة الإسلامية وعن الجهاد الأكبر ضرورة إصلاح المجامع الدينية والعلمية وفقا لبرنامج تعليمى وتثقيفى وإعلامى ، لتحقيق إصلاح فكرى وأخلاقى ومحو الآثار الفكرية والنفسية الناتجة عن دعايات الأجانب وسياسات الحكومات الخائنة الفاسدة[2] ، كما دعا العلماء إلى التحلى بالفضائل واجتناب الرذائل حتى يكونوا أهلا لقيادة أمة من الناس ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، والاستماتة فى الدفاع عن الإسلام ، وأكد الخمينى ضرورة أن يقوم العلماء بإصلاح أنفسهم قبل الخروج للناس وتولى أمورهم[3] .

وقد وضع الخمينى تخطيطا للأجهزة والمؤسسات التى تدير دفة الأمور فى إيران فى ظل الحكومة الإسلامية ، كما اشترط أن يكون الحاكم فاضلا عالما بالأحكام والقوانين ، عادلا فى تنفيذها ، فيكون الحكم بهذه الصورة واجبا خطيرا ، وتكليفا لا تشريفا ، كما اشترط أن يكون الحكم شورى – كما قررت مبادىء الإسلام – فلا يكون الفقيه وليا مطلقا بل ينبغى أن يشكل الفقهاء مجتمعين

---

(١) الخمينى : حكومت اسلامى ، ص ٢٣ – ٢٤ .
(٢) الخمينى : حكومت إسلامى ، ص ١٦٤ .
(٣) الخمينى : الجهاد الأكبر ، ص ٤٤ من الترجمة العربية .

حكومة شرعية لتنفيذ الحدود وحفظ الثغور والنظام ، كما لا ينبغي أن يكون الوالي بخيلا أو جاهلا أو مرتشيا أو ظالما[1] .

وبين الخميني أن الحكومة الإسلامية لا تتنافى مع التقدم والرقى السائدين فى عالم اليوم ، لأن الدين الإسلامى هو المنقذ للبشرية ، وتعاليمه تدفع الإنسان إلى الرقى والتقدم نحو الكمال ، والاستفادة من التقدم العلمى والاكتشافات العظيمة والوسائل الحديثة ومن أحدث الأساليب العلمية ، مع التمسك بمكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام الذى رضيه الله دينا لعباده .

والدارس لما كتبه الخمينى وأعلنه عن الحكومة الإسلامية يجد أنه قدم أفكارا عامة ، تتعلق بالنظرية وطريقة تطبيقها ، ولم يقدم برنامجا زمنيا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ لأن التطور السريع للأحداث فى إيران قبيل عودة الخمينى إليها من المنفى لم يتح له الفرصة ، لكى يطرح برنامجا تنفيذيا على الشعب ، ولم يشر هو نفسه فى تصريحاته قبل نجاح الثورة وبعد نجاحها إلى أنه وضع مثل هذا البرنامج ، كما تدل الأحداث - التى ذكرناها بإيجاز - على أنه لم يكن المخطط الحقيقى للثورة ، وأن جماهير الشعب الإيرانى الثائر على النظام الملكى هى التى رفعته إلى قمة الزعامة فصار رمزا لوحدة القوى الثورية .

حقيقة أن الخمينى قبل الزعامة ، ولكنه لم يستطع السيطرة على الأحداث سيطرة تامة ، وصحيح أن نظريته لإقامة حكومة إسلامية كانت دليل علماء الدين الذين اشتركوا فى الثورة ، وأن حزب الجمهورية الإسلامية قد قام على أساسها ، واختار الخمينى صاحب النظرية زعيما وأبا روحيا للحزب ، وأن الخمينى قد قبل زعامة هذا الحزب حين رأى الحزب يحمل أفكاره غير أنه لم يستطع بعد ذلك السيطرة على الحزب نفسه ، فلم يطبقوا نظرية الخمينى تطبيقا صحيحا ، ومالوا إلى العنف ، والتطرف فى البطش بخصومهم تحت بصر الخمينى

---

(١) الخمينى : حكومت إسلامى ، ص ٥٢ - ٦٣ .

وسمعه ، نقد رأى الخمينى فى وجودهم فى الحكم تدعيا لوحوده ، وفى بقائهم فى السلطة بقاء لزعامته .

تطور الأحداث بعد نجاح الثورة :

تولى مهدى بازركان رئاسة الحكومة المؤقتة بعد نجاح ثورة إيران الإسلامية بزعامة الخمينى ، وكان بازركان زعيم جمعية الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان ، كما كان ثائرا مصلحا ، واقعى النظرة ، معتدل الأفكار يعشق الحرية والإصلاح الاجتماعى إلى جانب تدينه ، فحظى بثقة الخمينى وكان صوتا عاقلا يكره التطرف والانتقام السريع من أنصار النظام الملكى ، ولذلك لم يؤيد هؤلاء الأنصار فى رغبتهم فى إجراء محاكمات سريعة لاعتقاده بأن هذا الأمر يسئ إلى سمعة الثورة الإسلامية ، لأن الإسلام دين تسامح لا دين حقد وعداوة وانتقام .

غير أن اعتدال بازركان لم يجد شيئا أمام عاصفة الأحداث الهوجاء التى كانت تجتاح إيران بعد نجاح الثورة ، والرغبة العارمة فى الانتقام والبطش بأنصار النظام الملكى بعد زواله ، وذهبت حكومة بازركان بعد انتخاب أعضاء مجلس النواب ، وتلتها حكومة محمد على رجائى وانتقل بازركان بثقله السياسى من مقاعد الحكم إلى مقاعد المعارضة ومعه كثير من أعضاء حكومته الانتقالية ، وثار بعضهم على النظام الجديد ، فتعرض للاعتقال والسجن أو أضطر إلى الفرار خارج البلاد أو التحق بمعارضى النظام الملكى فى باريس وباقى دول أوروبا .

وإن دل هذا على شئ فإنه يدل على أن موجة التطرف طغت على سير الأحداث فى إيران—فى ظل ثورة الخمينى—حتى بدأ الصراع بين القوى الثورية نفسها ، فاختلف حزب آية الله طالقانى ، وهو من علماء الدين المتطرفين ، مع حزب الخمينى ، وقام أنصار الخمينى باعتقال أبناء طالقانى وإيداعهم السجن ، وكاد الطرفان يقتتلان لولا وساطة علماء الدين المعتدلين بزعامة آية الله شريعتمدارى– وانتهى الأمر بإطلاق سراح أبناء طالقانى ، ولكن نفوس الطرفين ظلت طافحة بالغيظ والحقد .

وقد عارض طالقانى فكرة إحلال جيش شعبي محل الجيش النظامى ، وهى الفكرة التى نادى بها حزب الخميني ونفذها فعلا كما طالب طالقانى بنزع السلاح من أيدى الأفراد غير المسئولين وإبقائه فى أيدى المسئولين دون غيرهم[1] ولكن حراس ثورة الخمينى من أعضاء حزبه ركبوا رؤوسهم ، ولم يستمعوا إلى نصائح شركائهم فى الثورة , مما يدل على مدى تصدع القوى الثورية نفسها بعد نجاح الثورة ، حتى إن آية الله طالقانى نفسه أعلن قبل موته أنه ليس من الصلاح أن يمسك رجال الدين بزمام المسئوليات الحكومية وطالب بعودتهم إلى المسجد والتنحى[2] عن تحمل المسئولية بعد إيجاد حكومة مركزية لأن المسجد مهمتهم الأصلية .

والواقع أن موت طالقانى أوجد فراغا فى ساحة السياسة الإيرانية ، لأن وجوده على رأس حزب قوى كان فيه نوع من التوازن الذى كان لازما للحد من النزاع بين الزعامات الثورية فى إيران ، لعدم وجود حكومة حقيقية تسيطر على الأوضاع السياسية ، وتقف فى وجه عاصفة الأحداث الهوجاء التى اجتاحت إيران بعد عودة الخمينى ونجاح ثورته .

وكما وقع خلاف بين آية الله طالقانى وحزب الخمينى ، وقع خلاف بين الحزب وبين أحد كبار أنصاره ألا وهو الدكتور أبو الحسن بني صدر الذى ساعده الخمينى نفسه فى تولى رئاسة الجمهورية وكان أبو الحسن بنى صدر من أقرب المقربين إلى الخمينى قبل قيام الثورة ، وفى أثناء وجوده فى باريس ، بل إن الكتب التى ألفها مثل كتاب « إيران: غربة السياسة والثروة » وكتاب «قواعد الحكم الإسلامى وضوابطه » لتدل على أنه المخطط الحقيقى للثورة فقد أكد بنى صدر – مرارا – فى كتاباته أن لديه برنامجا عمليا لإقامة حكومة إسلامية ، وأن

(١) جريدة كيهان العدد ١٠٦٤١ الصادر فى ٣٠ بهمن ١٣٥٧ هـ . ولمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى كتاب مسألة الثورة الإيرانية للدكتور محمد السعيد عبد المؤمن ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) وجه طالقانى هذه النصيحة فى حديث إذاعى تليفزيونى له فى ١٣ جزاء ١٣٥٨ هـ ش .

هذا البرنامج فيه من الأسس والضوابط ما يكفل لستمرار هذه الحكومة وتحقيق أهدافها .

وكان بنى صدر كذلك بجانب الخمينى فى باريس قبل قيام الثورة ، وفى طهران بعد قيامها ، ثم رئيس المجلس الثورة السرى ، ثم مستشارا اقتصاديا لحكومة بازركان المؤقتة ، وصاحب فكرة وجود الحرس الثورى ولجانه ، وإيجاد جشن شعبى ، وإعلان إمامة الخمينى ، وقطع خطوط العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية ، والوقوف فى وجه استيلاء رجال الدين على السلطة بعد حصول الحزب الجمهورى على الأغلبية فى البرلمان ، وإعطاء الأجيال الشابة فرصة الاشتراك فى إدارة دفة الأمور فى إيران .

ولكن عاصفة الأحداث الهوجاء فى إيران بعد نجاح الثورة أطاحت ببنى صدر وعزلته من منصب رئاسة الجمهورية واضطرته إلى الهرب إلى باريس حيث هاجم الاتجاه إلى العنف الذى غلب على الممسكين بزمام الأمور فى إيران .

وكان عزل بنى صدر دليلا على عجز الخمينى عن السيطرة على الموقف فى إيران ، لأنه هو الذى ساعد بنى صدر من قبل على الوصول إلى منصب رئاسة الجمهورية ،لأن سلطان رجال الدين الممسكين بزمام الأمور كان أقوى من قبضة الخمينى على هذا الزمام .

وفى غمرة الأحداث العاصفة ، وذروة التنازع على السلطة فى إيران بعد نجاح ثورة الخمينى ، طفت على سطح الأحداث مشاكل داخلية وأخرى خارجية ، أصبحت شغل الثورة الشاغل ، فأهملت التصدى لسائر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى قامت الثورة من أجل التصدى لها وحلها ، وانشغلت الثورة منذ منتصف عام ١٩٨٠ م إلى يومنا هذا بالتصدى لهذه المشكلات الطارئة على حساب المشكلات الأساسية القائمة فى إيران .

وكانت أهم المشاكل الداخلية التى طفت على سطح الأحداث مشكلة الأقليات المذهبية والعنصرية ، وقد فشلت الحكومة فى إقامة حوار مع الأكراد ، فلجأوا إلى الكفاح المسلح وأخذت الحروب الداخلية تندلع بين حين وآخر بين

أنصار الثورة ومجاهدى الأكراد ، ولازالت المشكلة الكردية تطل برأسها فى إيران وتهدد استقرارها ووحدتها حتى يومنا هذا .

وقد أسرف أنصار الخمينى الممسكين بزمام الأمور فى إيران فى محاكمة مخالفيهم وإعدامهم حتى بلغ عدد من نفذ فيهم حكم الإعدام بضعة آلاف ، وقوبل هذا التصرف من جانب أنصار الثورة برد فعل من أعدائها ، وفى مقدمتهم أعضاء منظمة مجاهدى خلق فقاموا باغتيال العديد من أنصار الثورة وكبار المسئولين فيها مثل حجة الإسلام محمد بهشتى سكرتير عام حزب الجمهورية الإسلامية ومحمد على رجائى رئيس الجمهورية ، ومحمد جواد باهنر رئيس الوزراء ، ورئيس الأركان وعدد كبير من الوزراء وأعضاء البرلمان وكبار الشخصيات فى حزب الجمهورية الاسلامية الحاكم .

وأما أهم المشاكل الخارجية التى طفت على سطح الأحداث فى إيران بعد ثورة الخمينى فقيام الحرب بين العراق وإيران بسبب اختلاف الدولتين على بعض مناطق الحدود بينهم فى الخليج ، وكانت الدولتان قد عقدتا اتفاقا بينهما فى عام ١٩٧٥ لتسوية الخلافات القائمة حول هذه المناطق ولكن دولة العراق كانت تشعر بأن الاتفاق ليس فى صالحها ، فقامت قواتها فى سبتمبر من عام ١٩٨٠ بغزو المناطق المختلف عليها ، ومازالت الحرب قائمة بين الدولتين منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا .

وقد دخلت الحرب العراقية الإيرانية عامها الرابع برغم الوساطات المتعددة التى قامت بها مختلف الدول من إسلامية وعربية وغيرها لوضع حد للحرب الدائرة بين الدولتين الجارتين المسلمتين بسبب تشدد حكومة الثورة الإسلامية فى إيران ورفضها لجميع الوساطات التى بذلت وتبذل لوضع حد لهذه الحرب التى راح ضحيتها عشرات الآلاف من شباب الدولتين ، وأثرت تأثيرا واضحا فى اقتصادهما لكثرة ما أنفق فيها من أموال ، وهى مشكلة ذات أثر خطير على أمن منطقة الخليج بخاصة وعلى سلام العالم واقتصاده بعامة ، وليس لها من دون الله كاشفة .

خاتمة

هذا عرض سريع للأحداث التى اجتاحت إيران فى السنوات الست الأخيرة ، استعرضت فيه الأحداث التى مهدت لقيام الثورة وساعدت على إشعال نارها ، وهيأت للزعيم الدينى أية الله العظمى روح الله الخمينى .. وهو فى منفاه فى باريس – أن يركب موجة الأحداث ، ويعبر الزعيم الروحى للثورة ، ثم مكنته من العودة إلى إيران بعد خمسة عشر عاما من خروجه منها وإقامته فى منفاه فى العراق وفرنسا ، وصيرته قائدا وموجها للثورة عقب نجاحها ، وإسقاطها للنظام الملكى بعد أن ظل قائما فى إيران أكثر من خمسة وعشرين قرنا ، فأصبح الخمينى الإمام النائب عن الإمام الغائب وفقا لتعاليم المذهب الشيعى الإمامى وصار أتباعه ولاة الأمور فى إيران تطبيقا لنظرية الشيعة فى الحكم .

وقد حاولت فى هذا العرض أن أكون موضوعيا فلا أتعصب لثورة الخمينى أوعليها ، حتى لايفسد التعصب البحث العلمى ، بل تركت الأحداث تفصح عن الحقيقة بقدر الإمكان ، وقد بينت الأحداث أن الخمينى لم يكن المخطط الحقيقى للثورة ، ولكنه ركب موجتها ، وأن شدة اندفاع القائمين بالثورة ، ورغبتهم العارمة فى الانتقام من معارضيها ، حال بين الخمينى – زعيمها الروحى – وبين السيطرة على الموقف ، وكبح جماح الثوار ، ولم يمكنه – حتى الآن – من تطبيق نظريته فى كيفية إقامة حكومة إسلامية فى إيران ، فبعد البون بين النظرية والتطبيق .

كما أن اندفاع أعضاء حزب الجمهورية الإسلامية – الذى يتزعمه الخمينى – فى تنفيذ سياسة البطش الشديد بمخالفيهم يسبب فى تفتت القوى الثورية نفسها ، واحتدام الصراع بينها ، وساعد على تفجر المشاكل الداخلية وفى مقدمتها مشكلة الأقليات الدينية والعنصرية كمشكلة الأكراد وظهور مشاكل خارجية كمشكلة رسم الحدود بين إيران والعراق وهى المشكلة التى تسببت فى قيام حرب ضروس بين الدولتين منذ أكثر من ثلاث سنوات ، مازالت رحاها دائرة حتى هذه اللحظة ، ولا يعلم إلا الله متى تضع هذه الحرب اللعينة أوزارها .

وقد أدت هذه الأحداث جميعها إلى شغل ثورة الخميني عن التصدى لمعالجة الأوضاع التى من أجلها قامت الثورة وأسقطت النظام الملكى لتوفر للشعب الإيرانى حياة أفضل .

وأرجو أن يكون هذا العرض كافيا لتوضيح ملامح صورة إيران المعاصرة فى ظل ثورة الخمينى بعد خمسة أعوام من نجاحها .

والله أسأل أن يأخذ بيد عالمنا الإسلامى إلى ما فيه خير الشعوب الإسلامية وتحقيق الأمن والاستقرار والرفاهية لها ، حتى تنتصر على أعدائها .

وهو نعم المولى ونعم النصير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لاجدال فى أن منطقة الشرق الأوسط من أهم مناطق العالم ، لما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية ، مما جعل الدارسين فى مختلف ميادين الدراسة يهتمون بدراسة هذه المنطقة ، ويعنون بدراسة دولها وشعوبها للإلمام بمختلف شئونها .

وقد ازداد اهتمام المستشرقين بمنطقة الشرق الأوسط وحرصهم على دراسة دولها وشعوبها فى الخمسين سنة الأخيرة زيادة كبيرة وأصبحت دراساتهم تخدم أغراضا سياسية واقتصادية وحربية إلى جانب الأغراض العلمية .

والواقع أن دراسات المستشرقين لدول منطقة الشرق الأوسط وشعوبها مهمة ومفيدة ، غير أنها لاتخلو من الهوى فى كثير من الأحيان ، الأمر الذى يجعل أحكامهم غير دقيقة ، لما يشوبها من تعصب يعمى الدارس عن رؤية الحقيقة رؤية صحيحة وإثباتها دون تغيير ، كما تقضى طبيعة البحث العلمى الصحيح .

وطبيعى أن يوجد عدد من المستشرقين يبتعدون فى دراساتهم عن الهوى ، ويجعلون إثبات الحقيقة العلمية غايتهم المنشودة ، فيحرصون على تحريها ، ويعملون على إدراكها بمختلف الوسائل الممكنة .

ومن الإنصاف أن أقر أن « دونالدويلبر » كما يبدو فى كتابه« إيران ماضيها وحاضرها » من المستشرقين الأمريكيين الذين ابتعدوا عن التعصب والهوى فى الدراسات التى قاموا بها .

وقد قام « دونالد ويلبر » برحلات عديدة إلى منطقة الشرق الأوسط ، وأقام فى بعض دولها مددا متفاوتة ، منقبا عن الآثار الموجودة فيها ،ودراستها لها وكانت إيران إحدى دول الشرق الأوسط التى زارها مرات عديدة ، وأقام فيها بضع سنوات فى إحدى هذه المرات (من ١٩٤٢الى١٩٤٦) ثم ألف كتابه هذا ، ليعرف بها منذ أقدم عصورها التاريخية الى العصر الحاضر .

وهذا الكتاب – الذى يسرنى أن أقدمه مترجما إلى العربية للمشتغلين بالدراسات المتصلة بالشرق الأوسط فى الوطن العربى من الكتب العظيمة الفائدة رغم صغر حجمه ، فهو يعرّف بإيران من النواحى الجغرافية والتاريخية والسياسية والعمرانية والثقافية والاجتماعية والفنية ، ويعرض مختلف مظاهر النشاط البشرى فى هذه البلاد ، بطريقة تفيد القارئ ، كما تفيد الدارس المتخصص .

وقد عالج المؤلف موضوعات مختلفة فى صفحات قليلة وحاول أن يبين الأسس التى قامت عليها الحضارة الإيرانية فى عصورها المختلفة وأعطى اهتماماً خاصاً لإيران الحديثة ، فعّرف بها تعريفا شاملاً يدل على إحاطته التامة بكل ما يتعلق بهذه البلاد فى شتى النواحى .

ومن الحق أن أقرر أن المؤلف صور إيران الحديثة تصويرا صادقاً أمينا ليعطى بنى قومه فكرة صحيحة عنها وكان دقيقا فى التصوير ، بعيدا عن الهوى ، يعرض الأشياء كما هى دون زيادة أو نقصان ، وأن كل من عاش فى إيران واطلع على مظاهر النشاط البشرى فيها ليقرر أن الصورة التى عرضها دونالدويلبر لإيران فى كتابه صحيحة ودقيقة .

وقد تيسر لى أن أزور إيران فى أوائل عام ١٩٤٩ وأن أعيش فيها عامين ، وأن أزور مناطق مختلفة فيها ، فلما اطلعت على كتاب دونالدويلبر لمست جانب الصدق فيه ، فرأيت نقله إلى اللغة العربية حتى تتيسر الاستفادة منه لكل من يعرف العربية ، ولا يتسنى له الاطلاع عليه باللغة الانجليزية التى ألف بها :

ومما لاشك فيه أن المؤلف وفق فى عرض جوانب الحضارة الفارسية التى تغوص جذورها فى أعماق الزمن – كما وفق فى وصل حضارة إيران القديمة بحضارتها الإسلامية .

وبديهى أن الشعوب العربية يهمها أن تلم بجوانب الحضارة الإيرانية المختلفة لأنها تعلم أن الأمة الفارسية أمة ذات حضارة عريقة ، وأنها ارتبطت بصلات وثيقة بالأمة العربية منذ أقدم العصور ، فقد اتصل الفرس بالعرب قبل

الإسلام ، وتبادل الطرفان التأثير والتأثر ، ثم ازدادت الصلات بينهما توثقا بعد الإسلام ، فقد ساهمت الأمة الفارسية المسلمة بنصيب وافر فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الخالدة وكان لها نشاط ملموس فى مختلف الميادين العلمية والأدبية والفنية .

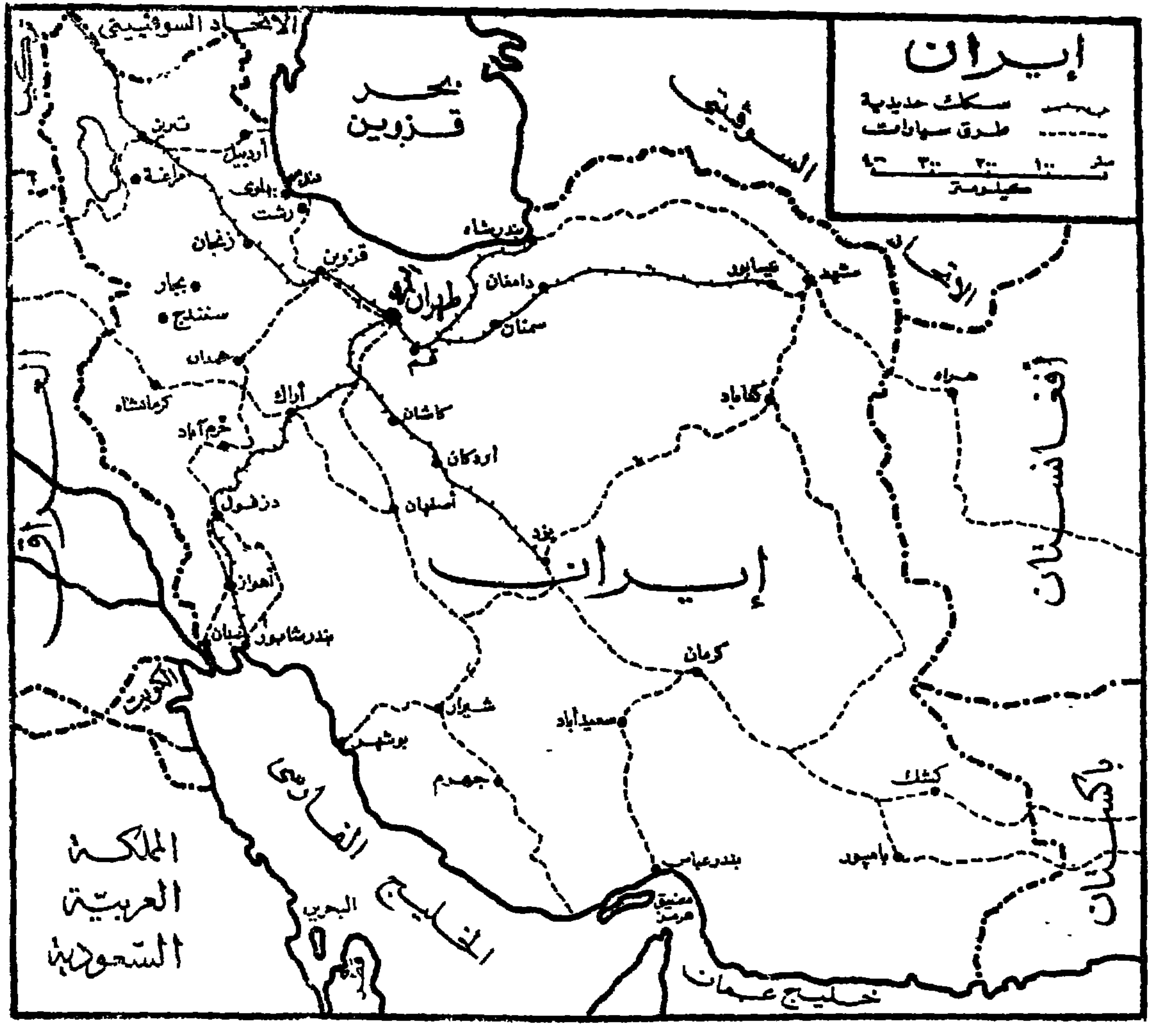
وأن كل من يعرف اللغة الفارسية ليدرك ما أحدثه الإسلام من تقارب بين الأمتين العربية والفارسية ، فإن هذه اللغة مكتوبة بالخط العربى وفيها كثير من العناصر العربية مما ييسر دراستها لأهل العربية .

وقد ظلت الصلات بين الشعب الإيرانى والشعوب العربية قوية على مر العصور ، ومازالت وطيدة الى العصر الحاضر ، لأن الشعوب الإسلامية بعامة يوجد بينها الجهاد منَ أجل تدعيم استقلالها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى لتوطيد عزتها وكرامتها وتحقيق الرقى والمجد والرفاهية لأبنائها والانتصار على أعداء الحرية والسلام .

ولهذا كله تبدو فائدة الإلمام بمظاهر النشاط البشرى فى إيران فى مختلف عصور تاريخها بعامة وفى العصر الحديث بخاصة بالنسبة للشعوب العربية التى يعد الشعب المصرى رائداها دون منازع ، الأمر الذى يظهر أهمية ترجمة كتاب المستشرق الأمريكى دونالدويلبر الأستاذ بجامعة برنستون الأمريكية«وإيران ماضيها وحاضرها» إلى اللغة العربية .

وأنى أسال الله أن يحقق الهدف الذى أقدمت من أجله على ترجمة هذا الكتاب إنه سميع مجيب . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

عبد النعيم محمد حسنين



قام برسم هذه الخريطة الزميل الأستاذ محمد صبحي عبد الحكيم فله شكرنا وتقديرنا

مقدمة المؤلف

« إيران » و « فارس » اسمان استعملا للدلالة على قطر واحد ، ولكنهما ليسا مترادفين تماما ، فلما هاجرت الأقوام الآرية من موطنها الأصلى جنوبى بحر الآرال إلى الهضبة المرتفعة الواقعة أسفل بحر قزوين ، سموا الموطن الجديد « إيران » ومعناها « موطن الآريين » .

وكان موقع القصور الملكية التى شيدها ملوك الدولة الأكمينية ، التى حكمت — أصلا — فى الإقليم الواقع شمال شرقى رأس الخليج الفارسى ، يسمى « پارسا » وقد نقلت هذه الكلمة فى عهد الاسكندر الأكبر — إلى اليونانية وأصبحت « پرسبوليس » (Persepolis) .

وكانت امبراطورية الأكمينيين القوية تسمى « إيران » ولكن اسم الإقليم الذى قامت فيه قصورهم ما لبث أن أطلق على الولاية كلها فصارت « پارس » أو « فارس » ومن ثم أخذ الناس — فى كثير من الدول الأخرى — يطلقون على الدولة اسم « فارس » .

والاسم الرسمى للدولة الإيرانية فى عصر الساسانيين هو « ايرانشهر » .

وفى (عام ١٩٣٥ م) ، (١٣٥٤ هـ) طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية مراعاة للتناسق والتوحيد أن تطلق على البلاد رسميا اسم « إيران » فظفرت هذه التسمية ذات الدلالة الصحيحة بالاستعمال العام ، ولكن لغة البلاد — من ناحية أخرى — تسمى اللغة الفارسية ، أو « فارسى » كما يقول الأهالى ، لأنها لغة إقليم « پارسا » القديم ، وهى تكتب بحروف عربية .

والإيرانيون أكثر إلماما بالولايات المتحدة وبالأمريكيين من الأمريكيين بإيران . وقد تبلورت فى أذهانهم فكرة تتضمن كثيرا من المدح

والاطراء للولايات المتحدة باعتبارها بلاد الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص، والتقدم المادى .

ومنذ أكثر من قرن من الزمان ، ورجال الارساليات الأمريكية يعملون باخلاص — فى إيران ، وقد استطاعوا أن يتصلوا بألوف من الإيرانيين — من مختلف الطوائف — عن طريق مستشفياتهم ومدارسهم .

وقد استمدت الحركة الدستورية — فى عام (١٩٠٦ م ، ١٣٢٤ هـ) كثيرا من حماسها الملحوظ إلى النظم الديمقراطية ، من الدراسات التى قام بها زعماء ذلك العصر عن نظم الحكم فى أمريكا ، وبعد عام (١٩٠٦م ، ١٣٢٤ هـ) ذهب كثير من الشباب إلى الولايات المتحدة للدراسة ، فدرسوا فى الكليات ، وقاموا بدور عملى فى الحياة الأمريكية ، ثم رجعوا إلى إيران ليلقوا الأحاديث عن أمريكا ، أو ليكتبوا المقالات عنها .

وترجمت إلى اللغة الفارسية — كتب لمؤلفين أمريكيين ، ونشرت فى طهران ، وقد فضلت الكتب القيمة الخاصة بالتعليم والطب والعلوم الاجتماعية ، ولكن ترجمت كذلك بعض القصص الخيالية وقد بيعت آلاف النسخ من الترجمة الفارسية للكتاب الذى أصدره ديل كارنيجى بعنوان «كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ » .[1]

وفى السنوات القليلة الأخيرة ، وصلت المجلات الأمريكية إلى إيران بأعداد متزايدة ولا زالت الطبعات الحالية لمجلات :

The Reader's Digest, The Saturday Evening Post, Collier's, Time, Life, Vogue,

وغيرها تطلب باستمرار ، ولا يقتصر طلبها على الجمهور بل إن محررى صحف طهران يهتمون بها وينشرون منها تراجم فارسية لأهم المقالات عن الولايات المتحدة ودورها فى الشؤون العالمية .

---

(1) Dale Carnegie : How to win friends and influence People .

والسيارات الأمريكية وعربات النقل هي الوسائل العادية للسفر والنقل فى إيران ، وقد أوجدت الخدمات الصادقة التى تؤديها السيارات الأمريكية ، فوق طرق إيران الخشنة ، وسهولة الحصول على قطع غيار لها بثمن معقول ، ثقة تامة فى الصناعة الأمريكية .

وتعرض الأفلام الأمريكية — مع تذييل لها بالفارسية — فى دور العرض المحلية بكثرة تفوق الأفلام المنتجة فى روسيا أو انجلترا أو فرنسا أو مصر ، رغم أن الأفلام تكون قديمة — نوعا ما — فى الوقت الذى تصل فيه إلى طهران ، والأفلام الهزلية الموسيقية منتشرة جداً ، وكان العرض الأول لفيلم « ذهب مع الريح » Gone wite the wind من المناسبات الاجتماعية الواضحة .

وتحتوى محلات بيع أدوات الكتابة على مجموعات كبيرة جذابة من صور نجوم هوليود ، كما أن بعض المجلات الأسبوعية تفسح مجالا كبيرا فيها للصور السينمائية ، ورغم وجود دور العرض السينمائية فى المدن الكبيرة فقط ، فان الأخبار المتناقلة عن الأفلام تصل إلى عدد كبير من الناس ، فيأخذون — عن طريقها — فكرة واضحة عن كيفية حياة الأمريكيين وأعمالهم .

والذين يعرفون الفارسية فى الولايات المتحدة قليلون جدا ومتفرقون ، أما فى إيران ، فيوجد بين كل ألف وخمسمائة من الأهالى واحد على الأقل يجيد الإنجليزية إلى حد ما ، لأن الإنجليزية كانت تدرس فى المدارس الأمريكية بصفة أصلية ، وتدرس فى مدارس البلاد بصفة اختيارية وقد جذبت الفصول التى فتحت لتعليم الإنجليزية فى طهران وغيرها من المدن الكبيرة — فى السنوات القليلة الأخيرة — أعدادا كبيرة من الشباب والشيوخ على السواء .

وقت ألفت كتب كثيرة عن إيران فى السنوات الأخيرة ، وكان بعضها من تأليف مؤلفين أمريكيين ؛ ولكن هذه البلاد ظلت مع ذلك غير معروفة كثيرا فى الولايات المتحدة .

ويعرف الأمريكيون — عادة — شيئا عن تاريخ إيران القديم : عن الملك

قورش ، وايستر[1] ومردخاي[2] ، وعن إعادة بناء المعبد فى القدس — من نصوص العهد القديم — وعن النبي زردشت ، وعن الدولة الأكمينية فى عهد قورش ودارا واكزرسيس (خشايثيا) وعن نهاية هذه الدولة — آخر الأمر — على يد الإسكندر ، وعن هجمات قبائل المغول المدمرة بقيادة جنكيزخان . ولكن إلمام الشعب الأمريكى — بصفة عامة — بالحضارة الإيرانية يكاد ينحصر فى السجاد والأبسطة الإيرانية التى تعد الولايات المتحدة أكثر الدول شراء لها ، وفى المثل الذى يقول : جنة فارسية (Persian Garden) رمزاً للجمال الخيالى ؛ وفى الشعر الفارسى الذى لا يقل من حيث الكم والكيف عن أى أدب من آداب الأمم الأخرى .

• وقد ساعدت الحرب العالمية الثانية على تركيز الاهتمام العام حول إيران ، فقد جاء ما يقرب من ثلاثين ألف جندى إلى هذه البلاد . ليعجلوا حركة الإمدادات الحربية على طول خط تموين طويل ، كان يمتد عبر المحيطات إلى رأس الخليج الفارسى ، ثم يواصل سيره — بعد ذلك — بالسكك الحديدية ، وبالطريق الرئيسى — عبر حدود إيران الطبيعية مع روسيا — إلى الجبهة الروسية.

وفى ديسمبر من عام (١٩٤٣ م ، ١٣٦٣ ه) ، سمع العالم كله عن الاجتماع التاريخى بين روزفلت وستالين وتشرشل فى مؤتمر طهران ، وهو الاجتماع الذى أدى إلى كتابة مقالات كثيرة عن إيران .

وأغلب الكتب الحديثة المتعلقة بإيران تتناول نواحى ضيقة من حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويهدف هذا الكتاب إلى إعطاء معلومات محددة عن ماضى هذه البلاد القديمة وحاضرها ، وتقديم صورة صادقة عن هذه الدولة بصفة عامة ، ولا تدخل — فى نطاقه — تفاصيل الموضوعات التى تختلف فيها الآراء ،

---

(١) استير اليهودية التى تزوجها ملك الفرس والتى عملت على مساعدة اليهود (المراجع) .

(٢) ذكر فى كتاب استير وهو ابن عمها الذى أنقذ اليهود من الهلاك الذى دبره لهم هامان. (المراجع) « عن العهد القديم » .

مثل العلاقات بين إيران والدول التي تجاورها ، وقد حاول المؤلف بقدر ما يستطيع أي كاتب أجنبي ، أن يقدم إيران من وجهة النظر الإيرانية ، وعندما ذكر أوجه النقص الملحوظة في بنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فإنه حاول أن يتجنب الأحكام المبنية على أسس غربية أجنبية .

وقد ذكرت المصادر في آخر الكتاب ، وفضلا عن هذا فإني أعبر عن تقديري وامتناني للدكتور عيسى صادق ، والدكتور حسين بيرنيا ، وعلى باشا صالح ،والدكتور آرثر . س . بويس (Dr Arther C. Boyce)، ويوسف م. أبتون (Joseph M. Upton) زملائي في «جمعية العلاقات الإيرانية الأمريكية» (Iran - America Relations Society) بطهران،فقد أمدتني مقالاتهم المنشورة في مجلة « إيران والولايات المتحدة الأمريكية » المجلة الشهرية للجمعية ، بمادة موثوق فيها عن الحالة الاقتصادية ، ونظم التعليم ، والثقافة ، والمدنية ، والآثار القديمة ، في إيران .

واتبعت في كتابة أسماء الأشخاص ، والأماكن الجغرافية السابقة على الإسلام ، والأسماء العربية والفارسية طريقة كتاب « دراسة شاملة للفن الإيراني » (A Survey of Persian Art) بيد أن حروف المد الطويلة لم تتميز ، ولم ترسم علامات التشكيل للتمييز بين الحروف العربية الساكنة — ذات النبرات المتشابهة ، وقد اخترت — في حالة قليل من أسماء الأشخاص والأماكن — الصورة المألوفة التي راجت في الاستعمال وفضلتها على الهجاء الصحيح لهذه الأسماء .

سبتمبر ١٩٤٨   د . ه . ولبر

بعد أن طبع هذا الكتاب طبعته الأولى ، قام الشاه محمد رضا بهلوى بزيارة رسمية للولايات المتحدة ، وطاف بالبلاد من الغرب إلى الشرق ، وقد ساعدت أحاديثه العديدة ، والمقالات التى نشرتها الصحف — فى أثناء زيارته — على زيادة اهتمام الأمريكيين بإيران ، فانتهز المؤلف فرصة إعادة طبع الكتاب فأعاد النظر فيه مرات عديدة ، هادفا بذلك إلى جعل الكتاب يتناول الموضوع إلى آخر لحظة ممكنة ، ويشتمل على فصل بعنوان « مستقبل إيران » ؟

مارس ١٩٥٠ د . ه . وابر

تراث إيران

الفصل الأول

المميزات الطبيعيـــة

الـــوقع :

إن موقع إيران الجغرافى قد جعلها معبرا للمواصلات البرية بين منطقة الشرق الأقصى فى آسيا ، ومناطق البحر الأبيض المتوسط وأوروبا ، وقد حمت كهوفها قبل فجر التاريخ المدون الصيادين الذين كانوا من أقدم من انساحوا جنوبا نحو السهول الواطئة ليستقروا فى القرى ، وليزرعوا الحبوب ، وليربوا الحيوانات الأليفة ، كما أنها تعترض خطوط هجرات قبائل وسط آسيا مما أدى إلى استقرار كثير من هذه القبائل فيها .

وبسط حكامها نفوذهم — فى العصور التاريخية — شرقى الهضبة الإيرانية وغربيها ، وأسسوا أول امبراطورية كبيرة فى العالم ؛ وظلت طرق التجارة الرئيسية بين الشرق الأقصى والغرب تمر بشمالى إيران مئات السنين ، وحينما أصبح للطرق البحرية — فيما بعد — نفس الأهمية التى للطرق البرية ، وجدت إلى جانبها طرق برية تصل بين الثغور الواقعة على الخليج الفارسى والمراكز التجارية الرئيسية ، سواء الواقعة منها داخل حدود الدولة أو وراء حدودها .

وقد أصبح الدور الرئيسى الذى كانت تلعبه طرق التجارة البرية عبر إيران محصورا جدا بعد شق قناة السويس ، وكان أفول إيران كممر للتجارة بداية لفترة من ضعفها السياسى والحربى ، وفى الوقت نفسه فإن موقعها الاستراتيجى جعلها مجالا للتنازع بين القوى الكبيرة التى تعارضت مصالحها فيها تعارضا تاما .

وكانت حدودها الحالية — التى عينت فى القرن التاسع عشر نتيجة لسلسلة من الحروب عجزت فيها عن حفظ نفسها أمام جيران أكثر منها قوة .

وتشغل إيران الآن مساحة قدرها ٦٢٨,٠٠٠ ميل مربع ، أى ما يقرب من مساحة الجزء الذى يقع شرقى نهر المسيسبى من الولايات المتحدة باستثناء

نيو انجلند New England وهى مساحة أقل كثيرا من مساحتها فى أى وقت من تاريخها ؛ لأن حدودها فيما مضى كانت أبعد امتدادا إلى الشرق من حدودها الحالية ، وكانت مطابقة على وجه التقريب لحدودها الغربية فى الوقت الحاضر ؛ وكان التوسع صوب الشرق نتيجة لاعتدال التربة فى ذلك الاتجـاه ، ونتيجة أيضا للترابط الوثيق لغويا وقوميا بين شعوب المنطقة وأهل الهضبة الإيرانية. ورغم مساحتها المحدودة فى الوقت الحاضر ، فإن الدولة ما زالت تسمى الامبراطورية الإيرانية ، وحاكمها هو « الشاهنشاه » أى : « ملك الملوك » ؛ وهو لقب استعمل فى إيران — لأول مرة — منذ أكثر من ألفى سنة .

وتقع إيران بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، ولها حدود مشتركة مع العراق وروسيا السوفيتية وأفغانستان وباكستان ؛ ويسكن نطاقها أقوام لهم لغات مختلفة أو من أجناس بشرية متباينة ، تتعدى مواطن سكناهم أو تحركاتهم القبلية الحدود الفعلية للبلاد .

الجيولوجيا والطبوغرافيا :

درست جيولوجية إيران جيداً ، بواسطة المتخصصين فى هذه الدراسة من الإيرانيين والأوروبيين — ولكن دراستهم لم تكن فى صورة منظمة — ونشرت خرائط جيولوجية لإيران على نطاق ضيق ، ولكن دراسات أكثر تفصيلا قد تمت فيما يتعلق بمناطق معينة ، لارتباطها بالبحث عن حقول البترول وغيره من مصادر الثروة المعدنية .

والمسافر العادى الذى يشق طريقه فى إيران يلم بتاريخها الجيولوجى عن طريق قممها المرتفعة ، وسلاسل جبالها المتعرجة — التى تثب فجأة من السهول المستوية — وعن طريق التلوين الزاهى لكثير من التكوينات الجيولوجية ، وتكدس صخورها ، وتعقدها بشكل يلفت النظر .

والمسافر بالطائرة الذى يدخل إيران — عادة — من الغرب أو من الجنوب الغربى يطل على مجموعة من السلاسل تشبه السطح المتموج المدرج ، فتأخذ قمم الجبال فى الارتفاع بالتدريج ، بحيث تكون كل قمة أعلى من التى تسبقها ،

حتى يبلغ ارتفاع الهضبة الإيرانية مداه ، وهنا أيضاً ترتفع الجبال من كل جانب ، وإذا نظر الناظر من هذا الارتفاع إلى القرى والحقول المحروثة فإنه يجدها قد فقدت معالمها ، وتبدو له البلاد جميعها ، فى صـــورة صحراء قاحلة خالية من الحياة .

ويبلغ ارتفاع جبال زاجروس وألبرز ١١,٠٠٠ قدم ، وقد تكونت فى العصور الجيولوجية التى تقع بين العصرين الباليوزيكى (Paleozic) والبليوسينى (Pliocene) وهى بالنسبة للجبال حديثة العهد كما يعرف ذلك من صورة جوانبها الحادة المتكسرة .

ويبدو أن التكوين العام لهذه السلاسل الجبلية . وللهضبة الايرانية ، كان نتيجة ضغط متواصل على منطقة إيران من مجموعة الجبال الروسية فى الشمال ، ومجموعة الجبال الإفريقية فى الجنوب ، ومما يثبت حقيقة أن الضغط الجنوبى كان أقوى : نشوز منحدرات ألبرز وحدتها إذا ما قيست بطيات زاجروس وبسطتها ، وكانت طريقة تكوين الجبال معقدة بسبب التحركات العمودية ، وامتداد حركة التصدع .

والطابع السائد فى المناظر الطبيعية بمعظم الولايات الايرانية هو المخروطات البارزة التى تخلفت عن البراكين الثائرة . والقمم البركانية الرئيسية هى : دماوند أعلى قمم الجبال فى إيران وقد انعكست صورتها فى كثير من القصص القديمة المتعلقة بالأبطال والجن ؛ ويبلغ ارتفاعها ١٨,٦٠٠ قدم ، وهى فى الشمال ؛ و « سبلان » وارتفاعها ١٤,٠٠٠ قدم ، وسهند وارتفاعها ١٢,٨٣٨ قدم ؛ وأرارات فى الشمال الغربى (أرارات الصغرى تقع داخل حدود إيران ، ولكن أرارات الكبرى تقع خارج حدودها مباشرة) ، وبزمان ، و « جهلتن » — ويبلغ ارتفاعهما ١٣,٢٦٢ قدما — فى أقصى الجنوب الشرقى ، ولا زال اثنان من هذه المخروطات يظهران بعض النشاط البركانى ، وقد لاحظ متسلقو الجبال الذين صعدوا إلى قمة دماوند وجود غازات كبريتية تنبعث منها ، كما أن ذيلا من الغاز الكبريتى ينبعث من قمة جهلتن فيكللها .

وتقع حقول البترول — فى الجنوب — فى إقليم من القباب الجيرية البيضاوية ، بينما المنطقة الواقعة إلى الجنوب من طهران مغطاة بطبقة كثيفة من الملح ، وهو التكوين الجيولوجى الذى يصاحب عادة آبار البترول .

ويمكن أن توصف إيران بصفة عامة — بأنها هضبة مرتفعة — يبلغ ارتفاعها حوالى ٤٫٠٠٠ قدم فوق سطح البحر — مملوءة بالجبال . وتوجد فيها أربع مناطق طبوغرافية هامة ، كل منها واضحة فى مميزاتها ، وانبساطها إلى ماوراء الحدود الإيرانية ، وهى الآتية :

١ — سلاسل جبال زاجروس وألبرز الضخمة ، وهى تشبه حرف «V» كبيرة منقوشة على سطح البلاد ، وتقع رأس الـ «V» فى شمال غربى إيران ، وتمتد داخل حدود تركيا ، وفى القوقاز الروسية ، وتمثل سلسلة زاجروس — التى تندفع نحو الجنوب الشرقى — الذراع الجنوبى لهذا الحرف ، وهى توازى الحدود العراقية وساحل الخليج الفارسى موازاة شديدة ، فى حين أن الذراع العلوى — وهو سلسلة ألبرز — يبدو كحائط عبر شمالى البلاد ، وهو يتكسر إلى سلاسل أخرى تندفع إلى أفغانستان وتركستان .

٢ — المنطقة التى داخل الـ «V» وتبدأ — كالهضبة العليا — بسلاسل جبالها الفرعية ، ثم تنبسط تدريجيا حتى تصير الصحراء الخالية التى تستمر فى الامتداد جنوبى أفغانستان وباكستان .

٣ — اقليم خوزستان — تحت الذراع الأسفل للحرف «V» — وهو امتداد للسهل المنخفض الموجود فى العراق .

٤ — ساحل بحر قزوين — فوق الذراع العلوى للـ «V» — وهو أقل ارتفاعا من سطح البحر ، ويكون منطقة مناخية مستقلة .

حقيقة أن كل هذه التكوينات الطبوغرافية تمتد إلى ما وراء حدود إيران ، ولكن ليس معنى ذلك أن البلاد سهلة الدخول ، لأن حدودها الحالية تحرسها حواجز طبيعية هائلة ؛ فالحدود الغربية كلها ، والبلاد الداخلية التى يحتضنها الخليج الفارسى — محمية بحواجز مرتفعة من الصخور ، حيث تتصل

الممرات المرتفعة إلى ارتفاع يزيد على ٧,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ثم تنحدر ثانية إلى مستوى الهضبة ؛ وبمثل هذه الحال تعزل الممرات المنيعة السهل الساحلي لبحر قزوين عن باقى إيران ، أما الحدود الشمالية الشرقية ، والشرقية فإن النفوذ إليها يكون فى أرض ذات تلال أو عبر مساحات واسعة من الصحراء الخالية .

الرى والصرف :

توجد فى إيران أربعة أحواض للصرف مطابقة — تماما — للمناطق الطبوغرافية الأربع ، وهى : أحواض قزوين ، وبحيرة رضائية ، والخليج الفارسى ، والصحراء الهائلة .

ويغذى حوض الخليج الفارسى بثلاث وسائل مستقلة هى :

النهيرات الصغيرة التى توجد فى الشمال الغربى من إيران ، وتصب — فى النهاية — فى نهر دجلة ، ونهر قارون وفروعه ، وهو يصب فى رأس الخليج الفارسى ، والقنوات العديدة التى تقطع الساحل الطويل — الذى يبلغ طوله ألف ميل — للخليج الفارسى .

ولا تصب معظم أنهار ايران ونهيراتها فى المستودعات المائية الثلاثة المذكورة ، بل فى الصحارى الداخلية الواسعة حيث توجد ثلاث مساحات للصرف تنفصل كل منها عن الأخرى بواسطة خطوط من التلال ، ولكنها تؤدى وظيفة الحوض الواحد ، وللمصارف الداخلية علاقة وثيقة بالحياة الاقتصادية فى ايران .

وتعيش الغالبية العظمى للسكان على طول خطى الحرف «٧» الذى ترسمه سلاسل الجبال الرئيسية ، وتمتد الجبال فى صفوف متوازية تضم فيما بينها أودية ضيقة طويلة ، محاطة فى نهاية كل منها بحواجز جبلية متقاطعة . والنموذج العام للجبال والوديان يمكن أن يشبه بعدد من درجات السلم ، كل درجة موضوعة بحيث تكون موازية للأخرى تقريبا ؛ فالأجزاء العمودية فى السلم تمثل خطوط الجبال ، والدرجات تمثل الحواجز التى توجد فى نهاية كل واد .

ويبلغ متوسط اتساع الوادى حوالى ٨ أميال عرضا ، ومن ٢٥ إلى ٤٠ ميلا طولا ، وهو مسطح فى قاعه حافات تعلو وتتصل اتصالا مباشرا مستقيما بالجبال التى ترتفع فوقه ، وتتجمع القرى وتتقارب جدا على هذه الحافات أكثر منها فى الخط الأوسط ، حيث يوجد عادة طريق رئيسى ، يجتاز فى الوقت الحاضر عددا قليلا من آلاف الجبال التى تعترض الوديان .

وتقضى القبائل الرحل الصيف فى المناطق المرتفعة ، وهى المناطق التى تسودها فى الشتاء الثلوج الكثيفة والبرد الشديد اللذان يجعلان الحياة القروية المستقرة فيها مستحيلة ؛ وتتكاثر الجماعات الزراعية فى الوديان ؛ حيث تكون الأرض السهلة ، أكثر ملاءمة للزراعة . وقد عاش الفلاحون قرونا عديدة معيشة منعزلة يسدون حاجاتهم بأنفسهم وساعدت الحواجز التى تفصل بينهم وبين العالم الخارجى على دوامهم التاريخى ، ومحافظتهم على سلالاتهم البشرية وسلامتهم نسبيا ، واستقلالهم فى أوقات الغزو الأجنبى .

الأنهـار

أهم الأنهار التى تصب فى بحر قزوين هى من الغرب إلى الشرق : نهر « أرس » (Araxes) ونهر سفيد رود وفرعه الطويل قزل أوزون ، ونهر جالوس ، ونهر هراز ، ونهر لار ، ونهر جرجان . ونهر أترك ، ولا يحمل واحد منها مقدارا هائلا من المياه إلا فى الربيع .

وتصلح نهاياتها لتوالد الأسماك ، خاصة الأسماك الكبيرة الموجودة فى بحر قزوين — المعروفة بالأيل — وهى التى يؤخذ منها الكافيار الرائع ، وتعد هذه الأنهار مستودعات لقوى مائية كبيرة لم ينتفع بها حتى الآن .

وأكبر الأنهار التى تصب فى الخليج الفارسى هو نهر قارون(١) — ويعد مجراه الأسفل ملتقى لمجراه الأعلى مع نهر آب دز . ونهر قارون صالح للملاحة تخترقه البواخر الصغيرة ، حتى الأهواز ، أى إلى مسافة ٧٠ ميلا من مصبه ،

---

(١) المراجع : يكتب أيضاً فى الكتب الفارسية « كارون » .

وتستطيع القوارب الصغيرة أن تتقدم فيه وتشق طريقها فى تياراته الشديدة إلى ما بعد الأهواز. ويبلغ اتساع النهر مائة ياردة عند الأهواز، وقد أقيم عليه عندها معبر جميل مرتفع من الصلب، ومعبر للسكة الحديدية.

والأنهار التى تصب داخل البلاد هى «زاينده رود» الذى يجتاز أصفهان، و «جاجرود» و «كرج» و «كن» بالقرب من طهران، وقره صو بالقرب من همدان وهابله شرقى كاشان وقم — وهو يجرى بالقرب من مدينة بنفس الاسم — ونهر «كر» وهو يمر بالمدينة القديمة برسبوليس. ويوجد — فى أقصى الشرق — نهر هلمند الذى تساق مياهه المختزنة فى قنوات لرى جزء من إقليم سجستان، رغم أن الجزء الأكبر من مجراه يقع فى أفغانستان.

وهذه الأنهار هى أهم مجارى الأنهار الدائمة؛ وأغلب الأنهار الأخرى تجرى ثم تجف فى أواسط الصيف، وأكبر مثل للأنهار الكبيرة التى تجرى بهذه الصورة نهر زاينده رود الذى تغذى مياهه إصفهان وكثيرا من المحلات الزراعية القريبة منها، ويبلغ اتساعه عند إصفهان — فى فصل الربيع — أكثر من مائة ياردة ويبلغ عمقه ستة أقدام، وليست عليه خزانات أو قناطر لتنظيم صرف المياه، ولذلك فإن مياهه المتدفقة تصب فى المناطق الصحراوية وتغور فى الأراضى الخالية المتعطشة، وفى أواخر الربيع، تسحب المحلات الزراعية الواقعة فى أعلى النهر من ناحية أصفهان — مياهه إلى الحقول لزراعة الأرز، وينتج عن هذا أن يتحول النهر فى أواسط الصيف إلى مجرى ضحل فى محاذاة أصفهان — يكفى لحاجات المنطقة، بينما تظل القرى البعيدة الواقعة فى أسفل النهر محرومة غالبا من أى ماء على الإطلاق.

البحار والبحيرات:

يقع بحر قزوين — وهو أكبر كمية محبوسة من المياه فى العالم — على بعد ٨٥ قدما تحت سطح البحر، وهو ضحل نسبيا، وحجمه ينكمش تدريجيا منذ عدة قرون، وما يحتوى عليه من الملح أقل كثيرا مما تحتوى عليه مياه المحيطات، ورغم أن الأسماك كثيرة فيه، فإن شواطئه المسائلة لا تصلح مرافى

طبيعية حسنة ،كما أن العواصف العنيفة المفاجئة تجعلها خطرة على القوارب الصغيرة .

وتبلغ بحيرة رضائية — التى كانت تسمى قديما بحيرة أورميا — ٨٠ ميلا طولا و٣٥ ميلا عرضا ، وهى تقرب من مساحة بحيرة أوتاه الكبيرة (utah) . ومتوسط عمقها خمس أو ست ياردات وأقصى عمق لها إحدى عشرة ياردة . وتصب فى هذه البحيرة نهيرات صغيرة قليلة ، مما أدى إلى انكماش مستمر فى مساحتها وإلى زيادة كبيرة فى نسبة الملوحة بها بحيث لا تستطيع سمكة أن تعيش فيها ، وتصل نسبة الملوحة فيها إلى ٢٣٪ وهى مكونة من الأملاح ، وسلفات المغنسيوم والكلسيوم والصوديوم والبوتاسيوم .

وأغلب الخرائط تظهر جزيرة كبيرة — باسم شاهى — بارزة فى منتصف هذه البحيرة ، ولكن المياه انحسرت فى خلال السنوات الأخيرة ، بحيث يمكن السير — فى أثناء أشهر الصيف — من الأرض اليابسة إلى شواطىء هذه الجزيرة مباشرة .

وتوجد عدة مستنقعات على طول الحدود بين إيران وأفغانستان ، تتسع وتنكمش تبعا لفصول السنة ، وأكبرها هامون صبارى ، وهى زاخرة بالطيور المتوحشة . أما البحيرات ذات المياه العذبة فنادرة للغاية فى إيران ، ومن المحتمل أنها لا تتجاوز عشر بحيرات فى جميع أرجاء البلاد ، وجميعها آسنة ، وأغلبها لا يزيد فى مساحته على حجم البرك .

الصحـــارى :

تمتد الأقاليم الصحراوية الواسعة فى إيران عبر الهضبة من الشمال الغربى — بالقرب من طهران وقم — إلى مسافة ٨٠٠ ميل تقريبا ، إلى الجنوب الشرقى مجتازة الحدود ؛ وما يقرب سدس مساحة إيران صحراء قاحلة .

وأكبر صحراوين تعرفان باسم : دشت لوت ، ودشت كوير ، وكلمة دشت معناها الصحراء ، ولوت معناها الخالية ، وكوير معناها الصحراء الملحة ، وهذه المساحات الصحراوية تتداخل بعضها فى البعض ، ولو أن كلا من الصحراوين

له دلالة محلية معينة ، وبعض أجزاء الصحارى تشتمل على بحيرات ملحة تبتلعها فى الربيع سيول الأنهار الداخلية الجارفة كل عام فإذا حل الصيف اختفت تحت قشرة صلبة من الملح . وهناك مساحات أخرى من الأراضى الصخرية البور ، ومساحات شاسعة من التربة الملحة أو الصحارى المكدسة بأكوام الرمال ، وجميعها — تقريبا — تتخللها سلاسل من التلال . وتوجد فى أماكن قليلة متباعدة عيون غزيرة تنبع من الأرض العراء ، فتخلق واحات خصبة مثل قرية «طبس» الجذابة الواقعة فى وسط الحدائق الغناء والبساتين وأشجار النخيل . وقد راج القول بأن صحراوى دشت لوت ، ودشت كوير لا تعبران إلا بطريق واحد يمتد من يزد إلى فردوس ، ولكن عربات النقل الثقيلة والمركبات الحربية قطعت —فى خلال السنوات الأخيرة —مسافات كبيرة من هاتين الصحراوين وإن بقايا خيام القوافل والقرى التى وجدت هناك لدليل واضح على أن هاتين الصحراوين كانتا — منذ زمن ليس بالبعيد — صالحتين لحياة الإنسان ، كما وجدت بعض آثار فراش خشن من صنع الإنسان ؛ حيث كانت القوافل فى القرون الأولى تسلك هذه الممرات الصحراوية ؛ ومع ذلك ، فمن الثابت أن الكوارث كانت تحل بالقوافل ، فيخسر كثير منها ضحايا لنفاد إمدادات الماء فى الصيف أو لأمطار الشتاء المفاجئة التى تحول سطح الأرض إلى مستنقعات زلقة ، وتعرض القافلة إذا ضلت طريقها إلى أن ينساق رجالها وجمالها إلى القشرة الملحة ، فإذا هم ينفذون منها إلى الوحل الذى تحتها فيأسرهم فلا يستطيعون منه خلاصا .

المنـــاخ :

يكاد سقوط المطر فى إيران ينحصر فى أشهر الشتاء فقط — من نوفمبر إلى أوائل أبريل — وهو نتيجة لانخفاضات جوية تتحرك شرقا من منطقة البحر الأبيض المتوسط ، أما العواصف الرعدية الصيفية — المألوفة لنا — فنادرة تماما ، كما تنحصر الأمطار التى تحدث — أحيانا فى وسط الصيف ، فى رذاذ خفيف .

ومتوسط سقوط الأمطار على أغلب أجزاء الهضبة الإيرانية أقل من ١٢ بوصة ، أو ما يقارب مستوى الأمطار فى ولاية نيفادا Nevada ، وتستقبل الأقاليم الصحراوية الواسعة والركن الجنوبى الشرقى للبلاد أقل من ٥ بوصات من المطر سنويا ، ويستفيد الركن الشمالى الغربى بـ ١٥ إلى ٣٥ بوصة ، وتزرع هنالك النباتات والمحصولات التى لا تحتاج إلى رى كثير على نطاق واسع ومع ذلك يزرع الفلاحون قدرا محدودا من القمح الشتوى فى المناطق التى تستقبل أقل كمية من الأمطار أملا فى أن يجلب الشتاء ثلاثة أو أربعة أمطار طيبة تنتج لهم محصولا يستحق الحصاد ، وتحدث السيول الغامرة أحيانا ، وتتدفق هذه السيول بشدة من الجبال فتغمر الطرق ، وتخرب القرى وتقضى على المحصولات .

ويمثل ساحل بحر قزوين صورة تختلف تماما عن الصورة السابقة لأن متوسط سقوط الأمطار هنالك يتراوح بين ٤٠ و٦٠ بوصة ، وتسقط الأمطار فيه طوال العام ، فتوجد هنالك المستنقعات الواسعة ، والغابات المملوءة بالأوراق الرطبة ، التى تساعد على انتشار الحميات التى يشتهر بها هذا الإقليم .

ويقابل نزول الأمطار فى الوديان نزول الثلوج على الجبال العالية ، وكثير من قمم الجبال العالية تظل متوجة بتيجان من الثلوج إلى أواخر الصيف . أما سقوط الثلوج الشديدة — فى سهول الوديان فنادر تقريبا ، وتذوب الثلوج — عادة — فى مدن مثل طهران واصفهان وكرمانشاه فى خلال أيام قليلة ، ولا يسقط الثلج عادة — جنوبى خط يربط بين انديمشك وشيراز ويزد وقاين ، ويسقط — نادرا — على ساحل بحر قزوين . ولكن الممرات العالية التى تعترض الطرق الجبلية الرئيسية قد تسد أياما — أو حتى أسابيع — فى أواخر الشتاء . ويقفل طريق جالوس الذى يبدأ من طهران إلى بحر قزوين — عادة — ثلاثة أشهر فى السنة .

وتتحكم كمية الثلوج الموجودة فوق الجبال العالية — فى الهجرات الربيعية للقبائل الرحل ، إذ أن قطعانها لا تستطيع أن تخترق بعض الممرات حتى شهر مايو فى كثير من الأحيان .

وتتمتع الهضبة الإيرانية بشتاء معتدل تماما ؛ وصيف حار ، فمثلا قد تصل درجة الحرارة فى طهران فى فترة تمتد أياما كثيرة متوالية فى وسط الصيف إلى ١٠٠ درجة ، ولكن الليالى تكون معتدلة نسبيا . ونسبة الرطوبة فى الصيف تبلغ ٢٠٪ تقريبا . ولا تصل درجة الحرارة فى الشتاء إلى صفر إلا نادرا ، وهى — دائما — فوق درجة التجمد فى وسط النهار ، وإقليما خراسان وآذربيجان أكثر اعتدالا فى الصيف ، وأشد برودة فى الشتاء . وتسود بعض الظروف الجوية الأقل احتمالا. منطقة رأس الخليج الفارسى ، والمنطقة الواقعة على امتداد شواطئه ، وفى الأقاليم الصحراوية التى فى الجنوب الشرقى .

ومن المسائل المختلف فيها : هل الجو فى عبدان (آبادان) وخرمشهر والأهواز أشد حرارة أم الجو فى الصحارى ؟! . . فقد وصل متوسط درجة الحرارة فى المنطقتين إلى ١٣٠ درجة ، ولكن تمتاز المنطقة الواقعة فى رأس الخليج الفارسى بأنها موبوءة بالرطوبة الشديدة . ويتدرج ساحل بحر قزوين من الدفء إلى الحرارة فى أثناء السنة ، ويبلغ فصل المطر أقصاه فى شهر يناير ، وتصل نسبة الرطوبة إلى ٩٠٪ ، بينما هى ٧٥٪ فى شهر يولية . ويكون الانتقال من فصل إلى فصل فى إيران مفاجئا تماما .

وأول يوم من السنة الإيرانية هو ٢١ مارس ، وفيه تمتلئ أشجار الفاكهة بالبراعم ، وتتغطى الحقول بنبات القمح الأخضر الجميل ، ثم تأخذ البساتين فى الازدهار ، وتتغطى سفوح الجبال بالزهور البرية . فإذا أقبل الصيف أخذت حرارته تحرق الأزهار وتميتها ، أما الخريف فلا تدل عليه الألوان الزاهية ولا الضباب الخفيف المعروف فى صيف الهند ، بل يحدث فيه انتقال سريع من الصيف إلى الشتاء .

والقاعدة الغالبة فى إيران هى صفاء السماء فى أكثر الأيام ، فالسماء تظل غير ملبدة بالغيوم مدة تزيد على نصف السنة ، ويوجد حوالى خمسين يوما فقط — فى كل سنة — تسود فيها العواصف الشديدة المظلمة ، وتهب الرياح القوية فى فترات معينة ، وهى تملأ الجو — غالبا — بسحب من الغبار . وتهب الرياح الصيفية بانتظام — فى جنوب شرقى إيران — فى فترة تمتد بضعة أسابيع ،

وتتجاوز سرعتها ستين ميلا فى الساعة ، وتستغل قوتها فى إدارة طواحين الهواء ، لطحن محصول القمح المحلى .

ويخاف الإيرانيون برد الشتاء أكثر من حر الصيف ؛ لأن السفر والنقل قد يتوقفان تماما ، ولأن الفلاح يضطر إلى الاحتفاظ بتموينه الغذائى المحدود ، يضاف إلى ذلك سبب أكثر أهمية وهو أن البرد لا يمكن أن يعالج بنظام ثابت للتدفئة . وتتجه جميع المنازل بمختلف أحجامها — نحو الجنوب حتى تشرق شمس الشتاء الحبيبة — التى قد تكون أحيانا دافئة جدا — فى الحجرات الرئيسية من المنزل .

وأنواع الوقود تارة باهظة الثمن ، ولا توجد فى القرى والمدن أية وسيلة لتدفئة المنزل كله ، ولذلك تستدفئ الأسر باستعمال « كرسى » وهو عبارة عن موقد فيه فحم نباتى يشتعل ببطء ، يوضع فوق الأرض تحت منضدة دائرية أو إطار يرتفع عنه حوالى قدمين ، وتفرش ألحفة العائلة فوق المنضدة — بحيث تكون دائرة يبلغ اتساعها حوالى ثلاث أو أربع ياردات حول الموقد .

ويضطجع أفراد العائلة فى أثناء النهار ، وينامون أثناء الليل تحت هذه الألحفة ، مادين أجسامهم نحو موقد النار فى صورة دائرة ، تاركين رؤوسهم غير مغطاة لتتعرض وحدها لهواء الحجرة البارد .

الفصل الثانى

التاريخ

إيران فى عصر ما قبل التاريخ :

إن تقدم الإنسان منذ ظهوره كنوع من الكائنات منذ أقدم الأزمنة حتى الوقت الحاضر يمكن أن يوضح على مقياس رسم طوله خمسون بوصة تمثل كل بوصة منها ١٠,٠٠٠ سنة . ووفقا لهذا المقياس ، أصبح الإنسان زارعا عند النقطة التى تشير إلى ٤٩¼ بوصة ، وتعلم الكتابة عند نقطة ٤٩½ بوصة وبلغ الثقافة والحضارة التى بلغهما أيام الدولة الأكمينية عند نقط ٤٩¾ بوصة وأغلب المادة التى سنذكرها فى هذا الفصل تتعلق بالربع بوصة الأخير على هذا المقياس ، وبجهاد الإنسان الطويل ضد نفسه ، وضد زملائه ، وضد الطبيعة . ولكن ينبغى أن نذكر شيئا عن فترة ما قبل التاريخ الساحرة ، وهى الفترة التى سبقت التسجيل والتدوين .

كان الرجال فى فترة ما قبل التاريخ — فى العصر الحجرى[1] — صيادين ، فصنعوا أسلحة وآلات خشنة ، ومارسوا الصيد الذى تعتمد عليه حياتهم ، واحتموا بالكهوف ، وكان سكان أية رقعة قليلين ، فكان عددهم يتناسب مع عدد الحيوانات الموجودة فى تلك الرقعة ، وكاد الموت يتهددهم جوعا على الدوام .

ومن المحتمل أن بعض الجماعات البشرية تحركت داخل مناطق محدودة ، ولكن ضغط الجوع أدى بهم إلى هجرات أوسع ، ويبدو أنه حدث اختلاط كبير فى الأقاليم الواسعة منذ عصور قديمة جدا ، وكان التطور فى الشرق الأوسط — فى أثناء العصر الحجرى — أسرع وأسبق منه فى أوربا .

---

(١) يسمى هذا العصر The Paleothic or Stone Age (المترجم)

وقد أدت ثلاثة اكتشافات حيوية إلى تغير ملحوظ فى أسلوب الحياة ، وربما فى النظم الاجتماعية أيضاً ، وهذه الاكتشافات هى : إدخال الزراعة ، واستعمال المعادن ، والتعايش الجماعى — ومن المرجح أن أفراد الشعوب البدائية ظلوا مدة طويلة يجمعون النباتات البرية كالأرز ، والقمح ، وجذور النباتات ، ولكن الخطوة الحاسمة التى خطوها بعد ذلك كانت ، حينما جمعوا الحبوب بعد حصادها فى الخريف ، واختزنوها — لأول مرة — ثم زرعوها فى الربيع التالى .

وقد أدت هذه السيطرة على وسائل الحياة ، إلى تحركات المجموعات البشرية من الجبال الأكثر ارتفاعا ، إلى السهول المستوية — فى أسفلها — حيث يصلح السطح المستوى للزراعة ، وهو تغيير عظيم خلقت الطبوغرافيا كلا من وسائله وبواعثه . وكانت الحبوب البرية مثل الحب الوحشى الذى تولد منه القمح — والذى — لا يزال يزرع فى إيران من المزروعات المألوفة لا فى أحواض الأنهار الكبيرة فى الشرق الأدنى ، بل فى منحدرات الجبال ، وكذلك كان نضال الإنسان ضد الظروف المحيطة به ، واستجابة الظروف لهذا النضال ، أقوى فى التلال الباردة منه فى السهول الحارة . فلم تلبث الحقول المزروعة أن أحاطت بالمستعمرات المسكونة ، ولم يلبث السكان أن استأنسوا الحيوانات فى نطاقها ، ولم يلبث هذا الاسلوب الجديد للحياة الجماعية أن أدى إلى تغيرات فى الصلات الاجتماعية بين الأفراد وبين الجماعات .

ومعلوماتنا قليلة عن سكان إيران الأولين — فى عصر ما قبل التاريخ — وقد سموا حينذاك القزوينيين أو القوقازيين ، ومميزاتهم الجسمية والجنسية ليست واضحة تماما رغم أن بين أيدينا مادة دقيقة تتمثل فى شواهد قائمة ؛ هى النقوش البارزة المنحوتة فى الصخر فى كورانجون فى جنوب غربى إيران ، والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ٢٥٠٠ ق . م . وهى تشتمل على نحوت واضحة لوجوه أربعين شخصا تقريبا من هؤلاء السكان .

ويظن أن القزوينيين اكتشفوا الزراعة قبل عام ٥٠٠٠ ق . م . وأنهم بدأوا يزرعون الأرض التى سميت إيران فيما بعد .

وقد أنتجت الزراعة طعاما أمكن الاعتماد عليه أكثر فى التموين وتيسير العيش ، ولابد أن السكان قد زادوا تبعا لذلك ، وانهم انساحوا فى الأرض وانتشروا فى مناطق فسيحة منها .

وقرب نهاية العصر الحجرى الحديث — عصر الآلات الحجرية المصقولة(١) — تناثرت القرى الكبيرة فوق السهول المنبسطة وكانت كل مستعمرة سكنية مملوءة ببيوت مزدحمة متقاربة ، ولم يكن هناك نظام منسق للشوارع والطرق .

ومن المرجع أن الأسلحة والأدوات البرونزية والأدوات الأخرى قد صنعت بكميات كبيرة بعد عام ٣٠٠٠ ق . م . نظرا لكمية البرونز التى استخرجت من الاكتشافات الأثرية .

ويقوم بالاكتشافات الأثرية للأماكن القديمة فى إيران علماء الآثار الفرنسيون فى سوس ونهاوند ، وسربل ، وأسد آباد ، وبالقرب من كاشان ، والبعثة السويدية فى جرجان والمعهد الشرقى لجامعة شيكاغو بالقرب من پرسبوليس ومتحف جامعة فيلادلفيا ، ومتحف كانساس سيتى (Kansas City) فى دامغان ، والمعهد الإيرانى فى جرجان وفى لورستان ، وقد تمت أعمال قيمة فى ميادين التنقيب والاكتشاف ، وفسر ارنست هرتسفلد (Ernest Herzfeld) وسير أورل شتين (Sir Aurel Stein) الكتابات المتعلقة بعصر ما قبل التاريخ .

وتظهر مواقع المستعمرات القديمة كأنها ربى بارزة ، يبلغ ارتفاع بعضها حوالى ١٠٠ قدم ، وتوجد منها آلاف كثيرة فى إيران . وقد تأسست هذه المستعمرات الأصلية على السهول المنبسطة أو على ارتفاع طبيعى يسير . وسقطت البيوت المبنية من الطين بفعل الأمطار الغزيرة ، وبنيت على انقاضها — بعد تسويتها — منازل جديدة ، وألقى فائض الأنقاض فى الطرق الضيقة ، وبذلك ارتفع مسطح هذه الطرق ، وهكذا أخذ ارتفاع المستعمرات عن الوديان يزدان تدريجيا على مر القرون ، وكان استيطان أى مكان ينتهى متى صارت المساحة

---

(١) يسمى هذا العصر Neolithic period (المترجم) .

التي على قمة رابية اصطناعية صغيرة جدا ، أو إذا هلك سكانه فى الحروب ، أو بسبب الكوارث الطبيعية ، ثم تهب الرياح حاملة التراب والرمال ، فوق المكان المهجور ، فتعلوه الخضرة وتغطى آثار سكنى البشر . ولكن ما زالت الأمطار الغزيرة تكشف باستمرار عن قطع الخزف والخواتم ، والأشياء الصغيرة الأخرى إلى أسفل الرابية لتبين مدى وجود هذه المستعمرة القديمة ، وتاريخ كيانها بالتقريب .

ويبدأ التنقيب فى المكان الذى يقع عليه الاختيار عند قمة الرابية ، حيث يستكشف جزء محدود منها ، أو تستكشف المساحة كلها بالتدريج ، ونظام الحفر شبيه بقطع مجموعة من الشرائح الأفقية ، ثم يسجل عن كل شريحة الوضع العمودى ، والتصميم المحلى لكل بناء — أو أى شىء آخر — ليكون من المتيسر أن تلاحظ التغيرات الواضحة فى البناء ، وفى نماذج الفخار والأشياء الأخرى ، ويمكن أن يعبر عن المسطحات الأفقية الواضحة بحرف أو رقم متميز ، ويساعد تشابه المسطحات فى الأماكن المختلفة على إثبات وجود نظم حضارية عامة أو على بيان التأثيرات التى انتقلت من منطقة إلى أخرى ، كما يسمح هذا الأسلوب الخاص بالمقارنة بين المسطحات بتقدير تواريخ العصور السابقة على تواريخ السجلات المكتوبة .

وتشتمل الأشياء الموجودة فى أى موقع قديم على آلات وأدوات للزراعة والنسيج ، وأختام وتعاويذ ، ولعب للأطفال ، وقطع من الفخار .

ويمدنا الفخار الموجود بكميات كبيرة — فى كل موضع — بمعلومات حاسمة ، وتقدم لنا رسومه وأشكاله حقلا خصيبا للتأمل والدراسة .

وكان أقدم فخار مصنوعا باليد ، ولكن عجلة الفخار استعملت بعد ذلك ، ويوجد اختلاف كبير — فى الحجم والشكل — بين الأوانى المستخرجة ؛ وقد وجدت فى القبور قطع من الفخار كان كثير منها من الرقة وسهولة الكسر بحيث تتعذر ملاءمتها للاستعمال اليومى ، مما يرجح أنها إنما صنعت لمجرد سد حاجات الميت فى القبر وفى الدار الآخرة ، وقد زينت الأوانى المطلية باللون الأحمر

أو الأسود بنماذج هندسية ، وبصور حيوانات رشيقة ، وفى أحيان نادرة بصور كائنات بشرية ، وقد صورت الحيوانات المنتشرة فى الإقليم بمهارة مدهشة ، ومن الطريف حقا ، أن نلاحظ أن فنانى القرية استطاعوا أن يرسموا أحيانا صورا طبيعية لهذه الحيوانات بطريقة فنية بديعة ، تصور فيها هذه الدواب بوجوهها الجانبية فتبدو أشبه بالصورة التى أبدعها الخالق ، أكثر مما تبدو كنسخة مستمدة منها .

ومن الممكن أن نقول إن كل النماذج الهندسية المستعملة على الخزف كان لها معنى رمزى فى أذهان الفنانين والناس الذين عاشوا فى العصر الذى صنعت فيه وأنها تمثل مجهودات الانسان لإدراك معنى العالم ، وشغفه بما حوله ، وخوفه من الطبيعة ، ولما كان الإنسان يعتمد على الجو الملائم للحصول على الغلات التى يقتات بها ، فقد رمزت كثير من رسوماته إلى القوى الطبيعية الممثلة للجو ، أو كانت تحويرا للرمز إلى مايشبه صورة الحيوان ، فمثلا : القمر مقترنا بالمطر يرمز له بهلال ، ويمثل الهلال بقرون الوعل المنحنية ، وقد صورت رموز أخرى تمثل الشمس والمطر الهاطل ، وبركة كبيرة ، وشجرة نضيرة فوق قمة جبل ، وبينت الرموز — أيضا — العقائد الدينية المنتشرة ، والخرافات والأساطير التى استقرت فى أذهان الناس تماما بحيث توارثتها الأجيال ، وسجلتها فى النهاية عن طريق الكتابة .

إيران قبل الأكمينيين :

هاجرت طائفة واحدة — على الأقل — من الطوائف التى سكنت طويلا فى الهضبة الإيرانية من موطنها القديم إلى موطن آخر ، فقد انتقل الكاز (Kassites) من إقليم لورستان فى غربى إيران إلى بابل فى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وحكموا هذه البلاد ستمائة سنة ، وقد بدأت فترة حكمهم بالانتقال من استعمال البرونز إلى استعمال الحديد ، وقامت إمارات ودول مركزية فى إقليم مان (Man) فى الركن الشمالى الغربى من الهضبة ، وفى سوس مركز العيلاميين الذين حكموا فترة وجيزة بعد هزيمة الكاز ، ويرجع تاريخ أقدم كتابات للعيلاميين

إلى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، ثم قامت مملكة أرارتو (Urartu) فى الإقليم الذى عرف أخيرا باسم أرمينية ، وإذا كانت المواطن المرتفعة هى التى سبقت إلى تطوير الزراعة ، والحياة الجماعية فإن سكان السهول فيما بين النهرين قد ارتفع شأنهم باختراع الكتابة ، وتنظيم القوانين ، وإنشاء الأبنية الأثرية .

وظهرت فى هذه المنطقة الإقليمية بعد ذلك سلالة جنسية أخرى هى الآريون الذين قدموا إليها فى موجات متلاحقة ، فجاء — أولا — الآريون الهنديون الذين تحركوا حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . من إقليم نهرى سيحون وجيحون إلى جنوبى الهضبة الإيرانية وغربيها ، ثم أقاموا فى أقصى الغرب حيث تغلبوا على مملكة ميتانى (Mittani) .

ثم جاء الإيرانيون فى حوالى ٩٠٠ ق . م . وقد عاش هؤلاء القوم أولا فى جماعات مستقرة ، ثم أخذوا فى حياة البداوة والتجوال واستمروا فيها فترة طويلة حتى انتهى بهم الأمر إلى تأسيس القرى فى إيران ، واتخذوها موطنا لهم وكانوا يتحدثون لهجة هندية أوروبية (Indo- European) ؛ ولكن المعروف عن خصائصهم الجنسية قليل ، ومن المظنون أنهم حلوا تماما محل الساكنين الأولين للهضبة الإيرانية ؛ ولكن هناك احتمالا يسيرا فى أن بعض القبائل البدوية الموجودة فى إيران حاليا ، إنما تفرعت من السكان الأصليين الذين كانوا يعيشون فيها .

واشتمل الإيرانيون على طوائف الميديين والفرس والبارثيين والباكتريين (Bactrian) (أهل بلخ) والسغديين و « الساكا » والسيذيين (Scythians) وقد استقر الميديون فى غربى ايران ، وأصبحوا هم والفرس فى الجنوب خاضعين — فى البداية — للدولة الآشورية ، ولذلك فإن معلوماتنا عنهم تستمد جميعها من الكتابات الآشورية ، وسرعان ما اشتد ساعدهم ، وأثبتوا استقلالهم ثم قهروا آشور ، ولكن تفاصيل هذه الأحداث غير موجودة لأنها لم تدخل ضمن السجلات الآشورية .

وكانت اكباتانا — همدان الحالية — عاصمة الميديين ، وقد حطم سياكزارس (Cyaxares) ملك ميديا من ٦٢٥ إلى ٥٨٥ ق . م . قوة آشور تماما ، ووسع ملكه حتى شمل جزءا كبيرا من آسيا الصغرى .

ويوجد وصف جذاب لاكباتانا عاصمة الميديين ولقصورها الخرافية فى كتب المؤرخين الاغريقيين هيرودوت وبوليبيوس ، ولكن قلة النصب الأثرية القائمة الباقية من هذه الفترة تجعل من الضرورى التأمل فى بناء المدن والمعابد والمنازل ، وفى متناول أيدينا مصدران نستمد منهما هذه المعلومات : أولا : توجد صور واضحة منحوتة لمدن وأبنية ، قدت فى البروزات الحجرية التى كانت أصلا فى قصر سارجون (Sargon) فى خورس آباد (Khorsabad) وتساعد المعلومات المكتوبة عن الحملة الثامنة لسارجون ملك آشور — التى وجهت ضد الشمال الغربى من ايران فى ٧١٤ ق . م . — على فهم هذه النقوش البارزة ، ومن بينها القرى المحصنة بالخنادق ، والأسوار الشامخة ، وقد صور معبد خالديا (Khaldia) فى قرية موساسر (Musasir) بواجهة مكونة من ستة أعمدة وسقف مثلث ، وتعرض مدينة أخرى أبنية مستطيلة بنيت من الأحجار السوداء والبيضاء على التعاقب .

والمصدر الثانى للمعلومات هو القبور المنحوتة فى الصخر الخاصة بالعصر الميدى ، وفن البناء فى هذه المقابر يتمثل فى دهليز من الأعمدة كما هو مشاهد فى المقابر الموجودة فى سربل الذى يسمى دكان داود ، والقبر الذى فى فخريقا (Fakhriqa) والقبر المسمى ده ودختر .

ونموذج البناء فى هذه المقابر هو فعلا نسخة من صور المنازل ، غير أن الأجزاء والعناصر المألوف اتخاذها من الخشب قد أخذت فيها من الحجارة . وهناك شواهد أقل تأكيدا — ترجح أن المنزل الذى يشبه البرج كان معروفا فى أثناء ذلك العصر .

وأكثر الآثار الفنية شهرة مما خلفته هذه القرون الطويلة آثار لورستان البرونزية التى سميت كذلك لنسبتها إلى هذا الإقليم الجبلى فى غربى إيران ، وقد استرعت اهتمام العالم منذ ١٩٢٩ — واستخرجت بعد ذلك بكمية كبيرة من القبور القديمة ، وهى تعرض فى كل متحف مهم تقريبا .

وكانت القطع القديمة مصنوعة من النحاس الأحمر المطروق فى صور تشبه صور الفخار المحروق ، ويرجع تاريخها إلى حوالى ٢١٥٠ ق . م . عندما كان الـكاز يعيشون فى هذه المنطقة ، وتعد القطع المتأخرة أمثلة رائعة لفن سبك البرونز وصبه فى قوالب ، وقد كثر إنتاجها فى المدة ما بين ١٤٠٠ و ١٠٠٠ ق.م. واستمر حتى العصر الأكمينى . وتشتمل نماذج البرونز على فؤوس وخناجر ، ومسنات ، ومقابض ، وزينات للخيل — خصوصا لقمة اللجام وخواتمه — وحيوانات صغيرة ، وأساور ، وأقراط ، ودبابيس للملابس ، والتعاويذ . وتعرض جميع القطع تقريبا صور الحيوانات إما فى بروز أو تجسيم ، وتبدو فيها مسحة صادقة من الحقيقة والحيوية . والأسلحة مزينة تزيينا بديعا ولها نصل تدل أشكالها على أنها لا تصلح للاستعمال وأنها لم تستعمل إطلاقا ، وإنما صبت كذلك لتستعمل فى بعض الطقوس والمراسم .

العصر الأكمينى [1] :

استقرت طائفة أخرى كانت وثيقة الصلة بالميديين فى اقليم فارس ، وانتشر أفرادها فى سهول عيلام باعتبارهم حكاما من قبل الميديين ، وأصبح رؤساء هذه الطائفة التى تعرف باسم الأكمينيين السادة المسيطرين على هذا الإقليم الذى كان يعرف باسم « أنشان » [2] أو فارس . وفى عام ٥٥٣ ق . م . ثار قورش [3] نائب الملك فى بارس أو برسيس ، وأسقط الحاكم الميدى أستياجس (Astyages) ثم أعقب ذلك اتحاد وثيق بين الميديين والفرس ، وسرعان ما استخدم جيشا مكونا من هذه الجماعات القبلية الناهضة فى سلسلة من الغزوات الناجحة التى انتهت بتكوين أول امبراطورية كبيرة فى العالم .

وقد تقدم قورش إلى آسيا الصغرى ، حيث هزم الملك الليدى كروزوس (Croesus) ذا الثروة الخيالية ، وسيطر — فى حوالى ٥٤٦ ق . م . — على أرمينية

---

(١) المراجع : يعرف الأكمينيون فى المصطلح الفارسى باسم « هخامانشيان » أو « شاهان هخامنشى » .

(٢) المراجع : يكتب فى الفارسية « انزان » .

(٣) المراجع : يعرف فى الفارسية باسم « كوروش » .

وآسيا الصغرى والمستعمرات اليونانية التى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ثم رجع إلى اكباتانا — همدان الحالية — المركز التجارى للدولة الأكمينية الجديدة، ثم قاد جيشا إلى الشرق ليغزو الأقاليم التى هناك مثل بارثيا (Parthia)، وخورازميا (خوارزم) (Chorasmia) وباكتريا (بلخ) (Bactria)، وفى ٥٣٩ ق. م. حاصر بابل العظيمة، واستولى عليها فى النهاية بواسطة تحويل مجرى نهر الفرات، وأرسل بعض اليهود والمحبوسين هناك — فى المنفى — إلى فلسطين.

ولم يكن قورش المتوفى فى عام ٥٢٩ ق. م. بطلا عالميا ومنظما إداريا ماهرا فحسب، بل كان — أيضا — أول من أظهر روح التسامح، وهى صورة نموذجية للخلق الايرانى.

وغزا ابنه قمبيز[١] مصر، ثم جن فى النهاية، وانتحر بالقرب من اكباتانا فى أثناء ثورة قام بها موبذ اسمه جوماتا (Gaumata) واعتلى جوماتا — وقد ادعى كذبا أنه أخو قمبيز — العرش مدة وجيزة، ثم قتله رؤساء الأسر النبيلة. ثم عين دارا[٢] قائد جيش المنتقمين — الذى نبت من فرع آخر من الأسرة الأكمينية — ملكا فى ٥٢١ ق. م.

وقد أخمد — أولا — موجة من العصيان كانت قد سادت فى الدولة، ثم عبر البوسفور فى ٥١٢ ق. م. واستولى على تراقيا (Thrace)، ثم عبر الدانوب ولكنه انسحب قبل تدعيم هذه المغانم، لأن المساعدات التى قدمت من الولايات اليونانية الأصلية فى اليونان للمستعمرات اليونانية الثائرة فى آسيا الصغرى دفعته إلى الحرب من جديد، فقام بحملتين على بلاد اليونان فى ٤٩٢ و٤٩٠ ق. م. انتهتا بموقعة ماراثون (Marathon) وبانسحاب الجيش الفارسى إلى آسيا الصغرى.

وخلف اكزرسيس[٣] الأول (Xerxes) أباه دارا فى عام ٤٨٥ ق. م.

(١) المراجع: يعرف فى الكتب الفارسية باسم (كمبوجيه).
(٢) » » » » » » » (داريوش).
(٣) » » » » » » القديمة باسم «خشيارشا».

فقاد حملة ثالثة ضد اليونان مكونة من ٩٠٠,٠٠٠ جندى يساعدها أسطول ضخم بلغت هدفها بالاستيلاء على أثينا وحرقها فى ٤٨٠ ق . م . ولكنه انسحب إلى آسيا الصغرى بعد هزيمة الأسطول الفارسى فى موقعة سالاميس (Salamis) وهزيمته فى موقعة بلاتيا (Platea) وقد استمرت العمليات الحربية بعض الوقت ، ولكن الأكمينيين أقاموا مع ذلك علاقات أكثر ودا مع الولايات والمستعمرات اليونانية .

وخلف أرتاكزرسيس[1] الأول أباه فى ٤٦٥ ق م. وحكم حتى ٤٢٤ ق.م. وظهرت بوادر الاختلال الداخلى للدولة فى الثورات التى اشتعلت فى مصر والأقاليم الأخرى ، وظلت كذلك حتى مدة حكم أرتاكزرسيس الثالث ، الذى حكم من ٣٥٩ — ٣٣٨ ق.م . واستطاع أن يعيد حدود الدولة إلى حالتها الأولى لمدة وجيزة ، ثم دالت الدولة فى النهاية فى عصر الملك الجبان دارا الثالث .

وأغلب معلوماتنا عن تاريخ ايران فى العصر الأكمينى ، وعن تفصيلات النظم السياسية ، والجيش ، وحياة الناس ، مأخوذ عن المؤرخين اليونانيين ، خصوصا عن هيرودوت[2] .

وقد قسمت الدولة إلى عشرين ولاية — أو محافظة — كل واحدة منها تحت حكم وال أومرزبان ، وكان الولاة ينحدرون من الأسر الفارسية النبيلة ، وكانت وظيفتهم أقرب إلى أن تكون وراثية ، وقد استمر النظام الذى أسس فى ذلك العصر سائدا فى إيران حتى نهاية القرن التاسع عشر . وهو يقوم على أساس حاكم مطلق يخضع له جماعة من الحكام شبه المستقلين .

وكان الجيش مقسما إلى ست فرق ، تضم كل فرقة منها ٦٠,٠٠٠ جندى ، وتتكون كل فرقة من ست كتائب ، كل كتيبة منها ١٠,٠٠٠ جندى — وكان الفرسان يركبون خيولا مرباة فى ميديا ، ويتسلحون بالقوس والنشابة .

---

(١) المراجع : يعرف فى الفارسية القديمة باسم « ارث خشتر » وفى الكتب الفارسية باسم « أردشير أول » .

(٢) لم يخل ما كتبه هيرودوت من المبالغة والقدح فى الإيرانيين ، لأنه كان يكرههم كغيره من اليونانيين لحرقهم أثينا (المترجم)

وكان حرس الملك الخاص يتكون من ١٠,٠٠٠ جندى يعرفون باسم « الخالدين » لأنهم كانوا من نسل الأسر الحاكمة فى ولاية فارس الأصلية .

وكانت الولايات متصلة بواسطة الطرق التى كان أهمها الطريق الملكى[1] ، الممتد من السوس إلى مدينة سرديس عبر ما بين النهرين وآسيا الصغرى ، وهى مسافة تبلغ ١,٥٠٠ ميل ؛ وكان الرسل والمسافرون يستعملون طريقة البريد ، فيركبون خيولا قوية يستبدلونها بخيول جديدة فى محطات كثيرة على طول الطرق .

وقد ازدهرت الزراعة ، وطبقت العدالة بدقة ، وسمح للجماعات البشرية المقيمة داخل حدود الدولة بالاحتفاظ بدياناتها الأصلية غالبا كما سمح لأسرها الحاكمة بالاستمرار فى حكمها .

أما الضرائب فقد انتقلت من صورتها النوعية التى كانت معروفة فى العصور القديمة إلى قوانين منظمة مع توحيد الدفع بالدريق الذهبى (Daric) ، وكانت سوس وبابل وإكباتانا أهم المراكز الحكومية ، ومقر القصور الملكية ، بينما كانت برسبوليس العاصمة الروحية للدولة .

ويبدو أن الطبقة الأرستقراطية الحاكمة قد حافظت على روحها الحربية ، ولكن سرعان ما حلت الأساليب الشرقية فى الحياة والفكر ، وهى التى اقتبسوها من إقليم ما بين النهرين المتحضر جدا ؛ محل عاداتها القبلية القديمة . وقد لاحظ هيرودوت هذا الميل من الفرس نحو اقتباس الأساليب الأجنبية والتأثر بها حينما كتب يقول : « ولا يوجد شعب يقبل العادات الأجنبية باستعداد تام مثل الفرس ، وهم إذا سمعوا بأى نوع من أنواع الترف فإنهم يجعلونه — فى الحال — خاصا بهم » .

والعقيدة السائدة — فى الوقت الحاضر — وهى أن الأكمينيين الفرس كانوا برابرة إذا ما قورنوا بالإغريق المتحضرين عقيدة خاطئة ، لأننا نعلم ان قورش كان يحتقر أخلاق اليونانيين التجارية ، كما أنه من الواضح أن ولايات الأكمينيين تفوقت على المدن اليونانية كثيرا فى ميادين الإدارة العامة ، والنظم السياسية ، واستقرار الحكم والتسامح فيما يتصل بالجنس والعقيدة .

---

(١) المراجع : أى الطريق الرئيسى ويعرف فى الفارسية باسم « شاه راه »

وقد كتبت وثائق الأكمينيين المنحوتة فى الصخور ، أو المثبتة على القوالب الطينية بثلاث لغـات كانت مستعملة فى عصرهم هى : الفارسية القديمة ، والعيلامية ، والبابلية .

وترجح الأبحاث الحديثة أن الوثائق الرسمية كانت مسجلة بلغة فارسية قديمة مكتوبة بخط آرامى ، فى حين أن اللغة الفارسية القديمة — التى سجلت بها النقوش التى على الصخور — كتبت بحروف مستعارة مكونة من رموز مسمارية ، وقد كانت اللغة الفارسية القديمة — فى أبسط صورها — عضوا فى الشعبة الهندية لأسرة اللغات الهندوأوروبية الكبيرة ، وكانت لغة الزند أو لغة الأفستا — وهى لغة النصوص الزردشتية القديمة — وثيقة الصلة بها .

وقد اقتصرت الكتابات الملكية على تسجيل سلسلة نسب الملك ومذهبه الدينى وأسماء الولايات ، وإخماد الثورات ، وبيانات مفصلة عن بناء القصور الملكية ، ويمكن أن نعلم شيئا عن خصائصها من هذه الفقرة المنقولة من نقش دارا الطويل ذى اللغات الثلاث المحفور على وجه صخرة بجبل بيستون ، وهو : « أنا دارا بن هستاسيس الأكمينى الفارسى ابن الفارسى ، الآرى المنحدر من أصل آرى ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، وملك البلاد المسكونة بجميع الأجناس ، ملك الأرض العظيمة المنبسطة منذ مدة طويلة » .

وقد شاهد العصر الأكمينى ظهور ديانة تهدف إلى إبدال الآلهة الوثنيين الذين يجسمون القوى الطبيعية والعواطف البشرية بنظام شامل يقوم على أساس الصراع الدائم بين الخير والشر ، وكانت هذه الديانة التى بشر بها زارثسترا[1] (Zorathushtra) الذى يسمى حديثا باسم زردشت . وقد ولد فى ميديا ، وأغلب الظن أنه عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، وعقيدته هى العقيدة التى صارت الديانة الرسمية لدارا وأكزرسيس وأرتكزرسيس الأول ، وتؤمن الديانة الجديدة بآهور امزرا — على أنه إله الخير وتسمى نسبة إليه

---

(١) المراجع : يكتب هذا الاسم على جملة صور بالفارسية لعل من أكثرها قبولا « زردشت » أو « زرتشت » .

بالديانة المزدية — ويقترن الخير فيه بالصدق والنور أيضا ، وهو الذى قرر خلود الروح ، والحساب فى يوم القيامة .

وكانت هذه العقائد مجردة جدا ؛ فلم تستطع أن تبقى بدون تغيير ، فلم تلبث أن تغيرت باتحادها مع آلهة الإيرانيين القدماء من ناحية ، وباختلاطها بالطقوس الدينية لطائفة المجوس الميدية من ناحية أخرى ؛ وقد أصبح رجال هذه الطائفة يتوارثون وظيفة الكهنة فى هذا الدين الجديد المنتشر .

وتوجد — بين الآثار العديدة المتبقية عن الفترة الأكمينية — القبور السبعة المنحوتة فى الصخور فى پرسبوليس[1] ، وفى نقش رستم القريبة منها ، وهى منحوتة فى واجهة صخرة عمودية مرتفعة ، وتشتمل على واجهات خارجية عالية : تضم صفا من الأعمدة المبنية فى صورة جدول ، على أساس هندسى ، وخلفها حجرة أو أكثر ، وفكرة البناء قائمة على أساس واجهة منحوتة فى الصخر ، وتوجد نماذج قديمة لهذا النوع من البناء فى إيران وآسيا الصغرى .

ويوجد قبر قورش فى بازارجاده[2] — فى سهل كثير الماء ، وهو بناء أثرى من الحجر مرفوع فوق إفريز من الأرض ، يشبه المنزل المستطيل ذا السقف المنحنى (جملون) ، وتوجد هناك — أيضاً — آثار عدة قصور ملكية منتثرة فى مكان كان فى الأصل حديقة مليئة بالأشجار ، وهذه الآثار مقسمة إلى وحدات ، كل وحدة منها تتكون من ساحة كبيرة مستطيلة ذات أروقة على جانب أو أكثر من جوانب البناء ، وحجرات صغيرة مربعة فى الأركان ، وهذه القصور تمثل شكل منزل مبنى من الحجر والخشب .

وموقع الآثار فى پرسبوليس هو خير ما عرف عن هذا العصر ، وإذا نظرنا إليه وجدناه ساحة مستطيلة تعتمد على جدر مبنية تبرز من الصخور ، وتشرف على سهل واسع خصيب — وقد بدأ دارا بناء هذه المساحة وأتمها اكزرسيس وارتاكزرسيس الثالث — ووجدنا مجموعة كبيرة من الدرجات الحجرية المزدوجة

(١) المراجع : تعرف فى الفارسية باسم « تخت جمشيد » .

(٢) المراجع : تعرف فى الفارسية باسم « تخت مادر سليمان » وتكتب أحيانا « باساركاد » .

تقود إلى الشرفة ، وبعد نهاية الدرجات تقف بوابة سائر البلاد التى بناها اكزرسيس ؛ وهى مربعة فى شكلها تضم فى داخلها أربعة صفوف من الأعمدة ، وأربعة أبواب تقوم على جوانبها ثيران مجنحة ذات رؤوس آدمية ، وإلى شرقى الباب وفوق مستوى الشرفة ببضع ياردات ، توجد « الأبادانا » (Apadana) الكبيرة أو «صالة الاستقبال» ويوصل إليها بسلم مزدوج تحيط به — على الجانبين — مجموعتان من الصور المنحوتة ببروز قليل على حجر البناء ، إحداهما تمثل موكبا طويلا من رعايا الشعوب الخاضعة ، يحضرون الجزية التى يقدمونها بمناسبة عيد الربيع الذى يقام سنويا فى برسبوليس ، وتمثل الأخرى أفراد الحرس الملكى من الفرس والميديين وأهل السوس ، وكان يوجد قبل ذلك — على كل جانب من جوانب الصالة الرئيسية — باب كبير ذو صفين من الأعمدة يتكون كل صف منهما من ستة أعمدة ، وقد بنيت فى كل ركن حجرة مربعة أكثر متانة واستحكاما ، وتشتمل الصالة الداخلية الواسعة — التى يبلغ اتساعها ٢٠٠ قدم من كل ناحية — على ستة صفوف من الأعمدة ، فى كل صف ستة أعمدة ، ارتفاع كل منها ٦٥ قدما .

وإلى شرق الأبادانا تماما ، توجد الساحة الشهيرة ذات المائة عمود ، التى أحرقها الإسكندر الأكبر ، وتصميمها مثل تصميم الأبادانا ، غير أن الصالة الكبيرة ذات عشرة صفوف من الأعمدة ، فى كل صف عشرة أعمدة ، والنقوش البارزة على الجوانب الحجرية للأبواب ، تمثل الملك — وأغلب الظن أنه اكزرسيس — يعقد استقبالا ملكيا ، أو فى صراع مظفر ضد الوحوش الخرافية التى تمثل قوى الشر .

ومن الأبنية المهمة فوق الافريز — قصر شتوى صغير لدارا يسمى «تاجارا» (Tachara) وكان محل إقامة الحريم ، فأقامت فيه ، زوجات دارا واكزرسيس ، وقد أصلحه فى العصر الحديث المكتشفون الذين اكتشفوا هذا الموقع ، كما توجد الخزانة الملكية ، وقصر اكزرسيس المسمى «هادج» (Hadich) ، وقصر ارتاكزرسيس الثالث ، وبناء غير معروف ، من الجائز أنه كان قصر الملكة الذى شيده دارا .

وتتكون الأبنية التى على الإفريز من ثلاث مجموعات رئيسية هى : الأبواب ، وصالات الاستقبال والمساكن الخاصة ، وقد بنيت أغلب الأبنية قريبة من بعضها البعض مع مراعاة يسيرة لشكلها الظاهرى العام ، وكانوا يجلبون العمال ومواد البناء — إلى هذه الناحية — من جميع أرجاء الدولة ، وكانت التصميمات المعمارية ، والنقوش البارزة خليطاً من الفن المصرى ، والفن البابلى ، وفن آسيا الصغرى .

وكشف التنقيب فى السوس عن آثار قصر كبير بدأ دارا بناءه ، وأتمه خلفاؤه ، وهذا القصر يشبه إلى حد كبير — بقاعاته الداخلية ، وحجراته الضيقة وبعض أجزائه الأخرى — النماذج الآشورية والبابلية الأصلية .

وقد انعكس امتزاج الفن الأكمينى بالفنون المجاورة وميله إلى التحرر فى الصور المنحوتة فى الحجرات للحيوانات ، وفى رؤوس الآدميين المصنوعة من البرونز ، وفى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الذهب والفضة ، لرجال يلبسون الملابس الإيرانية ، وفى التماثيل الصغيرة لحيوانات مصنوعة من البرونز وغيره من المعادن الثمينة . وقد استعملت أشكال الحيوانات فى أوضاع رائعة كأياد لأوانى الشراب والكؤوس ، وهى تدل على القوة والخيال ، وتوجد أيضاً سلاطين من الذهب والفضة محلاة بالورد ، وبراعم اللوتس (النيلوفر) ، والأزهار . وحلى هذا العصر عبارة عن الأساور والقلائد والحلقان وقد بقيت لنا منها كميات كثيرة ممثلة بوضوح فى المجموعة الشهيرة باسم (Oxus Treasury) وهى عبارة عن مجموعة من المجوهرات الذهبيـة والفضية المحلاة باللؤلؤ ، والخطوط الزرقاء الجميلة ، والأحجار الملونة ، وأكثرها موجود الآن فى المتحف البريطانى .

وقد بقى كذلك كثير من الأختام الأكمينية الأسـطوانية ، والأحجار التى تستعمل فى الأختام ؛ وأكثرها قد نقشت عليه مواكب العبادات الدينية ، أو مناظر لطراد الحيوانات المفترسـة وتوجد — أيضاً — نقود ذهبية وفضية أصدرها الملوك فى المدة التى وقعت بين حكم دارا الأول ودارا الثانى ، وتحمل

كل منها صورة الملك ، ويكون مسلحا — دائماً — بقوس ، ويحمل فى يده إما حربة أو خنجراً أو سهما .

وقد كشفت التنقيبات التى قام بها المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو والحكومة الإيرانية — أخيراً — فى پرسبوليس أشياء كثيرة لطيفة بين أنقاض الخزانة الملكية ، لوحظ من بينها الأطباق والسلاطين الحجرية والرخامية التى حملها — من مصر إلى إيران — الجيش الأكمينى المظفر .

العهد السلوقى[1] :

كتب على الدولة الأكمينية أن يحطمها فاتح آخر للعالم هو الاسكندر الأكبر فكانت غزوته ذات تأثير بعيدالمدى ، لأنها وضعت حدا للمجد الشرقى القديم ، وحولته نحو الغرب .

وقد ولد الاسكندر بن فيليب — ملك مقدونية — عام ٣٥٦ ق . م . وبدأ فى عام ٣٣٦ ق . م . فى تنفيذ سياسة والده ، وهى تثبيت قواعد الحكم فى بلاد اليونان ، ثم السير لغزو إيران على رأس جيش مكون من ٣٥,٠٠٠ جندى ، واستطاعت قيادته الرشيدة أن تقضى على جيش فارسى كبير بقيادة دارا الثالث قضاء مبرما ، وذلك فى موقعة أيسوس التى تقع إلى الداخل مباشرة من الركن الشمالى الشرقى للساحل السورى ، وقد هرب دارا عندما لاحظ أن تيار المعركة يسير ضده ، وسار الاسكندر بجيشه إلى أسفل الساحل ، وشق طريقه إلى قلب مصر ، ثم رجع عن طريق سورية ، ودخل ما بين النهرين وعبر الفرات ودجلة ، وقابل فى « إربل » جيشا فارسيا جديدا يبلغ عدده عشرة أضعاف جيشه — فهزمه ، واضطر دارا الثالث إلى الهرب مرة أخرى .

ثم اتجه الإسكندر جنوبا ليستولى على بابل ، وتقدم إلى السوس وپرسبوليس حيث استولى على الخزائن الملكية سليمة ، وأحرقت على يديه مدينة پرسبوليس ، وأغلب الظن أنها إنما أحرقت انتقاما من إحراق أثينا الذى تم قبل ذلك بكثير بواسطة الجيش الأكمينى . وفى ربيع ٣٣٠ ق . م . خرج

---

(١) المراجع : تكتب هذه الكلمة فى الكتب الفارسية بالكاف بدل القاف .

الإسكندر لمطاردة دارا الثالث ، فتوجه أولا إلى اكباتانا ، ثم سار فى المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال ألبرز ، ولم يلبث أن عثر هناك على جثة الملك الأكمينى مقتولا بأيدى أتباعه .

وكان الاسكندر نادرا ما يتوقف لضبط الأحوال وتدعيمها داخل مملكته الجديدة الواسعة ؛ وكأنما كان مدفوعا برغبة ملحة فى الوصول إلى نهاية العالم ، فتوجه هذا القائد الفاتح — رأسا — إلى بلاد غير معروفة تماما لليونانيين ، إلى أقصى الولايات الشرقية التابعة للدولة الأكمينية .

وكانت رحلة الاستكشاف التى قام بها الاسكندر تحمل — أيضاً — طابع الرحلة العلمية ، فقد حفظ لها سجل دقيق ، يوضح خط السير ، والمسافات المقطوعة ومعلومات جمعت عن سكان الأقاليم الجديدة ، ونباتاتها ، وحياة الحيوان فيها ، وأرسلت هذه الأشياء إلى بلاد اليونان .

وتزوج الاسكندر فى باكتريا (بلخ) روكسانا أو روشنك وهى ابنة أمير بلخى . ثم اضطر إلى التوجه جنوبا بعد أن حاصره جيش من البدو ، وعبر فى النهاية نهر السند ، وهناك رفض جنده المسير معه بعد أن ظلوا غائبين عن موطنهم فى مقدونيا طوال مدة سبع سنوات ، واضطر الاسكندر إلى الموافقة على العودة ، وأبحر الجند فى نهر السند ، ثم سار بهم عبر الأراضى البور القاحلة الممتدة على طول الخليج الفارسى حتى وصل إلى پرسبوليس .

فلما وصل إلى پازارجاده جذب قبر قورش اهتمامه بعد أن عبث به ، فأصدر الأوامر بجمع محتوياته ، وردها إليه ، وختم هو — بنفسه — الباب بخاتمه ، ليكون فى ذلك ضمان لأن يظل القبر إلى الأبد سليما من الإغارة والعبث ، ولكنه لم يكد ينصرف عن هذا القبر حتى سرقت محتوياته مرة أخرى . وبدأ — فى السوس — ينفذ فكرته التى تهدف إلى إنشاء دولة عالمية تتحد فيها العناصر المقدونية والإيرانية على أساس المساواة بينهما ، وكان صبغ الشرق بالصبغة اليونانية (الهيلينية) قد بدأ فعلا — بإنشاء المستعمرات اليونانية ، وقد أشار الاسكندر نفسه إلى كيفية إقامة اتحاد بين الشعوب حينما تزوج ابنة دارا الثالث الكبرى ؛ وشجع ١٠٫٠٠٠ من جنوده على اتخاذ زوجات إيرانيات ، وفجأة —

وبينما كان عمره أقل من ثلاثة وثلاثين عاما — ابتلى بمرض الحمى فى بابل ، ومات فى عام ٣٢٣ ق.م. ووقعت المساحات الشاسعة التى فتحها بعزمه ومهارته فى أيدى قواد جيشه ، وقسمت سريعا إلى جملة ملكيات كبيرة ، واتخذت الدولة السلوقية — التى احتضنت إيران — مدينة (سلوكية)[1] على الجزء الأسفل من نهر دجلة عاصمة لها فى البداية ، غير أن العاصمة نقلت بعد ذلك إلى أنطاكيا فى سورية ، وأهملت بذلك شؤون إيران ، وتقلصت قبضة السلوقيين عليها وسرعان ما نشأت دويلات محلية مثل دويلة فراتادارا (fratadara) فى إقليم فارس ، وصارت البلاد معدة لظهور حكام جدد .

عهد البارثيين :

البارثيون[2] — الذين يعرفون فى التاريخ أيضا باسم الأرشكيين (Arsacids) نسبة إلى ملوكهم الأول — كانوا فى الأصل قبيلة من قبائل الساكا (Saka) تتنقل فى منطقة تقع شرق بحر قزوين ، ثم سيطرت بعد ذلك على إقليم بارثاوا (Parthava) الذى كان تابعا للدولة الأكمينية .

وقد قام أرشك الأول (Arsaces) (٢٤٨ — ٢٣٦ ق . م .) بثورة ناجحة ضد الحاكم السلوقى ، ودعم أرشك الثانى (٢٤٦ — ٢١١ ق . م .) استقلال المملكة الجديدة ، وقاوم أرشك الثالث (٢١١ — ١٩٠ ق . م .) المحاولات السلوقية لغزوها ، وبسط القائد العظيم ميثراداتس[3] الأول (Mithradates) الحكم البارثى على باكترتا (بلخ) وبارسا (فارس) (parsa) وبابل ، وخوزستان ، وميديا ، ولكنه سمح لحكامها بالاحتفاظ بعروشهم ، وتحطمت — فى تلك الأثناء — القوة السلوقية ، لأنها سحقت بين القوتين الرومانية والبارثية ، وتورط البارثيون — بعد ذلك — فى حروب طويلة ضد السيذيين المقيمين على حدودهم الشرقية ، كما أن الهجرات

---

(١) المراجع : بالقرب من بغداد الحالية .

(٢) المراجع : يعرفون فى الكتب الفارسية باسم « پارتيها » .

(٣) المراجع : يعرفون فى الكتب الفارسية باسم « مهرداد أول » .

العديدة التى قامت بها قبيلة ساكا سببت لهم متاعب جمة ، أنهاها ميثراداتس الثانى [٤] (١٢٣ — ٨٧ ق . م .) الذى عزز القوات البارثية ، ووسع نفوذ البارثيين ؛ فامتد من الهند إلى أرمينية ، وهو الذى اتخذ لقب « ملك الملوك » .

وفى عهد فرايتس الثالث[١] (Phraetes) (٧٠ — ٥٧ ق . م .) بدأت سلسلة من الحروب مع روما على طول الحدود المشتركة ، وظلت هذه الحروب قائمة بصفة متقطعة حوالى ثلاثة قرون ، لأن روما كانت مصممة على التوسع نحو الشرق ، والاستفادة — أيضا — من توسيع نطاق التجارة ، والسيطرة على طريق تجارة الحرير الذى كان طرفه الغربى جميعه فى أيدى البارثيين ، وقد قاسى مارك أنتونى هزيمة نهائية فى موقعة فراءاتا (Phraata) إلى الجنوب من بحيرة أورمية ، ولكن حملة تراجان (Trajan) الأخيرة ضد بارثا قد كللت بالنجاح .

وبعد انتصارات ميثراداتس الثانى عد البارثيون أنفسهم وارثين للأكمينيين فى الناحية السياسة ، فاستبدلوا حضارتهم الضحلة بحضارة راقية مستعارة هى فى أعلى صورها مزيج من الحضارة الايرانية والإغريقية (الهيلينية) وقد سمى أحد الملوك نفسه فيلهيلين (أى محب للاغريق) ، واختيرت الأساليب اليونانية فى الحياة ، كما اختيرت اللغة اليونانية — فى البداية — لغة رسمية .

وقد أنشئت — فعلا — أغلب المدن البارثية ؛ بما فيها طيسفون [٢] العاصمة ، فيما بين النهرين ، وبذلك صارت ايران الأصلية تقع خارج الممر الرئيسى للنشاط التجارى والفنى .

وكان البارثيون يتكلمون لغة فارسية وسيطة ، كانت قريبة فى تركيبها من اللغة المستعملة فى نهاية العصر الأكمينى ، ويكتبونها بخط آرامى يسمى الخط البهلوى ، ولا زالت بين أيدينا — من أمثلته — نقوش طويلة منحوتة

---

(١) المراجع : يعرف فى الكتب الفارسية باسم « مهرداد دوم » أى مهرداد الثانى .
(٢) المراجع : يعرف فى الكتب الفارسية باسم « فرهاد سوم » أى فرهاد الثالث .
(٣) المراجع : تعرف فى العربية باسم المدائن .

فى الصخر ، وعدد من النصوص البهلوية المكتوبة ، ولكن عيوب هذه الحروف البدائية تجعل قراءة ما كتب بها صعبة للغاية .

ويبدو أن البارثيين قد انحرفوا عن الأساليب المتأثرة بالهيلينية فى التفكير منذ القرن الأول الميلادى ، والدليل على اتخاذهم هذا الاتجاه الجديد اختيارهم الديانة المزدية ديانة رسمية للدولة وبذلك اكتسب المجوس شيئا من القوة والعزة .

وقد بذلت أولى المحاولات لجمع التقاليد الدينية وتنسيقها فى المدة الواقعة بين عامى ٥٠ و٧٧ م ؛ كما أعد أول تفسير للأفستا بأمر من الملك البارثى ، ومع ذلك ، فإن تسامح البارثيين نحو جميع الأديان سمح للمسيحية بالانتشار فى الجزء الغربى من الدولة فى القرن الثانى الميلادى .

ولم يكن الفن المعمارى البارثى أصيلا أو هاما ، وتوجد جميع الآثار المعمارية المتبقية عن ذلك العصر غربى بلاد فارس الأصلية ، وهى تعكس صورة التأثيرات ذات الصبغة الهلينية ، وتأثيرات بلاد ما بين النهرين ، مع مزجهما بأساليب الفن المحلى .

والآثار الباقية فوق سطح الأرض ، أو الأطلال المكتشفة ما زالت قائمة فى دورا يوروبوس (Dura — Europos) الواقعة على شاطئ نهر الفرات ، وفى هاترا (Hatra) وسلوكية (Seleucia) وآشور ، ونيبور Nippur ووارقة Warqa فى بلاد ما بين النهرين ، وفى فراءاتا داخل إيران . وتشتمل هذه الآثار على قصور ومنازل وأبنية دينية ، وقبور مشيدة من الآجر والأحجار ، والعنصر الوحيد الجدير بالوصف بين هذه الأبنية هو : الـ « ليوان » أو الإيوان ، وهو العنصر الذى صار علامة مميزة مهمة للفن فى إيران فى العصور الأخيرة ، وهو عبارة عن صالة مستطيلة فى صورة قبو ، له واجهة مفتوحة ، ومؤخرة مغلقة بواسطة حائط .

وتمثل الإيوانات البارثية والأبنية الأخرى المقبوة طور انتقال من البنايات ذات العمادات والأسقف — التى كانت سائدة فى عصر الأكمينيين

والسلوقيين — إلى البنايات ذات القبو التى سادت فى العصور التالية لهم

وكان الفن البارثى أكثر تحرراً من فن المعمار، ولذلك فإن اصطلاح «الفن البارثى» ليس له معنى دقيق محدد، والأشياء التى تخلفت عن هذا العصر ووجدت فى جهات مختلفة لا يربطها عامل مشترك. فمثلا، توجد فى متحف طهران رؤوس بشرية عديدة منحوتة فى الحجر واحدة منها هيلينية فى أسلوبها تماما، وواحدة بوذية قطعا، والرؤوس الأخرى إغريقية باكترية؛ ومن الجائز أن الفنانين المهرة قد أحضروها إلى المدن المهمة فى بارثيا من جميع أرجاء الدولة، كما كانت الحالة فى العصر الأكمينى. وعلى العموم، فإن الفن فى هذا العصر كان يستعمل الأساليب الهيلينية بقطع النظر عن عناصرها الأصلية، ودون محاولة لتقليد هذه الأساليب الغربية، وخلق أسلوب جديد مبتكر.

وقد بدأ الجص — وهو المادة التى تطورت كثيرا وراج استعمالها فى إيران فى العصور المتأخرة — يستعمل على المبانى فى صورة أفاريز منقوشة بنقوش هندسية، أو على صورة الزهور؛ كما راج استعمال خليط من الطين والرمل فى صناعة التوابيت والتماثيل الصغيرة المستعملة فى الأغراض الدينية، وتعد الأوانى الفخارية الملونة باللون الأخضر المصقول، من الأعمال التى تفوقت على مثيلاتها فى العصور المتأخرة؛ أما النقوش الحجرية المثبتة على البناء فتعد تقليدا مباشرا للنماذج الهيلينية.

وقد بقيت لنا الرسوم المنقوشة على الجدران، ودرس ما وجد منها فى دورا — يوروبوس بالتفصيل، كما درست النقوش التى وجدت فى «كوه خواجه» فى سجستان، وهى إغريقية — باكترية فى أسلوبها، ومن الواضح أن تاريخها يرجع إلى القرن الأول الميلادى.

العصر الساسانى :

دبر أردشير — فى حوالى ٢١١ م — ثورة فى إقليم فارس، وفى سنة ٢٢٤ م، قتلت قواته آخر ملك بارثى فى القتال الذى دار فى خوزستان (Susiana)؛ وسرعان ما سيطر أردشير على جميع إيران ما عدا ولايتى أرمينية

وبلخ ، ويبدو أن تسمية دولته الجديدة بالساسانية مشتقة من لقب فارسى قديم هو ، ساسان « بمعنى القواد » ، ولو أنه قد انقلب — أخيرا — فصار اسما للأسرة .

وقد ربط الساسانيون سلسلة نسبهم بالاكمينيين عن طريق سلسلة ملوك الفراتادارا (Fratadara) الذين ظلوا مستقلين إلى أن دخل إقليم فارس أوپارس تحت الحكم البارثى ، ثم ضربوا بعد ذلك عملة فى اصطخر — بالقرب من پرسبوليس — إلى عهد أردشير ؛ وكان أردشير نفسه حفيد ساسان الذى كان موبذا رفيع الشأن فى معبد أناهيتا باصطخر .

وجعل أردشير دين مزدا (الزردشتيه) (Mazdaism) دينا رسميا للدولة ، وسرعان ما اشتبك فى نزاع مباشر مع روما . وقد استمرت الحروب المدمرة مع روما ثم مع بيزنطة — بعد ذلك — طوال العهد الساسانى جميعه ، وكانت قوى الشرق والغرب متعادلة تقريبا ، رغم أن الجولة الأولى من الحرب قد كسبها الساسانيون بهزيمتهم للاسكندر سفيروس (Alexander Severus) .

وقد أسر شابور الأول ابن أردشير (٢٤١ — ٢٧١ م) — وهو ثانى الملوك الثلاثة الكبار فى هذه الدولة — الامبراطور فاليريان (Valerian) فى أثناء الحرب ، وأخذه أسيرا حتى توفى عنده ، وكانت أرمينية هى السبب الرئيسى للنزاع ، وقد تبادلها كل من الطرفين مرات عديدة فى أثناء حكم هذه الدولة ، والدول التالية لها .

وقد حكم بضعة وأربعون ملكا ساسانيا ، وكان نرسى (٢٩٣ — ٣٠٢) أقل توفيقا فى حروبه ضد روما ، فأصبح نهر دجلة — فى أثناء حكمه — حدا ثابتا بين الشرق والغرب .

وولى شابور الثانى ابن حفيد حفيد أردشير العرش فى ٣١٠ م . وقد اشتبك فى أثناء حكمه الطويل — الذى استغرق ٦٩ سنة — فى ثلاث حروب مع روما ، وبعد وفاته اشتعلت نيران المنازعات الداخلية — حول سلطة الملك — بين الملوك والأشراف ورجال الدين ؛ فأعدم ثلاثة من الملوك على أيدى

الأشراف ، وأصبح الملوك التالون — فى خلال مدة استغرقت قرنا تقريبا — يختارون من الأسرة الساسانية بواسطة رجال الدين ، وكبار الاقطاعيين .

وقد أعاد خسرو الأول (٥٣١ — ٥٧٩ م) أعظم ملك فى هذه الدولة — وكان رعاياه يلقبونه بالملك العادل — سلطة الملك إلى حالتها كاملة ، وقسم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية ، وفرض ضريبة محددة على الأراضى بعد ما مسحت جميع أراضى الدولة ونفذت مشاريع الرى ، وظفرت الزراعة بالاهتمام والعناية ، ونعمت البلاد برفاهية حقيقية .

كما شجع خسرو التعليم ، وكان هو نفسه قادرا على قراءة اليونانية ، فأمر بترجمة كتب من اليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية ، وجمعت القصص الخرافية ، ونظر إلى المسيحية نظرة تسامح .

وقد انتصر خسرو الثانى (٥٨٩ — ٦٢٨ م) على بيزنطة فى البداية ، ولكن الامبراطور هرقل (Heraclius) لم يلبث أن أوقع به هزيمة ساحقة — فى النهاية — فى موقعة نينوى فى سنة ٦٢٧ م ، فأصبح الملك الساسانى فى فوضى شاملة .

ثم قاوم يزدجرد الثالث (٦٣٢—٦٥١م ، ١١—٣١هـ) مد الاسلام المرتفع دون جدوى ؛ وأمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته هاربا مطاردا .

وقد شهد العصر الساسانى إحياء القومية الإيرانية مرة ثانية ، فكانت إيران قوية ، غنية بنفسها ، غير محتاجة إلى الاتصالات والتأثيرات الأجنبية .

وتطلبت جلالة « ملك الملوك » — وهى حق مستمد مباشرة من آهورامزادا — ألا يكون للملك أى اختلاط فعلى برعاياه .

وكان الاستقرار الداخلى الملحوظ فى الدولة نتيجة للإدارة القوية المركزة جداً فى أيدى مجموعة من الوزراء ، وهيئة كبيرة من الكتاب وكاتمى السر ، وكانت الخزانة الملكية تتولى إدارة الجيش ودفع مرتبات جنوده .

وكان الشعب مقسما إلى أربع جماعات هى رجال الدين ، ورجال الجيش ، والموظفون ، والعوام وهم يشملون الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف .

وكان أفراد الجماعات الثلاث الأولى يكونون طبقة الأشراف ، وهى مقسمة إلى أربع درجات لكل واحدة منها شعارها وألقابها الخاصة بها .

وكانت أعلى رتبة هى رتبة « الشهر دار » وهى الخاصة بحكام الأقاليم فى الدولة الساسانية ، وكان رجال الجيش يجندون — بكثرة — من بين أفراد الدرجة الرابعة من هؤلاء الأشراف .

وكانت عاصمة الدولة هى — بالطبع — مدينة شاپور فى إقليم فارس ، بينما كانت تقع مدينتان من المدن الثلاث الرئيسية فى الدولة وهما المدائن وجندى شاپور خارج حدود هذا الإقليم الأصلى للدولة .

وظلت الفارسية الوسيطة — المكتوبة بحروف بهلوية معقدة مضطربة — لغة العصر الساساني ؛ غير أن هذه اللغة لم تلبث أن فقدت جزءاً كبيراً من تعقيداتها النحوية ، وأخذت تقترب من صورتها الأخيرة التى تسمى الفارسية الحديثة — أو فارسى — .

ومن الكتابات غير الدينية المؤلفة بها كتاب الأعمال العظيمة (كارنامه) وكتاب الرتب ، وكتاب الملوك الضائع ، وكتاب أراضى إيران ، وبعض الترجمات — مثل ترجمة حكايات كليلة ودمنة — ولا زالت بعض الكتب الضائعة توجد فى ترجمات عربية .

وقد كتبت الأفستا (الأبستاق) مرات عديدة فى أثناء هذا العصر ، وسجلها شاپور الأول بخط خاص يعرف باسم خط الأفستا ، ذكروا عنه أنه نص محقق يعتمد عليه ، وأعد خسرو الأول — فى أثناء حكمه — تفسيراً جديداً للنص المذكور .

وظلت المزدية الديانة الرسمية القوية خلال هذا العصر ، فكان هناك رئيس أعلى للدين ، يتبعه عدد كبير جدا من الكهنة يقيم موبدان منهم فى كل مدينة ، وكان الأساس الذى يقوم عليه تنظيم المعابد هو النار المقدسة ، فكان فى كل قرية نارها الخاصة بها ، وكانت توجد — فى كل ناحية واسعة — نار تسمى « وهرام » (Vahram) وكانت توجد ثلاث نيران وطنية عظمى .

وبعدت الديانة — كما جمعت فى الأفستا — عن تعاليم زردشت الروحية والأخلاقية، وسادتها الطقوس الدينية، ومالت ميلا عظيما إلى ضم إلهى الشمس والنار مع آهورا مزدا بحيث نشأ منهم ثالوث جديد .

وقد شقت الأديان الأخرى طريقها قدما داخل الدولة ؛ فقد دعا مانى لدينه — فى عهد شابور الأول — فى المدائن، وعرض خليطا من الزردشتية والنصرانية واليهودية فى صورة نظرية تقوم على الحاجة الملحة إلى تحرير الروح من القيود المادية، وقد سمح له بتبليغ دعوته فى عهدى شابور الأول وهرمزد الأول، ولكن بهرام الأول سلمه — فى عام ٢٧٦ م — إلى رجال الدين الزردشتى، فحكموا عليه بالإعدام .

وقد دعا مزدك — وهو مواطن من خراسان — إلى ديانة أخلاقية، تشتمل على كل من العناصر الزردشتية، والتعاليم الغملية؛ لتجنب العنف، واتباع النباتية، والشيوعية . وقد عضد الملك قباد هذه الديانة الجديدة — فى البداية — واعتبرها حائلا معقولا ضد ازدياد نفوذ رجال الدين والأشراف، ولكن هذا المتنبى وأتباعه لم يلبثوا أن قتلوا فى عام ٥٢٨ م، ورغم هذا فإن الديانة المزدكية بقيت حتى العصور الإسلامية . وكان المسيحيون — غالباً — أكثر تعرضا للاضطهاد العنيف فى القرون الأولى من العصر الساسانى، بسبب ارتباط ديانتهم — فى الأصل — بالدولة الرومانية المعادية، وبعد انتهاء القرن الخامس ؛ صار المسيحيون المقيمون فى الدولة أعضاء فى الكنيسة النسطورية الشرقية، فعوملوا بتسامح متزايد .

والفن المعمارى — فى العصر الساسانى — ممثل فى القصور والمساكن، ومعابد النار، والقلاع والخزانات، والسدود والجسور، وتخطيط المدن، والأشياء الأثرية الخاصة الأخرى، وقد بقى عدد كبير من هذه المبانى فى حالة حسنة، ولكن مشكلة ترتيبها تاريخيا — خلال هذا العصر — لم تحل بعد .

وتوجد بقايا أبنية القصور فى فيروز آباد، وشابور، وسروستان فى اقليم فارس، وفى المدائن على الشاطئ الأسفل لنهر دجلة، وفى قصر شيرين على الحدود الحالية بين إيران والعراق .

ومن المرجح أن قصر فيروز آباد بنى فى عهد أردشير ، فى صورة بناء مستطيل على قطعة أرض عرضها ١٨٠ قدم ، وطولها أكثر من ٣٠٠ قدم ، ويوجد فى وسط الواجهة إيوان كبير يؤدى إلى حجرة العرش المقبوة ، وتوجد — خلف هذه الحجرة — ساحة داخلية محاطة بحجرات السكن ، وجميع هذه الحجرات مغطاة إما بقباب ، أو بسراديب .

والعلامة المميزة لقصر المدائن هى الإيوان الكبير المقبو المسمى « طاق خسرو » أو طاق كسرى ؛ وهو بناء يرتفع ٩٠ قدما ، ويبلغ عرضه ٧٥ قدما ، وطوله ١٥٠ قدم . ومن المرجح أنه بنى فى عصر شابور الأول ، وكان الحجرة الرسمية التى تستعمل فى حفلات الاستقبال الملكية .

وتوجد على واجهة حيطانه المجنحة عقود مرتفعة فى أسلوب غير منظم ، تشبه أبنية الواجهات الهيلينية ، وقد حاول العرب — عبثا — أن يهدموه بعد ذلك ، كما حاول البناءون — فى العصور الإسلامية — أن يبنوا مبانى أعلى منه ليحجبوا شهرته .

ويوجد قصر محفوظ جيدا — فى سروستان — على بعد ستين ميلا إلى الجنوب الشرقى من شيراز ؛ ومن المحتمل أنه مبنى فى القرن الخامس . ويختلف تصميم بنائه عن تصميم قصر فيروز آباد ؛ حيث توجد فيه حجرات صغيرة وحجرات كبيرة ، وعدد من المداخل ، وتدل الأطلال المجاورة الباقية على أن القصر الرئيسى كان محاطا بالحدائق ، وبأبنية أخرى .

وفى قصر شيرين ؛ توجد بقايا بناء ضخم يغطى مساحة قدرها ½ ميل عرضا و½ ميل طولا . ويرتفع القصر الرئيسى عن سطح الأرض على حجرات فى شكل سراديب مقبية تدعو إلى الدهشة والتعجب ، ويرجع تاريخ هذا البناء إلى نهاية العصر الساسانى تقريبا .

وفى السنوات الأخيرة ، اكتشف كثير من بيوت النار ، ومن المرجح أن النار المقدسة حفظت — فى بعضها — فى الحجرة الرئيسية ، وأنها كانت تشتعل فى الهواء الطلق فى المعابد التى تتوج التلال المرتفعة فترى على مسافة أميال

عديدة . وكانت الفكرة الأساسية التي تبنى عليها بيوت النار هي حجره مربعة متوجة بقبة ، وكان لها — عادة — باب واسع مقبو يخترق كل حائط ، سواء أكانت الحجرة وحدة منعزلة أم محاطة بدهليز ، وقد نقل طابع هذه الفكرة في العصر الإسلامي على أنه بناء ذو أربعة طاقات « جهار طاق » ، وتنبثق القبة التي تغطي الحجرة من الأقواس الأربعة التي تصل زوايا الأركان .

ومن الأشياء الجديرة بالذكر أن العالميين الروماني والبيزنطي ، قد نشرا طريقة المثلث البارز والأشكال الكروية لرفع قبة فوق بناء مربع ، ولكن العالم الإسلامي استمر في استعمال طريقة الأقواس إلى الوقت الحاضر .

وكانت أدوات البناء في ذلك العصر هي الأحجار والآجر ، وكانت أسطح الجدران تغطى بالملاط ، وقد استعملت في القصور التي اكتشفت في دامغان زينات الملاط البارزة على نطاق واسع .

ويبين فن المعمار والفنون الجميلة الأخرى — بوضوح — مقاومة الفنون القوية للتأثيرات الهيلينية القديمة ، بل ويقوم دليلا على وجود جهد كبير مدروس لإحياء النماذج الوطنية التقليدية . كما وجد — في ذلك العصر أيضا — تهذيب واع للنماذج والوحدات الزخرفية ، وقد استمرت مقاومة التأثيرات الغربية بعد الفتوحات العربية ، وكان من نتيجتها النهائية إيجاد فجوة فنية وحضارية كبيرة بين الشرق والغرب .

وكان طابع الفن الخاص بذلك العصر هو نحت وحدات زخرفية بارزة كبيرة على صفحات الصخور — غالبا — بالقرب من الأحواض التي تغذيها الينابيع والعيون .

ويوجد حوالي عشرين نحتا ، أغلبها في فارس ، وهي تحمل علامات تشير إلى الملوك وهم منتصرون على أعدائهم المختلفين ، وإلى تنصيب الملك بواسطة آهورامزدا الذي يمده بالخاتم والصولجان . وهذه النحوت متناسقة الأجزاء ، وتعرض فيها الصور من منظر جانبي للوجه ، ويضحي فيها بالصورة الطبيعية للشيء ، ولا يلتزم فيها إلا أداء الناحية الرسمية والتذكارية . والنحوت القائمة

على الصخور قديمة فى تاريخها ، بينما يرجع تاريخ النحوت التى فى كهف « طاق بوستان » — بالقرب من كرمانشاه — إلى نهاية العصر الساسانى فى أغلب الظن .

ومن الأشياء المشهورة جدا الأطباق الفضية الفخمة والسلاطين ، ويوجد — الآن — كثير منها فى متحف هرميتاج (Hermitage) بروسيا ، ويرى الملك فى بعضها جالسا على عرشه وهو يعقد استقبالا ملكيا ؛ أو وهو يتمتع بملذات الصيد ، وترى — فى بعضها الآخر — مناظر القتال ، وتنصيب الملك ، والآلهة ، والحيوانات القوية وهى فى عراك دائم ، والطيور الجميلة الوادعة .

وبقيت الأوانى والأباريق المصنوعة من البرونز بكميات كبيرة أيضا ، ومن أشهرها مواقد البخور ، وهى على شكل البط ، أو غيره من الطيور .

وبقى — إلى الآن — بعض الأقمشة الساسانية الفخمة فى المتاحف والمجموعات الخاصة ، ولكن لم يتضح بعد أى قطع من هذه المجموعة مصنوع فى إيران ، وأيها مصنوع فى البلاد الواقعة على طول السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط .

والأوانى الفخارية التابعة لهذا العصر ليست جميلة تماما ؛ وطابعها العام أنها مصقولة ، وعليها نماذج زخرفية بارزة قليلا . وتتكون الزينات الملاطية — الموضوعة فوق أوجه المبانى — من قوالب بارزة ، أو صفحات مزخرفة بأشكال الزهور أو الحيوانات ، أو بصور الحيوانات المجسمة .

الفتح العربى لإيران :

فى أوائل القرن السابع ؛ استولى خسرو الثانى على دمشق والقدس ، ثم تقدم حتى اقترب من أبواب القسطنطينية وبعد ذلك انحسر المد الإيرانى ، وتحرك الامبراطور البيزنطى هرقل واجتاز ما بين النهرين حتى وصل إلى المدائن ، وانتهى الأمر بأن أمضت إيران وبيزنطة معاهدة للسلام بعد أن أنهكهما التعب .

وفى تلك الأثناء ؛ جاء العرب ، فغزوا ايران ، ونشروا بدخولهم فيها الدين الإسلامى ، وتعرف القرون التى مرت منذ الفتح العربى إلى الوقت الحاضر — بصفة عامة — بالعصر الإسلامى فى ايران ، وتكاد مدته تتعادل مع عدد السنوات التى تقع بين قيام قورش ونهاية الدولة الساسانية .

وقد كانت بلاد العرب — دائما — موطنا للبدو الرحل ، وهم عنصر سامى يعادى الغزو والتأثيرات الأجنبية . وفى السنوات الأولى من القرن السابع ؛ كانت شبه الجزيرة العربية هادئة ، وكانت مكة والمدينة مدينتين صغيرتين تقتصر شهرتهما على مجرد وقوعهما على الطريق الرئيسى لسير القوافل ؛ كما كانت مكة — منذ وقت طويل — مركزا لعبادة الأصنام ، ومكانا للحج ، وفى هذا الموقع الهادئ ظهر النبي محمد — الذى ولد فى عام ٥٧٠ — ، ولم تتضح رسالته العظيمة إلى أن بلغ سن الأربعين ، وحينذاك أوحى اليه القرآن وبدأت دعوته تتقدم ببطء ، ثم قام بهجرته من مكة إلى المدينة فى عام ٦٢٢ م (١ هـ) ، وهو التاريخ الذى صار بداية للتاريخ الإسلامى (الهجرى) ، وظفر بسيطرة كاملة على شبه الجزيرة العربية قبل وفاته — فى عام ٦٣٢ م (١١ هـ) — بسنوات قليلة .

وأصبح أبو بكر صديقه الوفى المختار ، وأسبق من آمن به من الرجال ، أول خليفة على المسلمين ، فوجه سلسلة من الحملات العنيفة إلى ما بين النهرين وسورية ، فأصابت نجاحا كبيرا ، بحيث اشتبك البدو المحاربون — سريعا — بالقوات الرئيسية للبيزنطيين والساسانيين ، وهزم العرب هرقل فى فلسطين فى عام ٦٣٤ م (١٣ هـ) ، فلما كان عام ٦٣٦ م (١٥ هـ) هزم العرب جيشا ساسانيا قويا قوامه ١٢٠,٠٠٠ جندى فى موقعة القادسية التى استغرقت أربعة أيام ، وسقطت المدائن فى أيدى العرب ، فانتشروا فى الهضبة الايرانية . وفى عام ٦٤١ م (٢١ هـ) استأصلوا جيشا ساسانيا ضخما آخر — استئصالا تاما — فى موقعة نهاوند ، وقد وضعت هذه الموقعة نهاية للعصر الساسانى الطويل ، وأسقط العرب الحكومات التى كانت فى حالة من الفساد والانهيار ، وأوجدوا

ثورة اجتماعية ودينية على أساس الأمل الذى بشروا به الكتل البشرية الضخمة فى إقامة الحياة على أساس من المساواة التامة والمعاملة الحسنة ؛ ومن الحقائق الثابتة أن العرب لم يقوموا بمحاولة جدية لإرغام الناس جملة على اعتناق الدين الاسلامى ، واكتفوا بفرض الجزية على غير المسلمين .

— وانتشر الفتح فى إيران مدفوعا بوعود الخليفة عثمان بمنح حكومة خراسان الغنية لأول قائد من قواده يستطيع الوصول إلى هذا الإقليم ، وفى عام ٦٥٢ م (٣٢ هـ) هزمت الجيوش الايرانية فى خوارزم — على شاطئ نهر جيحون — ، وفى خلال سنوات قليلة ، وقعت الأراضى الآسيوية البعيدة فى أيدى المسلمين ، وهاجرت القبائل العربية إلى خراسان وأقامت هناك ، وكان القائد الشهير قتيبة — الذى تولى فتح المنطقة من ٧٠٤ إلى ٧١٥ م — (٨٥ — ٩٧ هـ) متحمسا لنشر الدين الاسلامى ، فأسكن العرب فى كل منزل من منازل المدن المفتوحة ، وبنى مسجدا كبيرا فى بخارى فى مكان بيت من بيوت النار .

وخضعت جميع الأراضى المفتوحة لنفوذ الأمويين — المقيمين فى المدينة أو فى دمشق — خضوعا تاما ، لمدة تزيد على قرن من الزمان بعد ظهور الإسلام[1] ، وقسمت البلاد إلى أقاليم ، عين على كل منها حاكم عسكرى (وال) ، ورئيس لجباة الضرائب فى أهم مدينة من كل إقليم ، وتركت جميع الأعمال المتعلقة بتنظيم الحكم والإدارة ، خصوصا عملية جمع الضرائب المعقدة ، فى أيدى الموظفين الذين كانوا — من قبل — يعملون فى خدمة الحكومات التى أطاح بها العرب ، واحتفظ — فى مابين النهرين (العراق) — بسجلين للضرائب ، أحدهما باللغة العربية للحكام الجدد من العرب ، والآخر بالفارسية للسكان الأصليين ، وكانت صعوبة المواصلات معناها أن الولايات البعيدة جدا ، لم تكن خاضعة تماما — لسيطرة الحكومة المركزية ، وكذلك لم تعامل

(١) المراجع : تقتضى الدقة أن يقال إن الأمويين حكموا أقل من قرن من الزمان لأن دولتهم استمرت من سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣٢ هـ .

إيران بقسوة شديدة ، ومع ذلك فإن مجيء الإسلام أوجد تغيرات جوهرية فى النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، فأبدلت الأفكار الإيرانية العتيقة عن الحق المقدس والحكم المطلق الاستبدادى ، بروح ديمقراطية دولية مستمدة من الدين الجديد ، ومن ناحية أخرى طبع تفوق الإيرانيين الحضارى ، وزهوهم بنظمهم مستقبل إيران الإسلامية فى الحضارة والفن بروح تختلف تماما عنها فى أية بلاد إسلامية أخرى .

وفى القرن الثامن الميلادى ، ثارت الإحساسات بقوة ضد الخلفاء الأمويين ، وهزم الخليفة الأموى فى عام ٧٥٠ م (١٣٣ هـ) فى الحرب ، فخلفهم — فى السلطة — سلسلة جديدة من الخلفاء يعرفون باسم العباسيين ، فأنشأوا فى عام ٧٦٣ م (١٤٦ هـ) مدينة مستديرة هى بغداد التى ظلت عاصمة لهم إلى عام ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ؛ حينما أغار المغول عليها ، وأنهوا الدولة العباسية ، وقد ساعد الجنود الإيرانيون فى إسقاط الأمويين ، وحظى الفرس بمراكز عالية فى البلاط الجديد ، فانتشرت فى الدولة الجديدة الملابس والعادات الفارسية .

قيام الدويلات المحلية فى إيران :

أصبح إقليم خراسان — وهو منطقة كانت أوسع كثيرا جدا من الإقليم الحالى الذى يعرف بهذا الاسم — أكثر أجزاء إيران حيوية ونشاطا ، ففى عام ٨٠١ م (١٨٥ هـ) عين طاهر ذو اليمينين — الذى كان قائداً لجيش أحد أبناء الخليفة — هارون الرشيد[١] — حاكما على خراسان بناء على طلبه ، فاتخذ مدينة نيسابور عاصمة له . وقد خلفه فى هذا المنصب ابناه وحفيده وابن حفيده ، وكان كل واحد منهم يدفع للخلفاء — فى بغداد — خراجا سنويا قليلا . وكان حكام هذه الدولة المحلية يعرفون باسم الطاهريين ، وقد امتازوا بحب الكتابة والشعر وحكموا من ٨١٠ إلى ٨٧٣ م (١٩٥ — ٢٦٠ هـ) .

---

(١) يقصد المأمون ، وهو يشير إلى انتصار جيش المأمون بقيادة طاهر على الأمين وقتله ، ثم تولى طاهر أمر خراسان فى عهد المأمون . (المترجم)

وكانت الشخصية القوية التالية التى ظهرت فى إيران ، هى شخصية يعقوب ابن الليث الصفارى وكان نحاسا وقاطعا من قطاع الطرق ، ثم أصبح — فى ٨٦٧ م (٢٥٣ هـ) — سيدا على خراسان وهراة ، فعين واليا على خراسان من قبل الطاهريين ، ولكنه سرعان ما أسقط دويلتهم وبسط نفوذه على كرمان وفارس وإصفهان أيضا ، وتوفى فى عام ٨٧٩ م (٢٦٦ هـ) بعد انهزامه فى محاولة لفتح بغداد نفسها ، فتوجه أخوه عمرو بن الليث إلى إقليم ما وراء النهر ؛ وكان السامانيون قد ظفروا فيه — حديثا — بالسلطة ، ولكنه هزم وأرسل أسيرا إلى بغداد حيث أعدم فى ٩٠٢ م (٢٩٠ هـ) ؛ واحتفظ أعقابه بالحكم طويلا فى سجستان ، وقد حدثت فى هذه السنوات المحدودة للحكم الصفارى حادثة ذات مغزى حضارى مهم ، ألا وهى نظم كاتب[1] يعقوب الشعر بالفارسية لأول مرة بعد الإسلام .

وظفر السامانيون — الذين كانوا ولاة يخضعون للطاهريين — بسيادة تامة على شرقى إيران ، وحكموا هذه المنطقة مائة سنة تقريبا . وقد حكم اسماعيل — مؤسس هذه الدولة وأول شخصية بارزة فيها — من ٨٩٢ إلى ٩٠٧ م ، (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) وكان شخصا كريما ذكيا ، كما كان قائدا مظفرا جدا ، واستطاع فى السنوات الأخيرة الهادئة من حكمه أن يكرس كثيرا من وقته لتعمير عاصمته بخارى ؛ ولا زال قبره — الذى بنى فى ذلك الوقت — قائما هو وغيره من الآثار الأخرى ، وهو فى صورة مكعب تام — طول كل جانب منه ٣٥ قدما ، وتتوجه قبة نصف كروية ، وأسطح الضريح الداخلية والخارجية مزينة تزيينا بديعا ، والحيطان الخارجية مزينة بأربطة من الطوب فى صور مربعات منقوشة كعظام السمكة ، ونماذج من المربعات المفتوحة المتقاطعة .

وقد وصلت الدولة السامانية إلى أقصى قوتها فى عصر نصر بن أحمد — من ٩١٣ إلى ٩٤٣ م (٣٠١ — ٣٣٢ هـ) — فسيطرت على إقليم ما وراء النهر وخراسان وسجستان وجرجان وطبرستان والرى وكرمان ؛ وضم بلاط بخارى

(١) يقصد محمد بن وصيف السجزى . (المترجم)

رجالا من ذوى العلم الغزير كان منهم الفيلسوف المشهور أبو على بن سينا ، المعروف للعالم الغربى باسم « أفيسينا » (Avicenna) ، وفيه ولد الأدب الفارسى الحديث على أيدى الشاعرين الرودكى والدقيقى منشئ الشعر الحماسى وقد أدى السامانيون خدمات جليلة لإثارة روح الوطنية الإيرانية وإحيائها ، ولكن تحولها إلى حكومة إقطاعية أدى إلى ظهور حكام أقوياء، ثم إلى إسقاط الدولة فى النهاية .

وقد ظهر فى إيران — فى خلال القرن التاسع — حكام محليون أقل أهمية ، ففى عام (٩٢٨ م — ٣١٦ هـ) سيطر مرداويج بن زيار على ساحل بحر قزوين ، فى منطقة عرفت — بالتوالى — باسم بلاد الديلم ، وباسم طبرستان ، ولم يعتنق سكان هذه المنطقة الإسلام حتى منتصف القرن التاسع تقريبا . ومن حكام الدول الزيارية : وشمكير أخو مرداويج ، وابناه بهستون وقابوس .

وكان قابوس شاعرا ومؤلفا ، ويعد قبره المشهور فى الركن الجنوبى الشرقى لبحر قزوين أقدم أثر ذى كتابة مؤرخة فى إيران الإسلامية ، وتقرأ الكتابة التى عليه كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . بنيت هذه القلعة بواسطة الأمير ابن الأمير قابوس بن وشمكير وقد أمر ببنائها فى أثناء حياته فى سنة ٣٩٧ القمرية ، الموافقة لسنة ٣٧٥ الشمسية (١٠٠٧ م) » .

والقبر مبنى من الآجر ، وهو عبارة عن أسطوانة كبيرة مغطاة بسقف مخروطى الشكل ؛ والهيكل الدائرى تقطعه عشر حافات بارزة ، وقطر دائرته ٥٦ قدما وسمك الحيطان ١٧ قدما والارتفاع من الأرض حتى رأس المخروط يبلغ ١٦٠ قدم ، وقد أدخل جثمان قابوس — وفقا لرواية الجنابى — فى صندوق زجاجى علق بالسلاسل داخل قبة البرج .

وإقليم الديلم مهم أيضاً لأنه كان مقراً لحكام البويهيين ، فقد عين على ابن بويه حاكما محليا من قبل مرداويج بن زيار ، ولكن عليا وأخويه الحسن وأحمد لم يلبثوا أن سيطروا سريعا على وسط إيران وغربيها .

وفى عام (٩٤٥ م — ٣٣٤ هـ) دخل أحمد بغداد ، ولكنه ترك الخلفاء

العباسيين — الذين منحوا هؤلاء الإخوة مناصب وألقابا فخرية — يتمتعون بسيطرة روحية اسمية .

وأبرز شخصية بين البويهيين هو عضد الدولة — الذى حكم من ٩٤٩ إلى ٩٨٣ م (٣٣٨ — ٣٧٣ هـ) وقد اتخذ الرى وإصفهان عاصمة له . وقد اتجهت الدولة بعد وفاة عضد الدولة نحو الانهيار بخطى سريعة ؛ فانتزع محمود الغزنوى الجزء الغربى منها بينما بقى الجزء الشرقى سليما حتى مجىء السلاجقة .

وقد ارتفع شأن تسعة من أفراد الأسرة الغزنوية الذين حكموا فى الجزء الشرقى من إيران فى تلك الأوقات . وكان البتكين أول حكام هذه السلسلة التركية عبداً اشتراه اسماعيل السامانى ، ثم صار حاكما على خراسان ، وأعلن نفسه سلطانا على غزنة فى حوالى سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) .

وقد أخذ محمود سادس أفراد هذه الأسرة على عاتقه أن يوسع مملكة أسلافه المحدودة ؛ فأسقط السامانيين فى عام ٩٩٩ م (٣٩٠ هـ) ، وابتلع الزياريين ودفع البويهيين إلى غربى الهضبة الإيرانية — فى عام ١٠٢٩ م (٤٢٠ هـ) — لكى يبسط حكمه فوق مهجارا ، وأفغانستان ، وما وراء النهر ، وخراسان ، وطبرستان ، وسجستان ، وجزء من الهند ؛ ولم يبق خارج نفوذه من إيران الأصلية سوى كرمان وفارس . وقد ولد محمود من أبوين جلفين ، ولذلك امتازت حياته الأولى بالشدة والعنف ، ويقال إن البوم تمنى له حياة طويلة لأنه حطم مدنا كثيرة وتركها خرابات مهجورة ، وقد أعدم كثير من رعاياه بتهمة الالحاد وهلك كثير منهم تحت وطأة الضرائب الباهظة ، ولكن حملاته على الهند وضعت فى يده ويد جيشه ثروات طائلة استعملت فى تجميل غزنه ومدن الأقاليم المهمة . وفى عام ١٠١٨م (٤٠٩ هـ) أمر ببناء مسجد من الجرانيت والرخام — وألحق به مدرسة ومكتبة .

وقد توفى محمود فى عام ١٠٣٠ م (٤٢١ هـ) وهو فى سن الستين ، وأنشأ ابنه مسعود ضريحا فخما له . وبقيت ذكرى ذلك السلطان العظيم فى أعلى درجة

من المهابة بحيث أبقى علاء الدين « حارق العالم[١] » على القبر حينما زار غزنه بعد ذلك بمائة عام[٢] .

ويقوم القبر — الآن — فى حجرة خشنة مغطاة بقبة من الطين ، ويوجد منشور مثلث يقوم على قاعدة مستطيلة من الرخام ، نحتت عليه كتابة تعطى التاريخ الدقيق واليوم والساعة التى حدثت فيها وفاة محمود . وتوجد فى القرية نفسها — وعلى بعد ميلين شمالى غزنه — منارتان مبنيتان على أنهما برجان من أبراج النصر ، بطريقة كوكبية وهما غنيتان بالزخارف وبالقرميد ، ويبلغ ارتفاعهما حوالى ١٥٠ قدما ، وتحمل إحداهما اسم السلطان محمود ، بينما تحمل الأخرى اسم حفيده مسعود الثالث .

وقد شمل السلطان محمود بعنايته كل الشعراء والعلماء ، ولكن من المحتمل أنه لم يكن يستهويه حب العلم المحض ، بقدر ما كانت تستهويه الرغبة فى رفع شهرته الشخصية بجعل بلاطه مركزا للنبوغ والأبهة ، فكان جميع العلماء المشهورين يستدعون إلى غزنة ، وكان القليلون هم الذين يجرؤون على الرفض ، وكان : منهم العنصرى الشاعر ، والبيرونى العالم المؤرخ الذى له كتاب مشهور عن تاريخ الأمم القديمة[٣] ، وكتاب صغير عن التنجيم باللغة الفارسية[٤] ، ولكن الفردوسى فاق جميع هؤلاء . وقد التحق بالبلاط — لأول مرة — وهو فى منتصف عمره ؛ وبدأ ينظم ملحمته العظيمة ، شاهنامه أو كتاب الملوك ، وظل ينظم فيها حتى بلغت ٦٠,٠٠٠ بيت من المثنوى المنظوم ، وتشتمل الملحمة على أمجاد أربع دول قديمة ، اثنتان منها خرافيتان ، مأخوذتان من الأساطير الواردة فى الأفستا ، والاثنتان الأخريان هما البارثيون ، والساسانيون . ولكن الملحمة تشتمل على أساطير حتى فى هاتين الدولتين أكثر مما تحتوى على تاريخ دقيق . وتكثر فى هذه الملحمة الطويلة قصص الفروسية والبطولة .

---

(١) المراجع : يعرف فى الكتب الفارسية باسم « علاء الدين جهان سوز » .

(٢) يردد المؤلف هنا وجهة النظر الإيرانية فى السلطان محمود الغزنوى . (المترجم)

(٣) لعله يقصد كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » المترجم .

(٤) لعله يقصد كتاب « التفهيم لأوايل صناعة التنجيم » . المترجم

وكانت مصدر إلهام لكثير من شعراء الفرس المتأخرين ، كما صارت مصدر إلهام لمؤلفين أوروبيين مثل ماتيو أرنولد (Matthew Arnold) الذى أعاد كتابة قصة من أجمل قصص الشاهنامه فى كتابه « سهراب ورستم » .

وقد نسخت الشاهنامه مرارا فى جميع العصور المتأخرة ، وكانت كثير من النسخ مزينة بصور صغيرة (منمنمات) لأشهر المصورين ، وهى منظومة بلغة فارسية قوية خالصة ، تشتمل على كلمات عربية قليلة العدد نسبيا ؛ وقد تغيرت اللغة تغيرا قليلا جدا منذ نظمها قبل تسعة قرون ؛ بحيث تمكن قراءتها بسهولة بواسطة أهل إيران فى الوقت الحاضر . وقد ظلت هذه المنظومة تتلى قرونا عديدة ، ويستطيع آلاف من غير المتعلمين فى الوقت الحاضر أن ينشدوا فقرات طويلة منها . وقد وصل الأدب الفارسى الحديث — فى هذا العصر — إلى كامل نضجه ، ولكن يجب علينا أن ندرك أن كثيرا من المؤلفين الفرس الذين عاشوا فى هذا العصر قد ألفوا كتبهم باللغة العربية ؛ لأن اللغة العربية بهرتهم بأساليبها النحوية المستفيضة التى استساغها العقل الفارسى ، وكانت حروف الهجاء العربية أفضل إليهم بكثير من الحروف البهلوية المعقدة ، ولذلك كان علماء الإيرانيين يعدون اللغة العربية لغتهم الثانية ، ودخلت كثير من الكلمات العربية فى اللغة الفارسية ، وكان من الطبيعى أن تستعمل الحروف العربية — فى ذلك الوقت — لكتابة الفارسية . وكتبت شخصيات معروفة مثل السعدي والغزالى بكل من اللغتين العربية والفارسية ، كما تشرب كثير من المؤلفين الذين كانت اللغة العربية لغتهم الأصلية بالثقافة الفارسية والأفكار الفارسية بحيث تعد تواريخهم وأشعارهم وكتاباتهم الفلسفية والصوفية — فى الحقيقة — أدبا فارسيا ، رغم أنها بلغة عربية .

وفى المدة التى تقع بين ٦٤١و١٠٠٠م (٢١ — ٣٩١ هـ) أخذت إيران تخرج تحويرها الخاص للفن المعمارى الإسلامى ، وكانت الحاجة إلى الصلاة أهم تعاليم الإسلام الأساسية؛ فقد حث القرآن على إقامتها ، وكان مطلوبا من الرجل المسلم المتدين أن يؤدى خمس صلوات دينية فى كل يوم ، ويمكن أن تؤدى الصلاة

فى أى مكان بشرط أن يولى المصلى وجهه شطر مكة ، وكانت صلاة الجماعة تؤدى ظهراً فى يوم الجمعة ، فوجدت الحاجة إلى مكان خاص تؤدى فيه الصلوات ، منذ زمن بعيد ، ومن المعتقد أن منزل الرسول محمد عليه الصلاة والسلام استعمل على أنه المسجد الأول . فلما امتدت الغزوات العربية إلى البلاد البعيدة ، صار من الضرورى إقامة مساجد للجنود ، وكان المسجد فى البداية عبارة عن أى مكان مفتوح يحاط ويغطى بسقف من الغاب بحيث يمكن حمله إذا تحرك الجيش ، وبعد ذلك بقليل ؛ صار المكان المخصص للمسجد يحدد بأربعة سهام تطلق من نقطة فى الوسط ، وبخندق يحفر حول المساحة التى تحددها هذه السهام . وبعد فترة من الزمن ، أنشئت العقود المغطاة (البواكى) حول المكان المفتوح أو حول ساحة المسجد ، وقد استولى العرب على الأبنية القائمة فى البلاد التى فتحوها لاستعمالها كمساجد ، فاستعملت الكنائس فى سورية وفلسطين لهذا الغرض ، كما حول طاق كسرى — فى المدائن — إلى مسجد ، وحينما بدأ المسلمون فى بناء مساجدهم الخاصة الدائمة ، طبقوا الفن المعمارى فى أسلوبه الشائع محليا ، واستفادوا من الصناع المحليين ، وكانت العناصر الرئيسية للمسجد هى ساحة مفتوحة ذات بواكى على جانب أو أكثر من جوانبها ، ومنطقة مغطاة للعبادة يوجد فيها المحراب ، وهو مقام فى وضع يجعل المصلين يتجهون شطر مكة دائما .

وقد أثبتت الآثار الباقية فى إيران من أبنية العصر الساسانى ، والعصور السابقة عليه صلاحها من حيث تصميمها وأسلوب بنائها ، لأن تتخذ مقرا للأبنية الدينية الجديدة ، ويستفاد من الكتب الخطية أن آلافا من الأبنية الجميلة قد أنشئت فى بداية العصر الإسلامى ؛ وقد بقى منها إلى الوقت الحاضر ، عدد قليل لم يكن أكثرها شهرة ، ومن الثابت أيضا أن كثيرا من الأبنية القديمة قد حول إلى مساجد ، ويشير تقرير دقيق مكتوب فى تاريخ مبكر إلى أن قصراً أكمينيا قد حول إلى مسجد .

ومن الآثار الباقية فى إيران — قبل عام ١٠٠٠ م (٣٩١ هـ) — « تاريك خانه » فى دامغان ، وهو مسجد يبدو أنه بنى فى القرن التاسع الميلادى ،

وهو يشتمل على ساحة مربعة ، محاطة بعقود ، يزيد عرضها فى الناحية التى يقع بها المحراب ، والمسجد الجامع فى « نيريز » يغلب على الظن أن تاريخه يرجع إلى القرن العاشر الميلادى ، وقد بنى فى صورة إيوان كبير ، يقوم المحراب فيه فى نهاية ردهته .

ويشبه المسجد الجامع فى نائين — الذى يرجع إلى القرن العاشر الميلادى — مسجد دامغان فى تصميمه ، غير أن له علامات مميزة هى الحيطان ، والأعمدة ، وواجهات المحراب المحلاة بزينات من الملاط فى صورة كتابات عربية ، ونماذج هندسية ، ونماذج من الأزهار منحوتة بعمق ، وما زالت أبراج القبور قائمة فى « رزجت » (Resget) ، و « لازم » (Lajim) على طول ساحل قزوين ، وفى دامغان ؛ فالموجودة فى « رزجت » لها كتابات بالعربية ما عدا السطر الأخير فهو مكتوب بالبهلوية ، وقد أوجدت أبراج القبور نموذجا بقى قرونا عديدة .

ومن الأشياء الفنية التى بقيت حتى الوقت الحاضر ؛ الفخار الذى يوجد بكثرة ، ويبدو أن أسلوب القطع القديمة مستمد من الفخار الصينى المستحضر إلى إيران عبر طرق القوافل الطويلة ، وذلك على سبيل التقليد والمنافسة ، وقد راج — فى هذا العصر — فن صناعة الفخار رواجا ملحوظا ، بحيث صارت صناعة الفخار الفارسية تضارع صناعة الفخار فى أية دولة أخرى ، وفى أى عصر من العصور . ويمكن تمييز عدد من النماذج المختلفة لهذا الفخار ؛ فالفخار المسمى بفخار ما وراء النهر تمثله أطباق مسطحة أو سلاطين مزينة بنماذج هندسية — أو من الأزهار — ذات لون أسود وأرغوانى وأحمر وأخضر وأصفر ، وفخار نيسابور ذو شخصية مستقلة ولكنه يذكر بفخار ما وراء النهر ، فالأطباق مزينة ومصقولة تقليدا للنماذج الصينية ، والسلاطين مزخرفة برسوم خضراء وزرقاء على أرضية بيضاء مصقولة ، وتوجد النماذج القديمة للفخار اللامع وهو الذى تطورت صناعته تطورا كبيرا فى العصور اللاحقة .

والأطباق الفضية الخاصة بهذا العصر مشابهة تماما — من حيث الشكل والفن والمادة المصنوعة منها — للأطباق الفضية فى العصر الساسانى .

وقد بقيت قطع من الأنسجة الدقيقة ، كما بقى فن النحت فى الخشب ممثلا فى الأبواب المزدوجة للمساجد والقبور ، وفى العمادات التى يوضع عليها القرآن ، وفى المنابر التى تقوم إلى جانب المحراب فى المساجد ، كما وجدت قطع كثيرة من نقوش الجدران فى الاكتشافات الأثرية .

العصر السلجوقى :

منذ عصر الدولة الأكمينية ، اعتادت القبائل البدوية التركية والتاتارية والسندية ، الهجرة من وسط آسيا نحو الهضبة الايرانية ، فكانت تعبر نهر جيحون ؛ فاذا صادفتها قوات معادية اضطرت إلى الاتجاه جنوبا . وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ظهرت قبيلة من الأتراك الرحل كانت أكثر قوة مماعداها من القبائل ، وكان محمود الغزنوى قد أقطع أفرادها مقاطعة بالقرب من بخارى ، ثم أجلاهم بعد ذلك إلى خراسان ، فثار زعيمهم طغرل بيك وقادهم لسحق قوة الغزنويين ، ثم شق طريقه — بعدذلك — عبر إيران إلى بغداد ، ففتح الخليفة العباسى له أبوابها فى عام ١٠٥٥ م ، (٤٤٧ هـ) لأن الخلافة العباسية المتدهورة كانت قد فقدت قوتها السابقة منذ مدة طويلة ، وسر الخليفة بمنح طغرل بيك لقب ملك المشرق والمغرب ، ثم رجع طغرل إلى الرى — واتخذها عاصمة له — وأسس دولة السلاجقة التى استطاع فرعها الرئيسى أن يحكم حوالى مائة عام من البوسفور إلى التركستان الصينية ، أما فروعها الصغيرة فقد امتدت سلطتهم إلى مدة أطول من ذلك .

وحينما حل السلاجقة فى وسط ايران وغربها ، كان كثير من أجزائها يحكمه ولاة صغار يمسك بعضهم برقاب بعض ، فأسقط السلاجقة الدويلات المحلية ، ووحدوا آسيا المسلمة ، واعتنقوا الاسلام بحماس عظيم .

وقد صار هذا العصر أحد العصور المهمة فى تاريخ الحضارة الايرانية ، لأن الأتراك البدو الأميين سرعان ما وضعوا الفرس فى المناصب الرئيسية ، وانقلبوا هم أنفسهم إلى رعاة وحماة للعلوم والفنون .

وأعقب طغرل ابن أخيه ألب آرسلان — الذى حكم من ١٠٦٣ إلى ١٠٧٣ م (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ) وقد اتخذ ايرانيا فذا هو نظام الملك وزيرا له — أو رئيسا لوزرائه — وأشعل ألب أرسلان حروبا كثيرة بقدرة حربية لا شك فيها ، فقد اتجه غربا بقوات عظيمة — كما كانت عادة جميع المحاربين الأقوياء فى آسيا — فغزا سورية ، وهزم الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينس . وأسره ، وقد جرح ألب أرسلان جرحا مميتا على يد واحد من أسراه[1] ، وقال قبل وفاته : « بالأمس كنت أقف على جبل راسخ ، وكانت الأرض تهتز من تحتى بسبب ضخامة جيشى ، وكثرة جندى ، فقلت لنفسى : أنا ملك العالم ، ولن يستطيع أحد أن يتغلب على ، ولهذا فقد أسقطنى الله القوى العظيم بيد واحد من أضعف خلقه ، فأنا ألتمس المغفرة منه ، وأندم على تفكيرى هذا . . . » وخلفه ابنه ملكشاه — الذى حكم من ١٠٧٢ إلى ١٠٩٢ م (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) فأنشأ — بعد توليه بسنتين — المرصد الذى اشتغل فيه عمر الخيام وغيره من العلماء بوضع تقويم جديد ، وزين ملكشاه عاصمته إصفهان بعدد من المبانى الجميلة والحدائق ، وشغل السلطان نفسه بالحروب والصيد والحفلات الملكية ، وبقى نظام الملك وزيرا ، واجتمعت فى يديه جميع أزمة الأمور فى الدولة .

والاسم الحقيقى لهذا الوزير الشهير ينسى غالبا ، فقد عرف دائما بلقبه التشريفى « نظام الملك قوام الدين » الذى معناه « منظم الدولة والقائم على أمور الدين » وهو منظم كبير ، استطاع أن يبقى على نظام البلاد الموروثة ، كما استطاع أن يفرض الحضارة الايرانية العالية على السلاجقة ، وقد سجل تجاربه العملية فى رسالة عنوانها : « فن التاريخ وفن الحكم[2] » ، وقام بمجهودات متواصلة لترويج التعليم ، ونشر الدين ، فبنى سلسلة من المدارس سميت بالمدارس النظامية يبدو أنها كانت أولى المنشآت المدنية (غير الدينية) لنشر التعليم فى العصر الاسلامى ؛ وقد أنشئت أولاها فى دمشق فى عام ١٠٦٥ م (٤٥٨ هـ) ونحن نعرف أنه كانت

---

(١) يقصد يوسف الخوارزمى الذى كان قبل أسره قائداً لقلعة برزم فى إقليم ما وراء النهر . (المترجم)

(٢) يقصد كتاب « سياستنامه » الذى ألفه نظام الملك فى عام ٤٨٤ هـ . (المترجم)

هناك مدارس مشابهة لها فى آمل ، ونيسابور ، والموصل ، وهراة ، ومرو ، وبلخ ، وغيرها من المدن .

وكان السلاجقة يذهبون مذهب أهل السنة ، فيتشددون كثيرا مع الشيعة ، وكانت هذه الفرقة الأخيرة قد قويت جدا فى إيران منذ العصر البويهى ، وكانت أهم مقاومة لها تظهر من فرقة الاسماعيلية بقيادة الحسن بن الصباح ؛ وهى الفرقة التى عرفت فى العالم الغربى — باسم السفاكين[1] (Assasins). وقد وزعوا عملاءهم من قلاعهم القوية فى شمالى إيران وفى أقصى الغرب ليثيروا الاضطرابات فى البلاد ، وليقوموا بتنفيذ اغتيالات سياسية ، وكان نظام الملك أحد ضحاياهم .

وقد عجز خلفاء ملكشاه عن الاحتفاظ بتماسك الدولة ، وسرعان ما فقدوا سورية وآسيا الصغرى ، وفضلا عن ذلك فقد استطاع الأتابكة — وهم حكام الأقاليم الأتراك — أن يصلوا إلى درجة من القوة ، بحيث أخذت إيران تتمزق بينهم إلى دويلات شبه مستقلة .

وكان سنجر — الابن الثالث لملكشاه — آخر سلطان من السلاجقة العظام ، وقد كان قبل ذلك ملكا على خراسان مدة اثنين وعشرين عاما قبل اعتلائه العرش فى عام ١١١٨ م (٥١٢ هـ) . وفى أواخر حياته ، بدأت علامات الاضطرابات الداخلية تهم الدولة نظرا للتهديدات المستمرة من الخارج ، فقد جاءت قبيلة القره خطاى — وهى قبيلة تركية مغولية — من أقصى الصين ، وهزمت سنجر فى عام ١١٤١ م (٥٣٦ هـ) واحتلت إقليم ما وراء النهر . وفى عام ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) ، أسر الأتراك الغز سنجر فظل أسيرا لديهم حوالى سنتين[2] ، واحتلت نيسابور وأحرقت قبيل وفاته .

وقد دفن سنجر فى مرو — محل اقامته المحبب — فى مقبرة بنيت فى أثناء حياته ؛ وكانت فى الأصل متصلة بمسجد تلاشى الآن ، وبناء المقبرة عبارة عن

---

(١) المراجع : تطورت هذه الكلمة حتى عرفوا باسم « الحشاشين » .

(٢) المرجع أن سنجر ظل أسيراً لدى الغز و ثلاث سنوات . (المترجم)

مربع كبير طول كل ضلع من أضلاعه الخارجية ٧٧ قدما ، وسمك حيطانه ١٩ قدما ، وقد توجت الحيطان الأربعة بأروقة تقوم عليها جوانب القبة الكبيرة ، وواجهات الحيطان الداخلية مغطاة بملاط عادى ، أما كهوف الأروقة فمغطاة بملاط مزين عليه خطوط بارزة تشبه نماذج القوالب ، وقد كتبت عليه كتابات لطيفة فوق أرضية مزخرفة بنماذج من الزهور .

وبعد موت سنجر ، استولى سلاطين الدولة الخوارزمية على أراضى الدولة السلجوقية بسرعة . وكان اتسز أول سلاطين الدولة الخوارزمية ؛ وقد حكم فيما بين سنة ١١٢٨ وسنة ١١٥٦ م (٥٢٣ — ٥٥١ هـ) ؛ وكان فى الأصل حاكما على خوارزم (خيوه) من قبل السلاجقة ، ولكنه كان — فى الحقيقة — مستقلا عن سيطرتهم ، وقد بسط ابن حفيده السلطان محمد ١٢٠٠ — ١٢٢٠ م (٥٩٧ — ٦١٧ هـ) الدولة الخوارزمية فشملت جميع إيران ، وكان على وشك التقدم إلى بغداد عند ظهور المغول .

والعصر السلجوقى مشهور بكثرة عدد شعرائه وفلاسفته وعلمائه الذين كان أشهرهم الغزالى الفيلسوف المتصوف الشاعر ، الذى أدخل فى التصوف الاسلامى العواطف الصوفية المسيحية القائمة على فكرة الحب المطلق واستطاع — فى الوقت نفسه — أن يجعل التصوف داخل نطاق العقيدة الإسلامية السنية ، وبذلك أثر تأثيرا كبيرا فى الفكر الإيرانى فى العصور التالية .

وأعظم شعراء الصوفية هو فريد الدين العطار ؛ وتشتمل مؤلفاته على تاريخ قيم لحياة الأولياء والمتصوفة[1] ، وكتاب « منطق الطير » وفيه تبحث الأرواح — وهى فى هيئة طيور — عن الله . ومن أهم آثار ذلك العصر آثار نظامى الكنجوى التى تعرف — فى مجموعها — باسم الخمسة ، وتشمل المنظومات الرومانتيكية الأربع : « خسرو وشيرين » و « ليلى ومجنون » و « العرائس السبع » (هفت بيكر) وحكاياتها عن بهرام كور ، و « كتاب الاسكندر » (اسكندر نامه) وهو القصص الخرافية المتعلقة بالإسكندر الأكبر ، والمنظومة

---

(١) يقصد المؤلف كتاب « تذكرة الأولياء » للعطار . (المترجم)

الصوفية « مخزن الأسرار » . أما كتاب المقالات الأربع « جهار مقاله » لنظامى العروضى فعبارة عن مجموعة من القصص والحكايات عن الشخصيات الموجهة فى ذلك العصر .

وكان « ناصر خسرو » شاعرا مشهورا ورحالة ، وقد ترك سجلا ممتعا قيما عن رحلاته(١) . وعاش عمر الخيام تحت رعاية ألب آرسلان وملكشاه وكان فيلسوفا ورياضيا ومنجما ، فضلا عن أنه كان شاعرا صبغت أفكاره الصوفية بالشك والتشاؤم(٢) .

ونشطت حركة البناء نشاطا كبيرا فى أثناء العصر السلجوقى ، وينسب جزء كبير من المساجد الإيرانية إلى هذا العصر ، وقد أدخلت المساجد — حينذاك — فكرة الساحة المفتوحة التى فى وسط البناء ، تحيط بها عقود مسقوفة ، وإيوان على كل جانب من جوانب الساحة وردهات للصلاة تقع على جانبي كل إيوان . وقد بنى المسجد الصغير الموجود فى زواره على هذا الأساس فى صورة بناء منفرد فى حوالى ١١٣٥ م (٥٣٠ هـ) ، ولكن أكثر المساجد التى أنشئت فى ذلك العصر توجد فيها الحجرة المربعة التقليدية المتوجة بقبة . أما الإيوانات والأقواس فقد أضيفت فى زمن متأخر ، لتكملة البناء ، وكانت الحجرات المربعة المقببة مستعملة — أيضا — للمزارات والقبور ، وقد وجدت نماذج مثالية لهذا النحو فى « سنك بست » بالقرب من مشهد وفى المسجد الكبير وفى مسجد حيدريه بقزوين ، وفى مسجد كلبايكان المنشأ فى عهد السلطان محمد فى بارسيان (Barsian) .

وتوجد فى الحجرة المقبوة بمسجد قزوين كتابة ممتعة تفصل الترتيبات التى عملت لتمويل صيانته ؛ وهى كالآتى : « قد أوقفت على هذا البناء والمدرسة الملتحقة به ثلاثة أرباع قرية هوازآباد (Hovasabad) وسبعة عشر قيراطا من قرية جويران (Juyran) ، وجميع البستان الموجود على طريق الجوسق ، وجميع الكروم التى فى نهاية نهر أبهر ، وجميع الحوانيت التى فى قزوين وقفا صحيحا

---

(١) المراجع : يعرف فى الفارسية باسم « سفرنامه » وقد ترجم إلى العربية فى سنة ١٩٤٥ .

(٢) المراجع : ترجمت رباعياته إلى العربية مرارا فى مصر وسوريا والعراق ولبنان .

مؤبدا ، وفقا للشروط المبينة فى الحجج ، ملتمسا بذلك رضا الله ولا يجوز لأى حاكم أو ظالم أو مغتصب أو أى شخص آخر أن يغير أو يعدل هذه الوقفية ، فإذا حاول أحد أن يفعل ذلك ، فلتحل عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ويعد المسجد الجامع فى إصفهان أكبر الأبنية الأثرية فى إيران ، وأكثرها دقة وأهمية ؛ وتوجد فى داخل المسجد حجرتان نخمتان مقببتان ، أنشئت إحداهما فى عام ١٠٨٨ م بأمر تاج الدين — الذى كان منافسا سياسيا لنظام الملك — وأنشأ الأخرى نظام الملك نفسه فى نفس العام .

وما زالت أبراج المقابر التى ترجع إلى عهد السلاجقة قائمة — أيضا — ومن الأشياء الجديرة بالمشاهدة — بصفة خاصة — مقبرة طغرل بيك — ذات الحافات البارزة المتكررة — فى مدينة الرى ، وثلاثة أبراج فى مراغة ، واثنان فى نخجوان ، و « كنبذ سرخ »[1] فى مراغة . ويرجع تاريخها إلى عام ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) — وبها أفاريز مزدوجة على جدرانها الخارجية ، تنتهى بنماذج من الأربطة المتنوعة من الآجر الأحمر ، وهناك نماذج أخرى للزينات المعمارية المألوفة فى ذلك العصر ، وهى عبارة عن قطع من الفخار المحروق متشابكة فى نماذج هندسية ، ومحاريب منحوتة من الحصى ، وكتابات بارزة على الأعمدة .

ويظهر فن صناعة الفخار فى ذلك العصر — تقدما عجيبا انتهى به إلى الفخار المغرق فى الزخرفة الذى اشتهر فى العصر المغولى اللاحق :

وفى أواخر العصر السلجوقى ، وجد الفخار البراق المؤرخ ، والقرميد المعمارى ، كما وجد الفخار ذو الألوان المتعددة المصنوع فى مصانع الرى وكاشان . وكانت بعض المدن مثل أغكند (Aghkand) ويستكند (Yastkand)، وآمل تصنع قطعا ثقيلة ملونة ، محفور عليها صور الحيونات والطيور فى بروز قليل يتوصل إليه الصانع بكحت أرضيتها . واستعملت — فى الرى وكاشان — الموضوعات المألوفة فى المنمنمات ، فأظهرت قطع صغيرة منها مناظر من

(١) « كنبذ سرخ » كلمتان فارسيتان معناهما « القبة الحمراء » . (المترجم)

الشاهنامه ، ومناظر الفرسان والصيد والعرش والأشراف ، أو مجموعات متجانسة تجلس فى الحدائق المزهرة . وكان عدد كبير من المدن الهامة ينتج كميات كبيرة من المنسوجات القطنية الجميلة ، والمنسوجات الصوفية ، والأقمشة الحريرية ، وهناك حوالى خمسين قطعة من الحرير الفاخر وجدت فى القبور السلجوقية فى الرى ، وهى تشير إلى مهارة فنية تامة فى أداء مجموعات الكتابات وصور الإنسان والحيوانات . وتشتمل المصنوعات المعدنية على مرايا برونزية حليت ظهورها بمناظر رسمت على بروز منخفض .

وقد زخرت المتاحف والمجموعات الخاصة بأدوات مصنوعة من النحاس أو البرونز كالغلايات ، ومواقد البخور ، والأباريق ، والشمعدانات ، والصوانى ، والمصابيح ، والجرار ، وصناديق الأقلام ، وبمجموعة أقل من الأوانى الفضية ، والصوانى ، وتظهر المهارة الفنية فى أرفع درجاتها فى النقوش المحفورة ، وهى — فى الغالب — مطعمة بالفضة ، أو بالفضة والذهب معا .

العصر المغولى :

حدثت ولادة تموجين حوالى عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، وهو الشخص الذى قيضت الأقدار له قيادة قبائل المغول عبر آسيا متخذا لقب جنكيزخان ، وقد أحاط الغموض التام بنشأته ، ولكنه سرعان ما استطاع أن يقود طوائف الرعاة المتبدية ، وأن يكتسح البلاد جنوبا وشرقا ويسيطر على الصين المتحضرة . وفى عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) اتجه غربا على رأس سبعمائة ألف رجل يركب كثير منهم خيولا نحيلة هزيلة ، وتوقف على حدود الدولة الخوارزمية ليرسل رسلا إلى السلطان محمد الذى استنكف أن يتصل بهؤلاء البرابرة غير المعروفين ، فكانت النتيجة التحطيم السريع لدولته .

وسار الجيش المغولى قدما للاستيلاء على بخارى ، وسمرقند ، وبلخ ، ومرو ، وحوصرت المدن التى أبدت مقاومة ؛ ثم اجتيحت وأحرقت ، وكثيرا ما محيت من فوق سطح الأرض ، وسقطت نيسابور فى عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) ،

وقتل سكانها ، وجميع الكائنات الحية التى بها — بما فى ذلك القطط والكلاب — وطارد السلطان محمد فى المنطقة التى على ساحل بحر قزوين ، ولكنه استطاع الهرب فى قارب صغير وهو على بعد خطوات قليلة من مطارديه . وقد قتل فى هذا الغزو الأول ، وفى موجات الغزو اللاحقة ملايين من أهل إيران .

ثم رجع جنكيزخان إلى الشرق بعد أن أتم الاستيلاء على أغلب إيران ، وتوفى هناك فى عام ١٢٢٧ م (٦٢٥ هـ) . وقد صمم المجلس الذى عين خليفته على إرسال جيش لقتال بقايا القوات الخوارزمية ؛ فقاد القائد جرماغون المغول ، حتى بلغ شمال غربى إيران والعراق ، واستمرت الغارات والمذابح فى السنوات التالية .

وفى عام ١٢٥٦م (٦٥٤ هـ) قاد هولاكو حملة ضد الحشاشين (الاسماعيلية)، فاجتث قلاعهم وحطم قوتهم . وفى عام ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) هجم على بغداد ، واكتسحها بعد حصار دام شهرا ، وقتل آلافا من الناس ، وأحرق قصور الخلفاء ومساجدهم وقبورهم واستولى على مقادير كبيرة من الأسلاب ، وأعدم آخر خلفاء العباسيين ومحا أسرته ، ولكن هولاكو هزم فى فلسطين هزيمة فاصلة على أيدى المصريين ، وكان هذا أول كبح لجماح القوات المغولية .

فانسحب إلى مراغة فى الشمال الغربى من إيران ؛ واستقر المغول فى إيران بصفة مستديمة ، وفيها اتخذ هولاكو لقب ايل خان أو « تابع الخان » ، وهو اللقب الذى انتقل إلى خلفائه ، وأكسب دولتهم اسم « دولة الايلخانيين فى إيران » .

وقد تابع المغول — منذ بدأوا يعيشون فى إيران — أنواعا جديدة من العادات ، وأنماط الملابس ، والمعتقدات الدينية تختلف عما اعتادوه فى أسلوب حياتهم القبلية ، وعملت قوة الحضارة الإيرانية وأصالتها على تغيير عاداتهم وأخلاقهم وقد استبقى المغول النظام الإقطاعى فى الحكم ، وعينوا الفرس فى المناصب الإدارية العالية ، وأصبح السلاطين الايلخانيون رعاة للآداب والفنون .

وفى عام ١٢٦٧ م (٦٦٦ ﻫ) توفى هولاكو ، وخلفه ابنه آباقا الذى حكم إلى عام ١٢٨٢ م (٦٨١ ﻫ) ، وقد باءت حملاته على سوريا بالفشل ، فلما حدث ذلك أحيا آباقا الفكرة القديمة التى ترمى إلى إرسال رسل إلى بلاط ملوك أوروبا والبابا . واقترح — كما فعل كثير من الحكام المتأخرين — عقد حلف عسكرى بين الشرق والغرب ضد المصريين المسلمين ، وكان من المحتمل أن يضمن هذا الحلف للشعوب المسيحية الاستيلاء على الأماكن المقدسة ، ولكن هذه الشعوب لم تبد اهتماما كبيرا بالفكرة .

واعتنق تكودار أخو آباقا الذى خلفه على العرش الدين الإسلامى علانية واتخذ لنفسه اسم أحمد .

وقتل تكودار فى عام ١٢٨٤ م (٦٨٣ ﻫ) ؛ فخلفه أرغون بن آباقا ، وفى أثناء عهده ، حظى المسيحيون النسطوريون الذين كانوا يعيشون فى الشمال الغربى من إيران والعراق بعطفه ، فأعاد مطرانهم بناء الكنيسة فى مراغه ، وكانت مقاليد الأمور جميعها — فى ذلك الوقت — فى أيدى الموظفين الإيرانيين الرسميين الأكفاء . وبعد وفاة أرغون فى ١٢٩٢ م (٦٩٢ ﻫ) حكم أخوه كيخاتو لمدة أربع سنوات ، ثم خلفه « بايدو » الذى شغل العرش أقل من سنة .

وقد أدخل اعتلاء غازان — حفيد هولاكو — العرش فى عام ١٢٩٥ م (٦٩٥ ﻫ) الدولة فى عهد ذهبى جديد ، استمر أثناء عهد خليفته أولجايتو ، واعتنق غازان الإسلام ، فأخذت روح التسامح الدينى التى ميزت العصر المغولى فى التضاؤل ، وصار طابع البلاط فى مدينة تبريز العاصمة إسلاميا فارسيا تماما ، وكانت الإدارة الرشيدة والرخاء الشامل أهم أهداف الحاكم ، مع فرض ضرائب عادلة تجمع بانتظام ، وسن قوانين منسقة ، وإيجاد أمن داخلى .

وكان عشرة آلاف رجل يحرسون طرق القوافل الرئيسية التى تمر منها قوافل عديدة فى أمان ، وكان لكل من جنوه وفنيسيا مبعوثون تجاريون ، وجاليات من التجار تقيم فى تبريز . وفى عام ١٢٩٧م (٦٩٧ﻫ) أمر غازان ببدء الأعمال الإنشائية فى ضاحية من ضواحى تبريز ، ولم تمض سنوات كثيرة حتى

كانت عمارة مقبرته ، ذات الاثنى عشر ضلعا ، المتوجة بقبة كبيرة ، مركزا لمجموعة من المبانى المقامة فى وسط الحدائق ، وكانت المبانى تشمل رباطا ، ومستشفى ، ومدارس دينية ومرصدا ، ومكتبة ، وقصرا أو مبنى للإدارة ، وأكاديمية للفلسفة ، وما زال هذا المكان ظاهرا حتى الآن بما بقى من أكوام الأبنية المتخلفة من مقبرته المحطمة ، وقام غازان — فى أواخر حياته — بمحاولة أخيرة لغزو سورية ومصر ، فاستولى على حلب ، ولكن المصريين هزموه بالقرب من دمشق .

وشخصية غازان تعتبر صورة من صور البطولة ، ولكن وزيره الكبير رشيد الدين كان أيضا معادلا له فى فضائله . وكان رشيد الدين مواطنا فارسيا ، وكان فى بداية أمره طبيبا محترفا فى عهد آباقا ، ثم صار بعد ذلك مؤرخ البلاد والمنظم الرئيسى للدولة فى عهدى غازان خان وأولجاتيو ، وقد صرف أغلب نشاطه فى كتابة تاريخ عمومى[١] ، جعل جزءا منه سجلا مفصلا للمغول وإنشاء دولتهم ؛ وقد استعان فى كتابته بأحسن المصادر وأكثرها دقة واعتمادا ، فرجع إلى السجلات المغولية الرسمية ، وقد ساعده ناسك كشميرى فى كتابة تاريخ الهند ، وعكف عالمان صينيان على الكتابة عن الصين ، وكانت معلومات رشيد الدين عن الأوضاع السياسية فى أوروبا دقيقة جدا ، فكان يعرف عن أوروبا معلومات أكثر كثيرا جدا من المعلومات التى عرفها الأوروبيون — فى ذلك الوقت — عن آسيا ، حتى إنه سجل الحقائق الخفية مثل عدم وجود ثعابين فى أيرلنده ، وحينما أتم كتابه فى عام ١٣١٠م (٧١٠ هـ) ، اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لبقائه ، فأمر بإرسال نسخ عديدة منه إلى مكتبات المدن الكبيرة ، وجعل المخطوطة فى متناول الأيدى لاستنساخها ، فكانت تنسخ منها فى كل عام نسخ جديدة عديدة بلغات مختلفة .

وقد أنشأ رشيد الدين ضاحية فى خارج تبريز سماها « الربع الرشيدى » وخصصها لترقية الفنون والعلوم ، وسرعان ما أسكن فيها رجال الدين والفقهاء ،

---

(١) يسمى هذا الكتاب « جامع التواريخ » . (المترجم)

والمحدثين ، وقارئى القرآن ، والطلاب ، وأصحاب الحرف من كل نوع ؛ فأقاموا فى ثلاثين ألف بيت جميل ، بنيت فى هذه المحلة .

وزينت نسخ من كتابه فى التاريخ العام بالصور ، وتقول السجلات المعاصرة إن نقاشى المخطوطات كانوا يظفرون منه برعاية كبيرة ، وقد ظلت صورهم تقلد طريقة مدرسة بغداد فى النقش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وظلت قطع الورق تجلب من بغداد ، ولكن أسلوب النقش كان منسجما جدا مع روح البلاط وخصائصه ، فظهر الملوك الايلخانيون وزوجاتهم — فى المنمنمات — وهم يلبسون قبعات صينية ، وبدا التأثير الصينى قويا فى الأشجار والأزهار المخططة نتيجة تمريرات سريعة بالفرشة مألوفة فى فن الرسم ؛ كما أن رسم السحب اتخذ صورة النماذج الشرقية الحلزونية الملتفة .

وتوفى غازان خان فى عام ١٣٠٤ م (٧٠٤ هـ) ، فخلفه أخوه أولجاتيو إلى أن توفى — فى عام ١٣١٦ م (٧١٦ هـ) — وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، وقد عمد أولجاتيو فى أثناء طفولته على أنه نصرانى ، ولكنه اختار الإسلام بعد ذلك ، واتخذ لنفسه اسم « محمد خدابنده[1] » ، وقد وجد لذة فى الالتحاق بفرق إسلامية متعددة ، فكان حنفيا وشيعيا وسنيا على التوالى .

وفى عام ١٣٠٦ م (٧٠٦ هـ) أمر أولجاتيو ببدء العمل فى بناء مدينة السلطانية التى تقع على سهل فسيح بالقرب من قزوين ، وهى المدينة التى خلفت تبريز فصارت عاصمة لإيران فى عهد الايلخانيين ؛ وقد تنافس السلطان نفسه ، ورشيد الدين ، ووزير آخر يسمى تاج الدين على شاه ، وكثير من رجال البلاط فى تمويل بناء القصور والمبانى العامة ، والميادين العامة للمدينة الجديدة ، وبدئت بين أسوارها أعمال إنشائية لبناء ضريح أولجاتيو الذى ما زال قائما فى حالة حسنة جدا ، وهو واحد من أجمل الآثار التى أنشئت فى إيران ، ويعتبر مفخرة لأية دولة ، ولأى أسلوب من أساليب البناء . والضريح ذو ثمانية أضلاع — من حيث تصميمه — وحيطانه الخارجية متوجة بثمانى منارات

---

(١) « خدابنده » كلمة فارسية مركبة معناها « عبد الله » (المترجم) .

تكون دائرة حول القبة الكبيرة المغلفة بقوالب زرقاء صقيلة براقة ، وداخل الضريح ساحة مثمنة الأضلاع قطرها ثمانون قدما وارتفاعها — من الأرض إلى قمة القبة سبعون ومائة قدم ، وفيها مدفن صغير فى الناحية الجنوبية ؛ وقد اختمرت فى ذهن أولجاتيو — أثناء تقدم الأعمال الإنشائية — فكرة إحضار رفات علي والحسين وأئمة الشيعة من العراق ، وتحويل مقبرته إلى مزار لأجدائهم ، فأخذت النقوش تعد بحيث يكون اسم عليّ منحوتا بوضوح فى الكتابات ، ولكن الفكرة طرحت بعد ذلك ، وأعيدت زخرفة المقبرة جميعها من الداخل ، قبل أن يتم هذا البناء الأثرى ، وقدمت المدينة الجديدة هدية لأولجاتيو فى عام ١٣١٣ م (٧١٣ هـ) . وسرعان ما أصبحت أسواق هذه المدينة الجديدة شهيرة ، وأصبح من الممكن أن توجد فيها توابل الهند ، وفيروزج خراسان ، ولاجورد بدخشان وياقوتها الأحمر ، ولآلئ الخليج الفارسى ، وحرير سواحل بحر قزوين ونيلة كرمان ، ومنسوجات يزد ، وأقمشة فنيسيا ولمبارديا وألمانيا ، والأقمشة الحريرية المشجرة ، والزيوت ، والمسك ، والراوند الصينى ، والصقور الواردة من أوروبا ، والخيول وكلاب الصيد المجلوبة من بلاد العرب .

وأجلس أبو سعيد على العرش — خليفة لوالده — وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وفقد رشيد الدين وظيفته ، وأعدم فى النهاية نتيجة لتدبير منافسه على شاه ، وكانت القوة المغولية قد بلغت ذروتها فى إيران حينذاك ، وكانت فى حاجة إلى شخصية أكبر من أبى سعيد الذى لم يتعد سن الشباب طوال حكمه لإيقاف انهيارها السريع ، فتمرد النبلاء وقويت شكيمتهم ، وبدأت أقسام من الدولة فى الانفصال عن كيانها الرئيسى .

وكان جنوبى إيران قد أنقذ من تدمير المغول ، لأن حكامه تعهدوا بدفع خراج ضخم للغزاة ، واستطاعت الدولة المظفرية فى كرمان فى أيام أبى سعيد أن تبسط نفوذها على فارس ، وأغلب الجزء الجنوبى من إيران ، وتوفى أبو سعيد فى عام ١٣٣٥ م (٧٣٦ هـ) . وكان غازان خان قد ذبح كثيرا من الأعضاء المنافسين له من العائلات المغولية ، فحارب المطالبون بالعرش من الفروع

البعيدة من الشجرة المغولية بعضهم بعضا بعد وفاة أبى سعيد ، دون الوصول إلى نتائج حاسمة ، وتناحرت البلاد داخليا فى أثناء ما تبقى من القرن الرابع عشر الميلادى . وكانت الدويلات الصغيرة تحكم فترات قصيرة زائلة ، وكانت أقواها دويلة آل المظفر ، والسربداريين الذين استولوا على خراسان ودامغان[١].

وكانت المدة من موت هولاكو إلى آخر عهد أبى سعيد غنية غنى هائلا بالإنتاج الأدبى ، وفيها — وحدها دون ما عداها — كتبت كثير من الكتب التاريخية التى تعتبر من الطراز الأول بين المصادر التاريخية ، كما بذلت مجهودات قيمة فى حقول الطب وعلم النبات ، وعلم الفلك ، والعلوم الطبيعية . وقد أكمل الجوينى كتابه : « تاريخ جهان كشاى » فى عام ١٢٦٠ م (٦٥٩ هـ) ؛ وهو يتضمن تواريخ جنكيزخان وحكام خوارزم ، والإسماعيلية ، وكان الجوينى أحد أفراد أسرة مشهورة من الموظفين الفرس فى عهد المغول ، وكان هو نفسه حاكما على بغداد سنوات كثيرة . كما أكمل فارسى آخر هو عبد الله بن فضل الله — الذى يعرف غالبا باسم الوصاف — تاريخ الجوينى وأوصله إلى عصره ، فى كتابه المسمى « تاريخ وصاف » . وقد ألف رشيد الدين كتبا أخرى مهمة بالإضافة إلى كتابه التذكارى الفخم ، وكتب حمد الله مستوفى القزوينى — وهو صديق عزيز لرشيد الرين — كتابين تاريخيين مهمين : أحدهما ؛ كتاب جغرافى[٢] ، والآخر منظومة تاريخية مطولة تسمى « ظفر نامه » أو « كتاب الظفر » .

وعاش — فى ذلك العصر — عدد كبير من الشعراء المشهورين ولكن اثنين منهم كانا أكثر شهرة من الجميع ، وهما جلال الدين الرومى ، وسعدى الشيرازى .

وكان الرومى — الذى توفى فى عام ١٢٧٣ (٦٧٢ هـ) — شاعرا صوفيا كبيرا ، ومؤسسا للفرقة المولوية ، التى تعرف باسم الدراويش الدائرين أو الراقصين ،

---

(١) المترجم : ارجع إلى تفصيل ذلك فى كتاب حافظ الشيرازى تأليف الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشوربى ، طبع مطبعة المعارف سنة ١٩٤٤ (ص ٣٩ — ١٦٢) .

(٢) المراجع : يعرف باسم « نزهة القلوب » وهو مطبوع ضمن المجموعة التذكارية لأوقاف جب .

وقد ظل نفوذهم قويا فى آسيا الصغرى عدة قرون ، وتسمى منظومته الطويلة — التى تشغل ستة كتب — بـ « المثنوى » وهو اسم ضرب من الشعر القصصى يتكون من أبيات يكون البيت فيها مقفى بين شطريه ، ويعتبر المثنوى عملا من الدرجة الأولى ، والكتاب الأساسى للتصوف الفارسى ، وكان الرومى صوفيا ، فخصص أجزاء كثيرة من المنظومة لخدمة هدفه الوحيد ، وهو تقوية الأخلاق ، والحقائق الصوفية . ويعد سعدي ألمع جوهرة بين سائر جواهر الأدب الفارسى ، وقد ولد فى شيراز ، وأمضى شبابه فى الدراسة ، ثم قام بسلسلة من الرحلات الطويلة ، وأسر فى طرابلس بواسطة الصليبيين ، ولكن صديقا افتداه فى النهاية ، فرجع إلى شيراز وقضى بقية حياته فيها ، متمتعا باحترام الحكام المحليين ، وتقدير آباقاخان إلى أن توفى فى عام ١٢٩١ م (٦٩٠هـ) .

وديوانه أو آثاره المجموعة هى عبارة عن « كلستان » ، أو « روضة الورد » و « بوستان » أو « الحديقة » ومنظومات أخرى صوفية وأخلاقية كثيرة .

والكلستان — وهو النموذج الرفيع الذى احتذاه النثر الفارسى فى العصور اللاحقة — عبارة عن مجموعة من الحكايات المكتوبة نثرا ، ولكنها تشتمل على مقطوعات من الشعر ، أما الـ « بوستان » فشعر جميعه ، وهو يمجد العدل والمساواة ، والتواضع ، والبساطة ، والتربية ، والعبادة ، والتفكر ، وغيرها من الموضوعات ، وقد نصح سعدى — كصوفى — بالاعتدال على أنه الفضيلة الأولى ، وأوصى بأن نقنع بنصيبنا فى هذه الحياة ، وأن نعيش ما أمكن عيشة فاضلة عفيفة استعدادا للحياة الأبدية .

ومن أهم رجال العلم — الكثيرين فى ذلك العصر — نصير الدين الطوسى الذى كان فى البداية يعمل فى خدمة الاسماعيلية ، ثم حاز إعجاب هولاكو فاستخدمه فى تشييد مرصد فى مراغه وإدارته . وقد وضع فى هذا المبنى الجديد عدة أدوات مصنوعة بطريقة خاصة مثل الاسطرلاب ، وأدوات رصد تحركات الأجسام السماوية وصورة الكرة الأرضية . وقد وصف كاتب معاصر هذا الرجل فقال : « هو رجل واسع الاطلاع فى جميع فروع الفلسفة يدير

جميع المؤسسات الدينية فى البلاد الخاضعة للحكم المغولى ، ألف كتبا كثيرة فى المنطق والعلم الطبيعى وماوراء الطبيعة كما كتب شروحا على كتب إقليدس وأفلاطون وأرسطو» .

ويبدو أن نشاط حركة البناء قد توقف فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فقلما توجد الآن آثار قائمة يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى . وقد حطمت غزوات المغول مبانى لاعداد لها فى المدن المدمرة ، ولم تعد الحياة لحركة البناء فى إيران إلا بعد ظهور المغول فيها بثلاثين عاما ، فقد شيد هولاكو مرصداً لمراغه ، ودارا للخزانة ، ومقبرة له ، وأبنية أخري لم يبق منها إلا الجدران الأساسية للمرصد ، ومع ذلك فما زال باقيا فى إيران مائة — على الأقل — من الأبنية المهمة التى بنيت منذ عهد هولاكو إلى وفاة أبى سعيد ، أغلبها عبارة عن مساجد ، ومزارات أو مقابر . غير أنه يوجد بينها أيضا عدد قليل من الخانات المخصصة لمبيت القوافل ، ومن أبنية من نماذج أخرى .

ويعد الفن المعمارى لهذه الأبنية استمرارا للآثار المعمارية التى أنشئت فى عصر السلاجقة قبل ذلك بقرن تقريبا . ولكن استعمال الآجر المزخرف — الذى يوضع كعلامة للزينة — أخذ فى الزوال ، وانتشر الملاط المزخرف انتشارا واسعا وتطور تطورا كبيرا وغطت نماذجه القوية وجوه المحاريب ، وأربطة الكتابات ، وأوجه الحيطان ، والأقباء . وكان كثير من الملاط ملونا بالألوان الحمراء والبيضاء والخضراء والصفراء ؛ وظهر فن آخر فى التزيين هو استعمال القرميد المصقول على الجدران الخارجية والداخلية ، وقد استعملت — فى البداية — قطع صغيرة من القرميد الأزرق الخفيف أو الثقيل ، ثم استعمل القرميد الأبيض والأسود ، وزاد استعماله إلى أن غطيت مساحة برمتها بقطع صغيرة من القرميد المصقول ، وصنعت بإتقان . وأصبح هذا الفن — الذى يعرف باسم الترصيع بالفسيفساء علامة مميزة لفن البناء فى العصرين التيمورى والصفوى .

وقد تحدثنا — فيما سبق — عن اثنين من الآثار الثلاثة العظيمة التى تختلف

عن العصر الايلخانى ، وهما مقبرتا غازان خان وأولجاتيو ، أما الأثر الثالث فهو المسجد الذى بناه الوزير على شاه فى تبريز فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، ويشتمل بناؤه الواسع على ساحة كبيرة مفتوحة ، وعلى حوض فيه نافورة فى وسطه ، وصومعة ، ومدرسة دينية ، والبناء الرئيسى للمسجد ، وهذا الجزء الأخير عبارة عن ساحة إيوان واسع عرضها الداخلى مائة قدم . وكان هذا البناء — حينما تم بناؤه — يشابه القصر الساسانى المسمى بطاق كسرى فى المدائن مشابهة عظيمة ، ويشاهد — الآن — قسم كبير من جدرانه التى سمكها ثلاثون قدما ، وبقيت كذلك أبنية أخرى شهيرة مشيدة فى أصفهان ، وورامين ، ونطنز ، وبسطام فى حالة جيدة .

وقد بقيت أمثلة قليلة لقطع فخارية ذات تاريخ ، استطاعت أن تنجو من سنوات التدمير الواقعة بين ١٢٢٠ و ١٢٤٢ م (٦١٧ — ٦٤٠ ﻫ) ولكن عددا كبيرا من النماذج الفخارية مؤرخ بعد عام ١٢٤٢ م (٦٤٠ﻫ) . وهو دليل على انتعاش صناعة القاشانى فى كاشان والرى والمراكز الأخرى ، وتشتمل قطع كاشان المؤرخة على محاريب كبيرة ؛ تكونت من تربيعات كبيرة من الخزف اللامع ومن التربيعات النجومية البراقة ، التى كانوا يستعملونها مع التربيعات الصليبية فى زخرفة أسفل الجدران الداخلية ، وتشتمل كذلك على سلاطين منقوشة لامعة جداً أو ذات ألوان متعددة ، وعلى أطباق وقوارير ؛ والقطع اللامعة لها بريق واضح من اللون الأحمر أو الذهبى أو البنى ؛ نتج عن تغطية القطع المصنوعة بصبغة من أكسيد النحاس أو نترات الفضة ، ثم إعادة وضعها على النار حتى ترسب طبقة خفيفة من المعدن على سطح القطعة .

وعلى العموم ؛ فإن الفخار فى العصر المغولى كان أكثر زخرفة ، وكان متنوعا تنوعا كبيرا يفوق كل ما كان موجودا فى العصر السلجوقى ، ويمتاز العصر المغولى بالفن الذى يعرف باسم « الميناء » ، وفيه تنقش نماذج متعددة الألوان على الفخار المصقول ، وكان أروعها الفخار المصقول ذو الألوان الذى وشى بالذهب بعض رسومه ، ورغم أن بعض نماذج الفخار المشهورة

تنسب إلى مصانع كاشان والرى وساوه النشيطة ، فإن مدنا أخرى كثيرة قد أنتجت — أيضا — فخارا رائعا ، كما وجدت قطع كثيرة جدا — فى السنوات الحديثة — فى الحفريات التى عملت على طول الركن الجنوبى الشرقى لبحر قزوين .

وقد ذكرت — فعلا — بعض الإشارات إلى طريقة زخرفة مخطوطات تاريخ رشيد الدين التى تمت فى ضاحيته التى بناها خارج تبريز ، وقد بقيت كذلك صفحة من كتاب مزين بالصور للبيرونى مؤرخة بعام ١٣٠٧م (٧٠٧هـ) ، كما نقشت كتب كثيرة فى الضاحية نفسها ، وذهبت فى هذا العصر أيضا نسخ من الشاهنامه ؛ ومن المعتقد أن الصفحات الكبيرة التى كانت موجودة — فيما مضى — فى مجموعة ديموت (Demotte) قد نقشت فى تبريز ، وتقل فيها تأثيرات الشرق الأقصى ، فقد تغيرت فيها طرق التصميم والتفاصيل ، وصارت الألوان أزهى ، وأصبحت الأرضية المذهبة طريقة شائعة .

وكانت هناك مراكز أخرى لنقش الصور الصغيرة (المنمنمات) فى شيراز وهراة . وقد غطيت الصفحات المزينة الفخمة فى نسخة من القرآن أعدت لأولجا تيو فى همدان فى عام ١٣١٣ م (٧١٣ هـ) بنماذج هندسية من الأزهار ، تشبه — كثيرا جدا — النماذج المستعملة فى الزخارف المعمارية المعاصرة لها ، كما توجد صفحات مثلها فى نسخ من القرآن كتبت فى الموصل ومراغه . واستمر نسج الأقمشة قائما فى تبريز ونيسابور وهراة ، وقم ويزد ومراكز أخرى ، وقد حفظت فى المتاحف والمجموعات الخاصة حوالى ثلاثين قطعة من الحرير الرائع ؛ ظهر فى بعضها الأثر الصينى ، وقد استعمل بعضها الخيوط الذهبية أو الفضية ، ونسج بعضها بنماذج مخططة دقيقة ، كما زخرف بعضها بنماذج من شجيرات النخيل أو اللوتس ، أو أنواع أخرى من الزهور وقد وجدت بعض هذه القطع فى أوروبا بعيدا عن إيران ، وتحمل واحدة منها اسم أبى سعيد .

وقد وجد اسم أبى سعيد أيضاً على طشت نحاسى فخم مرصع بالذهب والفضة وحذت نماذج أخرى شهيرة — مصنوعة من المعادن — حذو الفن الذى كان

متبعا فى العصر السلجوقى ، ونستطيع أن نلم بفن نجارة الخشب — فى هذا العصر — بملاحظة عدد من المنابر وأبواب المساجد والمزارات ، وقد استعمل فيها نموذجان رئيسيان : أحدهما الأشكال الهندسية المكونة من زوايا وأضلاع متقاطعة ، والآخر مكون من أشكال نباتية معروفة متشابكة .

العصر التيمورى :

كانت الأحوال فى المناطق الشرقية لإيران غير مستقرة مدة كبيرة من الزمن ، وقد منحت أراضى إقليم ما وراء النهر — بعد الفتح المغولى الرئيسى — لجغتاى الابن الثانى لجنكيز خان ، فأسس هناك دولته الخاصة ، وبعد ذلك بقليل قسمت هذه المنطقة الواسعة إلى قسمين : الأول منطقة ما وراء النهر الفعلية ، والثانى منطقة تركستان . ثم اشتبك القسمان معا فى حروب متواصلة استمرت إلى عام ١٣٧٠ م (٧٧٢ هـ) ؛ حينما تمكن تيمور — الذى كان إذ ذاك فى خدمة حاكم تركستان — من إخضاع الدولة المنافسة .

وقد ولد تيمور — أو تيمور لنك كما هو معروف للعالم الغربى — بالقرب من سمرقند فى عام ١٣٣٣ م (٧٣٤ هـ) ، وهو ابن حفيد رئيس قبيلة برلاس التركية . فلما أصبح سيداً على إقليم ما وراء النهر ، وجه قوته الجديدة نحو الغرب ، ففتح خراسان ومازنداران وسجستان فى عام ١٣٨٠ م (٧٨٢ هـ) . واستولى على آذربيجان وجورجيا وغربى إيران فى عام ١٣٨٤ م (٧٨٦ هـ) وغزا إقليم فارس جميعه فى عام ١٣٩٢ م (٧٩٥ هـ) وقام بهذه الحملات بقوات قليلة نسبيا ، مما جعله يواجه بعض المصاعب أحيانا ، وجعل تقدمه غربا بطيئا .

ثم سار إلى بغداد ، وتوجه بعد ذلك إلى سورية حيث استولى على حلب ودمشق ، وقد كانت غزواته أقل تدميراً من غزوات المغول ، ولكنها أدت إلى كثير من التدمير ، فهناك تقرير عن بعض أعماله يسجل ما يلى : « وبمجرد أن هزموا ، وسلموا أسلحتهم ، جرد سيفه ضدهم ، وسلط عليهم جميع أسلحة الموت ، ثم ترك المدينة خرابا ، فلم يترك فيها شجرة ولا حائطا إلا حطمها تحطيما

تاما ، فلم يبق منها شجرة أو أثراً ، . ولكنه — من ناحية أخرى — كثيراً ما سمح لصغار الحكام ، والسلاطين والأمراء بأن يستبقوا سلطتهم المحلية .

كما فتح — أيضاً — جزءاً كبيراً من تركستان الروسية ، ومن الهند ؛ وفى عام ١٣٩٨م (٨٠١ هـ) رجع إلى عاصمته سمرقند ، ليشرف على تنظيم إدارة دولته الواسعة ، وكانت الدولة التى أسسها تركية فى جوهرها ، ولكن الحضارة الإيرانية لعبت الدور الموجه الغالب ؛ لأن تيمور كان مسلماً غيورا .

ونحن نعرف الكثير عن أخلاق تيمور وعاداته وهواياته ، فقد كان — وفقا لما كتبه مؤرخ معاصر له — ذا قد طويل ، ورأس ضخمة بدرجة غير طبيعية ، وذا شعر طويل قيل إنه كان أبيض منذ ولادته ، كما كان ذا ملامح صارمة حزينة ، وكان عدوا لجميع أنواع المزاح والهزل ، شديد العداء للكذب والبهتان ، وكان يكره الشعراء والندماء ، ولكنه كان يحب الأطباء والفلكيين والفقهاء ، وكانت الكتب المحببة إلى نفسه هى : كتب تواريخ الحروب ، وحياة المحاربين . وكان تعليمه محدودا ، يكاد يكون قاصرا على الإلمام بالقراءة والكتابة ، ولكنه كان يستطيع التكلم بثلاث لغات هى التركية والفارسية والمغولية .

ويبدو أنه كان يحب الهواء الطلق ، فكان يتحرك من حديقة إلى أخرى من حدائقه الكبيرة التى تطوق سمرقند — إذا كان الجو يسمح بذلك — حيث كان يعيش فى الخيام ، أو فى السرادقات المصنوعة من أغلى أنواع الحرير والأقمشة المطرزة بالقصب .

ولم يحل ميله الوراثى لقليل من الثقافة دون اهتمامه بالفنون ، فكان شديد الشغف بفن البناء لجمع الفنانين وأصحاب الحرف فى سمرقند ، لتشييد سلسلة من المبانى ، كان كل واحد منها أعلى وأضخم من المبانى الأخرى التى شيدت قبله .

وبنى تيمور — فى سمرقند — مدرسة دينية كبيرة لزوجته بيبى خاتون — التى كانت أميرة صينية — فسميت باسمها ، ولا زالت أجزاء كبيرة من أبنية إيواناتها الأربعة قائمة ، وكانت فى الوسط ساحة واسعة مفتوحة محاطة بعقود مقببة على كل ركن منها منارة عالية ، ويقع فى مقابل الواجهة المقوسة قاعدة الصلاة

المربعة التى تعلوها قبة مقامة على أعمدة أسطوانية مرتفعة ، وقد أشرف تيمور — أيضا — على بناء مقبرته ، التى يبدو أنها أكملت قبيل وفاته فى ١٤٠٤ م (٨٠٧ هـ) وحفظت هذه المقبرة — المعروفة الآن باسم «كورمير[1]» — فى حالة جيدة ، وهى تعد مثلا رائعا لمميزات الأسلوب التيمورى فى البناء ، فهى بناء على مستوى رفيع غنى بالزخارف الملونة المتألقة .

والمقبرة من الخارج مثمنة الأضلاع أما من الداخل فحجرة مربعة ، ذات حنيات عميقة وبوابات صغيرة من كل ناحية من نواحيها الأربع مزينة بثراء فاحش ، وأسفل الجدران مبطن برخام معرق ، يعلوه رباط من حجر اليشب المخضر ، يحمل كتابات مذهبة ، تسجل أعمال تيمور ؛ وقد غطيت الحيطان فى أعلى هذه الكتابات بورق مضغوط فى صورة نقوش بارزة ذهبية وزرقاء مصقولة تحيط بها من أعلى أربطة تحتوى على كتابات بحروف مذهبة على أرضية زرقاء ، والسطح الداخلى للقبة الداخلية المنخفضة مغطى أيضا بزخارف زرقاء وذهبية ، وتوجد فوقها قبة بصلية الشكل نوعا ما ، تعلو الحجرة السفلى ، وهى مسقوفة بنماذج مخططة من الآجر الصقيل ذات زرقة سماوية ، وزرقة قاتمة مع وحدات من القوالب ذات السمرة النحاسية .

ولما توفى تيمور لم يكن فى سمرقند من أهل بيته — الذين يمكن أن يخلفوه على العرش — إلا اثنان ؛ حفيد له وابن أخته ، وكان ابنه الرابع شاهرخ فى هراة ، فاستطاع أن يظفر بالسيطرة على هراة وخراسان وما وراء النهر بعد منازعات وحروب عائلية استمرت سنة تقريبا . وظفر ابنه الثالث ميرانشاه بالسيطرة على الجزء الغربى من إيران بما فى ذلك تبريز وبغداد ولكنه سرعان ما شغل بالمنازعات بين ابنين من أبنائه .

وفى عام ١٤٠٨ م (٨١١ هـ) استفادت قبائل « قره قويونلو » (أى ذات الخراف السوداء) من هذا الوضع فاستولت على آذربيجان . وفى عام ١٤١٠ م (٨١٣ هـ) استولى رئيسها قره يوسف على بغداد ، وتمكن ابنه بعد ذلك

---

(١) « كور مير » : كلمتان فارسيتان معناهما « قبر الأمير » أى الأمير تيمور .   (المترجم)

بسنوات من السيطرة على إقليم أصفهان ، وظل حكام قره قويونلو يحكمون حتى عام ١٤٦٩ م (٨٧٤هـ) إلى أن تمكنت قبائل آق قويونلو أو (ذات الخراف البيضاء) من هزيمة منافسيها .

وفى الشرق حكم شاهرخ — من عاصمته هراة — جميع أجزاء القسم الشرقى من إيران حتى عام ١٤٤٧ م (٨٥١ هـ) وهزم قبائل قره قويونلو فى تبريز ، وطردهم إلى أرمينية ، ولكنه أجبر — فى النهاية — على تركهم يستولون على الإقليم الغربى من إيران .

وكان شاهرخ من أكثر الملوك الذين حكموا إيران ثقافة ؛ وقد جعل هراة المركز الثقافى لوسط آسيا ، وازداد الرخاء فى ظل حكمه الرشيد ، وعلت مكانة المهندسين المعماريين والرسامين والشعراء والعلماء والموسيقيين ، فانتشرت الحركات الفنية والأدبية التى ظهرت فى هذا العصر ، وامتدت غربا حتى بلغت ذروتها فى أصفهان — بعد ذلك — فى عهد الشاه عباس الصفوى .

وكانت كوهرشاد إحدى زوجات شاهرخ أما لابنيه الشهيرين ألغ بيك وبايسنقر ، وكانت شخصية قوية ، وكان اشتراكها الطويل المثمر مع المهندس المعمارى قوام الدين الشيرازى — الذى كان يوصف بأنه أحد المصابيح الأربعة الكبيرة التى تضىء البلاط — سببا فى بناء عدد من المبانى الفخمة ، أحدها مسجد كوهرشاد المقام فى منطقة مزار الإمام على الرضا فى مشهد ، وهو محفوظ بحالته تماما ، وقد بدئ فى بنائه فى عام ١٤٠٥ م (٨٠٨ هـ) ، وأكمل فى ١٤١٧ م (٨٢٠ هـ) ، وتصميم بنائه كالمألوف ، أى بالعقود العادية حول ساحة مفتوحة ، وأربعة إيوانات على الجهات الأربع من محور البناء ، ولكن الملامح الأروع جمالا ، هى الفسيفساء اللامعة المتوهجة التى تغطى جميع واجهات الحيطان برسوم زرقاء قاتمة ، وزرقاء فاتحة ، وبيضاء ، وحمراء ، وصفراء ، وسوداء ، وخضراء مصقولة ، وقد أمرت كوهرشاد — بعد إتمام بنائه مباشرة — ببدء العمل فى بناء مجموعة من المبانى الفخمة فى هراة ؛ وكانت هذه المجموعة تضم

فى وقت مامدرسة كبيرة[1] ومصلى بنى على طريقة المسجد المعروفة ، ومقبرتها ، وكانت المنارات العالية تنبثق من جوانب المبانى .

وقد حطم أغلب مبانى المجموعة فى عام ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ) ولكن المقبرة مازالت باقية فى حالة لا بأس بها ، وقد دفن فيها ابنها بايسنقر أولا ، ثم دفنت فيها الملكة نفسها — بعد ذلك — بعد حياة استمرت أكثر من ثمانين عاما .

وقد بنى قوام الدين الشيرازى — أيضا — مدرسة جميلة فى خركرد — إلى الغرب من هراة — وهى تقع داخل حدود إيران الشرقية فى الوقت الحاضر .

وخلف شاهرخ ابنه الأكبر ألغ بيك ، وكان حكمه — لسوء الحظ — قصيرا جدا ، لأنه استغرق المدة من ١٤٤٧ إلى ١٤٤٩ م (٨٥١ — ٨٥٣ هـ) وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين ، كما كان أيضا شغوفا بفنون الصينيين ، ولكن الرغبة الملحة التى كانت تسيطر عليه هى دراسة علم الفلك ، وقد بنى مرصدا لا يزال قائما فى سمرقند ، وعمل جداول حسابية ، طبعت بعد ذلك فى انجلترا فى عام ١٦٦٥ م (١٠٧٦ هـ) .

وتوفى بايسنقران أخو شاهرخ بسبب تسمم حاد من الشراب ، ولكن بعد أن أحرز شهرة خالدة فى فنون الخط ، والموسيقى والتصوير ، وقد اشتغلت مجموعة كبيرة من النقاشين والمجلدين والنساخين تحت إشرافه المباشر فى هراة .

وكان ألغ بيك كريما لطيفا رحيما ، بالنسبة لعصره ، فانتهى أمره بأن عزله ابنه ثم قتله ، وبقيت الدولة فى حالة من الفوضى . ظلت سائدة بضع سنوات ، وأخيرا سيطر حسين بايقرا على خراسان فى عام ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ) وأحيا النهضة الأولى للحضارة والفنون فى هراة ، بحيث كتب أحد معاصريه يقول : « لم يكن فى العالم المسكون جميعه مدينة مثل هراه فى عهد السلطان حسين ، فقد كانت خراسان وهراه — على رأس مدنها — مملوءة بعلماء ورجال لا نظير لهم ، وكان إذا اضطلع أحدهم بعمل — مهما كان نوعه — هدف إلى إتمامه ،

(١) اصطلاح المدرسة يقصد به فى هذا العصر المدرسة الدينية (المراجع) .

وإتقانه ، وكان من الكواكب النيرة فى البلاط جماعة من العلماء من كل من الأصلين الفارسى والتركى ، وكان منهم الشاعران الجامى ، وعليشيرنوائى ، والمصوران أو الرسامان بهزاد ، وشاه مظفر ، والخطاط سلطان على والمؤرخان ميرخواند ، وخواندمير » .

وبعد وفاة حسين بايقرا — فى ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) سقط الجزء الشرقى من الدولة التيمورية فى أيدى قوم رحل من التتار كان أصلهم من الجنس المغولى ، ولكن تقاليدهم الحضارية كانت تركية ، هم الشيبانيون ، فاستمرت دولتهم ترعى الفنون فى بخارى وسمرقند ، ولكنها انتهت سريعا أمام قوة الصفويين الفرس .

وكان شمس الدين محمد حافظ الشيرازى ألمع شخصية أدبية فى ذلك العصر ، استطاع أن يلتحق وهو شاب فقير بالمدرسة ، وحفظ القرآن عن ظهر قلب فكان تخلصه الشعرى بـ « حافظ » مشتقا من هذا . وقد عاش حافظ فى شيراز وتمتع برعاية كثير من الحكام المحليين إلى أن توفى فى عام ١٣٨٩ م (٧٩٢ هـ) ويحتمل أن تكون القصة المشهورة التى تصف مقابلة هذا الشاعر المتواضع لتيمور الفاتح منتحلة ، وقد قيل إن تيمور لام « حافظ » على بيته[1] الذى يقول فيه :

لو أن ذلك التركى الشيرازى يأخذ قلوبنا بإشارة واحدة من يده .

فإننى من أجل خاله الأسود أهبه سمرقند وبخارى .

قائلا إنه قد قام بفتوحاته من أجل تزيين هاتين المدينتين — سمرقند وبخارى — اللتين يريد حافظ تسليمهما من أجل شىء تافه ، فأجاب حافظ بأن مثل هذا السفه هو الذى أوقعه فى العسر . . . . ! ! ، وفى رواية أخرى

(١) المترجم : يقصد المؤلف بهذا البيت قول حافظ بالفارسية :

أكرآن ترك شيرازى بدست آرددل مارا بخال هندويش بخشم سمرقند وبخارا

انظر ترجمة ديوان حافظ الشيرازى التى أخرجها الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربى بعنوان « أغاني شيراز » وكذلك كتاب سيادته الذى أخرجه بعنوان « حافظ الشيرازى شاعر الغناء والغزل فى إيران » .

— تحتاج إلى نقل النص الفارسى — أن « حافظ » أجاب بأنه لم يقل فعلا هذا المصراع ، وهو قوله :

بخال هندويش بخشم سمرقند وبخارى

أى « أهب سمرقند وبخارى من أجل خاله الأسود »

بل قال : بخال هندويش بخشم سه من قندودوخرمارا

أى « أهب من أجل خاله الأسود ثلاثة أمنان من السكر ومنين من البلح » .

ويشتمل ديوان حافظ على ٦٩٣ منظومة ، منها ٥٧٣ غزلية ، تتغنى بالربيع ، والزهر والبلابل ، والخمر والشباب ، والجمال الخالد وهى تتنسم نغمات غنائية رائعة ، وتمزج المسائل الصوفية والدنيوية فى قطع من بديع التصوير ، ولكن نفحة من الشك وعدم المبالاة تشوب كثيرا من منظوماته .

وكان الجامى — الذى ولد فى خراسان ، وتوفى فى هراة فى ١٤٩٢ م (٨٩٨هـ)— شاعرا عظيما وعالما وصوفيا فى وقت واحد ، ومن المعتقد أنه ألف ستة وأربعين كتابا فى ميادين الشعر الغنائى والروائى ، والتصوف ، والنحو العربى ، ونظم الشعر ، وكتابة النثر ، والموسيقى ، وتراجم الصوفية ، وتفسير القرآن . وقد ظفر بتقدير عظيم فى أثناء حياته — من معاصريه ، من ملوك الدول البعيدة ، وتشتمل مثنوياته — أو أشعاره الروائية القصصية — على سبع منظومات طويلة ، كما أن أشعاره الغنائية جمعت فى ثلاثة دواوين ، ولم يتفوق أى كاتب آخر فى عصره مثلما تفوق هو فى ميادين كثيرة ، ولم يعبر أحد عن الفكر الصوفى والإلهى فى إيران مثلما عبر هو بهذا الوضوح والبهاء .

وسنذكر هنا عددا قليلا من الشخصيات الأدبية التى ظهرت فى ذلك العصر ، ونبدأ بعليشير نوائى وكان راعيا لرجال منهم الجامى وبهزاد ، وقد صار مشهورا كموسيقى ورسام وشاعر .

وهناك نظام الدين الشامى الذى ألف كتاب « ظفر نامه » أو « كتاب الظفر » الذى كان السجل الوحيد لفتوحات تيمور ، وقد أكمل فى حياة تيمور ،

أما فيما يتعلق بمادة الكتاب ، فقد استمدها المؤلف من السجلات والوثائق الرسمية التى أتيح له أن يطلع عليها حين كان مشتركا فى الحروب فى بغداد وحلب.

ويوجد كتاب « ظفر نامه » آخر أكثر شهرة من الكتاب السابق ، ألفه شرف الدين على اليزدى ، وأتمه فى عام ١٤٢٤ م (٨٢٨ هـ) ، وهو متخم بالمبالغة فى مدح تيمور ، ولكنه يعتمد اعتمادا كبيرا على الكتاب السابق .

ثم هناك ميرخواند وهو الاسم الذى اشتهر به مؤلف كتاب « روضة الصفا » الذى يتناول تاريخ إيران منذ عصور الملوك — الذين حكموا قبل الإسلام — إلى عام ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) .

وقد تلاشت عمائر نموذجية عرفناها من الروايات المعاصرة للتيموريين ، كانت تعتبر من العمائر الممتازة فى عصرهم ، وكان أحد هذه الآثار المسجد الكبير الذى بناه تيمور فى سمرقند . كما لم يبق من قصره الذى استغرق بناؤه عشرين عاما إلا قسم واحد ، وتتضمن الآثار الباقية عن القرن الخامس عشر مزار « خواجه أبى نصر پارسا » المهيب فى بلخ ، ومزار « خواجه عبد الله الأنصارى » خارج هراة ومزار « تربت شيخ جام » وقبر زين الدين فى « تاى آباد » . ويقع الأخيران داخل حدود إيران الشرقية الحالية مباشرة .

وأغلب هذه المبانى — مثل التى ذكرتها فيما سبق — تدل على الميل إلى العمائر العظيمة ، ويتضح هذا الميل أكثر فى عظم ارتفاع الإيوان الرئيسى فى كل مبنى ، وقد كسى كل بناء يرجع إلى هذا العصر — تقريباً — بتربيعات الصينى والفسيفساء ، ثم استعملت — قرب نهاية العصر — المواد المصقولة على الواجهات الداخلية ، والخارجية على السواء .

ويوجد بناء — فى غربى إيران — تربط زخرفته بين الفن فى العصرين التيمورى والصفوى ، وهو المسجد المسمى بالمسجد الأزرق[١] فى تبريز الذى دفن فيه جهانشاه — أقوى ملك فى دولة قره قويونلو — فى عام ١٤٦٧ م

(١) يقصد « مسجد كبود » الذى ما زالت أطلاله باقية فى تبريز (المترجم) .

(٨٧٢هـ) أي بعد سنتين من إتمامه والساحة الرئيسية للبناء مستطيلة فى تصميمها فيها ممر مقبب يحيط بالجوانب الثلاثة لقاعة كبرى عليها قبة ، وهى هنا تحل محل الساحة العادية المكشوفة . وخلف هذه القاعة الكبرى مقبرة أصغر قليلا منها مقببة كذلك . وقد زينت الحيطان الخارجية وبوابة المدخل لهذا البناء المتهدم بالفسيفساء الخزفية ، أما من الداخل؛ فقد ظهر الخزف ذوالبريق على أرضية من الآجر الأحمر المائل إلى الصفرة .

ويبدو أن إنتاج الخزف قد قلت أهميته فى العصر التيمورى ولكن التقدم العجيب فى تصاوير الكتب يعد الميزة الكبرى للفن فى القرن الخامس عشر الميلادى، وكانت أهم مدارس التصوير توجد فى هراة وشيراز ، وقد مالت مدرسة شيراز — وهى الأقل أهمية — إلى مواصلة التقاليد السابقة للتصوير التى كانت سائدة فى بغداد وتبريز ، وتبين صور هراة أثر الأساتذة الشخصى مع مهارة فنية واضحة استطاعت أن تبدل الفن الواقعى الصارم للعصور السابقة بفن طبيعى متقن . وتمثل آثار هذا القرن ذروة التقدم فى فن المنمنمات الفارسية . فقد صورت هذه الصور مجموعات الشخوص بطريقة زخرفية أكثر منها واقعية ؛ فتفاصيل العمائر والملابس والأحياء ، كانت كلها تخرج فى الصورة إخراجا دقيقا مزخرفا . وقد كان المنظر الطبيعى يتخذ عادة أرضية خلفية لموضوع الصورة الرئيسى ؛ غير أن الجبال والأشجار والسماء كانت تصور عادة فى عناية بالغة . وتبدو الشخوص متحجرة فى مناظر ثابتة لا حيوية فيها ، لأن الفنان كان يتجنب الزاوية التى تمكنه من رؤية حقيقة الصورة كما كان يتجنب استعمال الظلال ، وكانت قوالب هذه الشخوص ووجوهها خالية عادة من العاطفة والإحساس ، وكانت الألوان صافية لامعة وإن كانت تميل إلى أن تبدو هادئة .

وقد ولد بهزاد حوالى عام ١٤٤٠ م (٨٤٤ هـ) وظل يواصل نشاطه فى عهد الملك الصفوى شاه طهماسب ، وعد أكبر رسام فارسى للصور الصغيرة (المنمنمات) ؛ وله — طبعا — تأثير ملحوظ على الفنانين المعاصرين له والفنانين المتأخرين ، وقد نسبت صور صغيرة لا عداد لها إليه ، ولكن الدراسة العلمية

ضيقت ميدان هذه الصور وحصرتها فى عدد من الصفحات الموقعة بإمضائه ، وفى صور أخرى قليلة تحمل العلامة — التى لا يخطئها الإنسان أبدا — المميزة لفنه . وتوجد — الآن — نسخة من « بستان سعدى » فى المكتبة الخديوية « دار الكتب » بالقاهرة ، وهى تشتمل على أربع صور صغيرة أمضيت كل منها بعبارة « من عمل العبد الفقير بهزاد » كما تشتمل على صورة خامسة فى صفحتى الورقة الأولى للكتاب تمثل مأدبة للسلطان حسين ، وهى — قطعا — من رسم هذا الأستاذ .

كما توجد نسخة خطية لنظامى[1] فيها — أيضا — ثلاث صور صغيرة بإمضاء بهزاد ، وتوجد نسخة من كتاب « ظفر نامه » مكتوبة للسلطان حسين بايقرا — فى عام ١٤٦٧ م (٨٧٢ ﻫ) — ، وهى تشتمل على صور رائعة مرسومة على ست ورقات — من كلا الجانبين — فيها مثل هذه المناظر المشتقة من حياة تيمور — كملك يعتلى العرش فى حديقة أو يشرف على بناء مسجد — وليس على هذه الصور إمضاء ، ولكنها — عادة تنسب إلى بهزاد .

ولا بد أن بهزاد كان له تلاميذ كثيرون فى هراة ، وقد بقيت بعض أعمال لواحد منهم يدعى «قاسم على» بينما تحرك التلاميذ الآخرون — الذين استمدوا الإلهام من فنه — إلى بخارى ، وأقاموا فيها أسواقا رائجة . وقد رسم أحد هؤلاء الفنانين — ويدعى « محمود مذهب » — صورة جميلة لعليشير نوائى لا تزال موجودة حتى الآن .

وجذبت مدرسة هراة الرسامين الذين كانوا نشطين قبل أن يصل بهزاد إلى أوج الفن والشهرة ، أو الذين لم يكونوا تحت تأثيره المباشر . ومن رجال الطائفة الأولى نصر الله أبو المعالى الذى صوز مخطوطة من قصص كليلة ودمنة توجد الآن فى « قصر كلستان » بطهران .

---

(١) يقصد « خمسة نظامى » ولها نسخة خطية فى دار الكتب المصرية . (المترجم)
المراجع : نشر الدكتور عبد النعيم حسنين كتابا عن حياة نظامى جعله بعنوان نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة الإيرانى . طبع القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

وتوجد — أيضا — نسخة من الشاهنامه ذات صور فخمة رسمتها يد مجهولة، ويمكن أن تنسب واحدة من هذه الصور الصغيرة الجذابة جدا — إذا ما قيست بالصور الصغيرة التى رسمت فى إيران بصفة عامة — إلى مدرسة هراه، ومن المحتمل أنها من عمل الرسام غياث الدين الذى رافق بعثة مرسلة من قبل شاهرخ إلى بلاط الصين، واحتفظ بسجل لأعماله اليومية. والرسم موضوع على الحرير وهو يبين لقاء تم بين الأمير الإيرانى «هماى» والأميرة الصينية «همايون» فى حديقة مملوءة بأشجار الفاكهة ذات الأزهار الجميلة، ويشتمل على مجموعة كاملة لأزهار مرسومة شيقة نفيسة.

العصر الصفوى :

شاهد العصر الصفوى — الذى جاء بعد فترة من الضعف استمرت ثمانية قرون — إعادة بناء دولة إيرانية قومية صحيحة، وإن ما نتج عن ذلك من إحياء الروح القومية والاتحاد يمكن أن يقارن بالحركة التى نشطت حينما قامت الدولة الساسانية بعد السيطرة الإغريقية — البارثية الطويلة على البلاد.

وقد ظهر الشاه إسماعيل — مؤسس الدولة الصفوية وأول ملك فيها — على أنه قائد لسبع قبائل تركية فى آذربيجان، وتعرف هذه القبائل — بوجه عام — باسم الـ «قزل باش» أو «حمر الرؤوس» وكان قوامها سبعين ألف فارس مسلح. ولم يكن إسماعيل نفسه زعيما تركيا، ولكنه ظفر بالاحترام، لأنه من نسل سلسلة من الزعماء الدينيين، ورئيس جماعة من الدراويش، وكان جد هذه الأسرة الشيخ صفى الدين الأردبيلى صوفيا عالما، وواعظا، وصاحب كرامات، عاش من ١٢٥٢ إلى ١٣٣٤ م (٦٥٠ — ٧٣٥ هـ).

وفى عام ١٥٠٠ م (٩٠٦ هـ)، هزم إسماعيل قبائل «آق قويونلو» (أصحاب الخراف البيضاء)، وجلس على العرش فى تبريز، وحوالى ١٥١٠م (٩١٦ هـ)، كان قد استولى على العراق، وفارس، وكرمان، وهمدان، وخراسان، وشقت قواته طريقها شرقا حتى بلغت «خيوه»، وأعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا لإيران، واستعمل القوة الغاشمة فى تغيير مذهب السنيين الممتنعين.

وقد أذكى التحول إلى التشيع عداوة الأتراك العثمانيين ضده ، وكان سلاطينهم فى القسطنطينية قد صاروا خلفاء على جميع المسلمين السنيين ، وأصبح الشيعة فى إيران يفصلون الكتلة السنية فى وسط آسيا والهند وأفغانستان عن السنيين فى تركيا والعراق ومصر ، والدول الإسلامية الأخرى الواقعة إلى الغرب من إيران .

وكانت أولى نتائج هذا الاحتكاك المذهبى غزو إيران بجيش يقوده السلطان سليم الأول الذى هزم إسماعيل بالقرب من تبريز ، وقد استمرت الحروب مدة طويلة ، وكان الضغط الخارجى على إيران عاملا قويا فى توحيد جميع أجزائها ، وإخلاص أهلها للملوك الصفويين ، والمذهب الشيعى . وحكم الملك الصفوى الثانى الشاه طهماسب من ١٥٢٤ إلى ١٥٧٦ م (٩٣٠ — ٩٨٤ هـ) وتمكن من الاحتفاظ بحدوده الشرقية ، ولكنه قاسى هزائم عديدة فى الغرب — على يدى السلطان العثمانى سليمان القانونى ، الذى استولى على العراق وتوغل حتى وصل إلى تبريز وأصفهان ، فنقل طهماسب عاصمته من تبريز إلى قزوين لينجو من التهديد التركى ، وحكم هناك فى بلاط متحضر ، يمتاز بالدقة والتأنق والرقة ، وقد درس طهماسب نفسه فن النقش ، وصار خطاطا ماهرا .

وبعد مدة وجيزة — تشمل عهود إسماعيل الثانى ومحمد خدابنده ، وسلطان أمير حمزة — اعتلى الشاه عباس الكبير العرش فى عام ١٥٨٧ م (٩٩٦ هـ). وكان العثمانيون — فى الغرب — يسيطرون على آذربيجان جميعها ، وكان الأتراك الأوزبكيون — فى الشرق — قد غزوا خراسان ، واستولوا على هراه ومشهد ، فأمضى الشاه عباس أولا — معاهدة اعترفت بالمغانم العثمانية ؛ ثم سار لطرد الأوزبكيين بعيدا عن خراسان ، فلما تخلص من شر تهديدهم ، توجه غربا ، وانتصر على العثمانيين ، واسترد آذربيجان ، وأرمينية ، وجورجيا ، وبعد عام ١٥٩٨ م (١٠٠٧ هـ) استفادت القوات الفارسية من منتجات مصنع للمدافع أنشأه الأخوان[1] شيرلى الإنجليزيان ، ولكن الجيش العثمانى ظل أكثر قوة ،

---

(١) يقصد الأخوين روبرت وأنتونى شيرلى (المترجم) .

وفى عام ١٦٣٦ م (١٠٤٦ هـ) — بعد وفاة الشاه عباس — سوت معاهدة عقدت بين الطرفين مشكلة الحدود الغربية لإيران حتى القرن التاسع عشر .

وكان الشاه عباس الشخصية القوية فى البيت الصفوى ، ويعد مساويا لأى ملك عظيم وجد فى إيران فى تاريخها الطويل ، وقد سجلت سنوات حكمه جيدا ، خصوصا بواسطة الرحالة الإنجليز الذين زاروا بلاطه .

وقد كتب سير أنتونى شيرلى عنه ما يأتى : « وكانت شخصيته مطابقة لذكائه الطبيعى ، وتعد ملائمة جدا للنهاية المقدرة لوجوده ، فكان ذا هندام جميل وبنية متناسقة ، وكان قويا نشيطا ، وكان لونه أميل إلى سمرة الرجال العاديين ، وقد لفحته الشمس فبدا أكثر سمرة ، وكان تركيبه العقلى ملكيا إلى أبعد حد ، وكان عاقلا شجاعا ، سخيا ، معتدلا ، رحيما ، ذا حب مفرط للعدل ، يتمتع بمزايا ملكية أخرى ، كما كان بعيدا عن الكبر والغرور ، وعن كل الدلالات والأعمال غير الملكية » .

وفى عام ١٥٩٨ م (١٠٠٧ هـ) نقل عباس العاصمة إلى إصفهان ، واختصها بكل عنايته الملكية ؛ فسرعان ما دوت المدينة بالنشاط فى الفنون والصنائع ، وشجع الملك الإصلاحات فى كل ميدان من ميادين الحياة العامة ، وأنشأ جيشا نظاميا — بدلا من جيشه الذى كان مكونا من قوات قبلية يقودها قواد قبليون — واشتمل الجيش الجديد على فرقة تسمى « أصدقاء الملك » مكونة من عشرة آلاف من الفرسان ، وعشرين ألفا من المشاة .

كما شيدت الطرق ، والقنوات ، وأماكن نزول القوافل فى جميع أنحاء إيران

وفى عام ١٦٢٢ م (١٠٣٢ هـ) جعل إيران تتحالف مع قوة بحرية انجليزية فى الخليج الفارسى لطرد البرتغاليين من جزيرة « هرمز » ، وشجع التجار الانجليز والهولنديين على التجارة فى بندر عباس ، وجعلها أهم مركز لتصدير الحرير ، كما أنشأ علاقات دبلوماسية مع الدول الأوروبية ، ونقل القبائل الكردية إلى حيث تنشئ سدا قائما ضد الأوزبكيين ، كما نقل طائفة كبيرة من الأرامنة من

جلفا فى آذربيجان إلى جلفا جديدة أقامها لهم على شاطئ نهر « زايده رود » فى مواجهة إصفهان ، وكان متسامحا مع غير المسلمين ، غيورا على الأمن العام ، متشددا فى قضائه المنصف ، مسرفا فى هباته السخية ، وفضلا عن جعله إصفهان موضع إعجاب العالم من الناحية المعمارية ، فانه زين شيراز وأردبيل وتبريز بمبانى جميلة ، وقد وجه عناية خاصة إلى مزار الامام على الرضا فى مشهد ، ويبدو أنه كان يهدف بذلك إلى حفظ الأموال داخل البلاد بجعله مزارا جذابا للحجاج ، حتى لا يرحلوا إلى مكة أو إلى المزارات الشيعية المقدسة فى العراق ، وقام هو برحلات عديدة للحج ، كانت إحداها سيرا على الأقدام من إصفهان إلى مشهد ، وأنشأ أقساما جديدة فى مبنى المزار .

وتولى الشاه عباس بناء مدينة ملكية جديدة فى إصفهان مجاورة للمدينة القديمة ، وقد تم بالمرحلة الأولى من هذا العمل بناء الخطوط الرئيسية للخطة العامة ، وإنشاء المبانى الضرورية للاحتياجات العائلية والمدنية والدينية للبلاط ، أما المرحلة الثانية التى بدأت فى عام ١٦١١ م (١٠٢٠ ﻫ) فقد اهتمت بتوسيع هذه المبانى ومضاعفتها حتى جعلتها أوسع وأجمل ، ولقد بقيت هذه الآثار الفخمة فى حالة حسنة — حتى الوقت الحاضر — وتعطى مدينة أصفهان من بين سائر المدن — لزائرها صورة كاملة لإيران القديمة ، فقد صف حول الميدان الملكى قصر ومسجد ملكى (مسجد شاه) ومسجد أصغر ومدخل كبير للأسواق المسقوفة ، وتوجد إلى غربى الميدان حديقة فسيحة ، مرصعة بقصور ملكية ، وجواسق جميلة يخترقها شارع واسع ، يواصل امتداده عبر النهر عن طريق معبر جديد فيؤدى إلى حدائق القصور على الضفة المقابلة . وتشتمل المدينة المحاطة بحيطان من الآجر والطين على ٦٠٠,٠٠٠ نسمة ، و١٦٢ مسجدا و ٤٨ مدرسة دينية ، و١٨٠٢ رباطا لمبيت القوافل و ٢٧٣ حمام عمومى ، وقد كان كثير من شوارعها ضيقا ملتويا ، ولكن كل منزل تقريبا ، كان يحتوى فناء يعد بمثابة حديقة .

ومن سوء الحظ ، أن الجانب الأقل نبلا وحكمة فى الشاه عباس قد ظهر فى علاقاته العائلية ؛ فقد قتل بعض أبنائه وأهمل تعليم الآخرين وتمرينهم على

طريقة الحكم ؛ حسدا وخوفا من أن يحل أحد محله فى الحكم ، فقوض بذلك مستقبل الدولة الصفوية ، فقد خلفه على العرش سلسلة من الملوك غير اللائقين نسبيا ، حتى راج مثل ايرانى هو : « حينما توقف الأمير الكبير عن الحياة ، توقفت إيران عن الانتعاش والرخاء » .

وقد أعقب الشاه عباس الشاه صفى (١٦٢٩ — ١٦٤٢ م ، ١٠٣٩ — ١٠٥٢ هـ) والشاه عباس الثانى (١٦٤٢ — ١٦٦٧ م ، ١٠٥٢ — ١٠٧٨ هـ) والشاه سليمان (١٦٦٧ — ١٦٩٤ م ، ١٠٧٨ — ١١٠٦ هـ) فتمتعت إيران تحت حكمهم بسنوات خلت — إلى حد ما — من الحروب رغم أن الأتراك العثمانيين كانوا يظهرون نوبات من العداء ، واجتهد هؤلاء الملوك فى زيادة الرخاء العام للدولة ، بيد أنهم كانوا أحيانا قساة يستعملون الشدة . وقد جاء كثير من الرحالة والتجار والإرساليات التبشيرية من أوروبا إلى إصفهان ، وتركوا لنا تقارير خلابة عن البلاط الملكى ، وعن الحياة فى القرى والمدن ، ولكن زمام الأمور انتقل — بمرور الزمن — إلى أيدى كبار رجال الدين .

وفى أثناء عهد الشاه سلطان حسين من ١٦٩٤ إلى ١٧٢٢ م (١١٠٦ — ١١٣٥ هـ) ثارت قبيلة من القبائل الأفغانية — تسمى غلزاى — فى قندهار ، وأحرزت استقلالها ، ثم حذت قبيلة « أبادى »[1] حذوها فى هراة ، وفى عام ١٧٢٢ م (١١٣٥ هـ) قاد محمود بن ميرويس القبائل لفتح كرمان ، وتقدم إلى إصفهان ، وحينذاك تنازل الشاه حسين عن الملك ، وتوج هو بنفسه محمودا ملكا على إيران ، ولكن البلاد سرعان ما انقسمت إلى مناطق منفصلة، فسيطر محمود وخليفته «أشرف» على إصفهان وفارس وكرمان (١٧٢٥ — ١٧٣٠ م ، ١١٣٨ — ١١٤٣ هـ) واحتلت روسيا القيصرية السواحل الغربية والجنوبية لبحر قزوين ، وزحف الأتراك العثمانيون على غربى إيران ولم يقفوا حتى عقد « أشرف » — وكان سنيا — اتفاقا وديا معهم .

وقد كتبت رسالات فلسفية كثيرة فى العصر الصفوى ، كتبها السيد أبو القاسم

---

(١) يقصد بالغلزاى الأفغان الغلجائيين ، وبأبادى الأفغان الأبداليين (المترجم) .

الفندرسكى ، وشيخ بهائى ، وملاصدرا وتلاميذه العديدون ، ولكن أعمال هؤلاء لم يكن فيها إلا ابتكار قليل ، ونحت فى الغالب نحو إعادة كتابة التفسيرات السابقة ؛ التى كتبها ابن سينا لتعاليم أرسطو . ووجه النفوذ الدينى القوى جميع الأفكار المكتوبة لجعلها تطابق العقيدة المستقيمة ، وفقد التصوف — فى النهاية — قوته الموجهة ، وأصبح مكررا عقيما ، فردد عدد من شعراء الصوفية اعتقادهم فى أنه ليست هناك قيمة حقيقية للدنيا ، والعمل ، والشجاعة ، والمثابرة ، ودعوا إلى الخضوع والتسليم للقضاء والقدر ، والهرب من متاعب الحياة الجدية وكوارثها ، فى دنيا كلها أنانية وخداع .

واقتصرت الإجادة فى الشعر والنثر على العناية بالألفاظ دون الموضوع ، فأصبحت أهم متعة للكتاب تقع فى استعمال الأساليب المزينة المنمقة ، وتطورت بذلك الأساليب كثيرا ، واشتملت بعض الفنون التى استعملت فى الكتابة فى هذا العصر ، والعصر التالى له ، على التورية والتجنيسات والأسجاع ، والطباق ، والترصيع ، والمربعات — وهى أربعة أبيات أو مصاريع تقرأ عرضا وطولا — والموشحات ، والحذف — وهو تجنب استعمال بعض الحروف الهجائية — والألغاز التى يحصل فيها على التواريخ العددية لحروف معينة فى كلمات بعينها ، واشتملت الصور البلاغية على الإغراق — وهو الصورة الممتدحة أكثر من غيرها من الصور — والتشبيه ، والإبهام .

وكان النشاط المعمارى الدائب علامة مميزة للعصر الصفوى ، ويشتمل العدد الكبير من الأبنية التى شيدت فى ذلك العصر — وما زالت فى حالة حسنة — على عدد وفير من المزارات الصغيرة الواقعة فى قرى غير ظاهرة ، وتعد تصميمات الأبنية ، وطرق البناء ، والمواد المستعملة جميعها تتمة للأعمال التى تمت فى العصور السابقة .

وكانت العلامة المميزة للفن فى ذلك العصر هى اللون والفسيفساء اللامعة المتعددة الألوان ، التى أخذت تكسو الجدران من الداخل والخارج فى الآثار الرئيسية ، وكان الجهد الذى يبذل فى قطع آلاف كثيرة من القطع

الصغيرة اللامعة وتهيئتها وجمعها يستغرق سنوات عديدة فى البناء الواحد ، وهى تدل — فى النهاية — على أنها وضعت بتمهل ، وأنها غالية جدا ، لأنها أبطلت ، وحل محلها أسلوب كان ذا أثر فعال . وهو المسمى « هفت رنكى » أو « ذو الألوان السبعة » تنقش فيه التفاصيل الزخرفية بسبع صبغات مختلفة على قراميد مربعة ، ثم تحرق هذه الألوان بعد ذلك على القراميد فى عملية مستقلة.

وكان استعمال القبة المزدوجة من طابع هذا العصر أيضا ، كما كانت الحجرات المربعة تعلوها قباب داخلية قليلة الارتفاع تقوم عليها قبة عالية أكثر استدارة ، وتملأ المسافة الخالية التى بينها بإطارات متشابكة من الخشب .

ومن السمات الطريفة للعصر بصفة خاصة : إقامة أبنية ذات ألوان زاهية فى وسط الحدائق الغناء وفى مقابل الأحواض والأنهار ، كما أقيمت مزارات للأئمة والأولياء فى مثل هذه الحدائق ، ويعد قبر محمد المحروق فى نيسابور مثالا نموذجيا ، حيث تضم الحديقة نفسها رفات عمر الخيام ، وقد بنيت قصور كثيرة بواسطة الشاه عباس وملوك آخرين من الأسرة الصفوية فى الحدائق الملكية . ولا يزال الإنسان يرى فى إصفهان القصور المسماة بـ « جهل ستون » و « تالار أشرف » و « هشت بهشت » بينما لا تزال القصور الأخرى قائمة على طول ساحل بحر قزوين فى آمل وأشرف ؛ وكان الملوك يحبون المعيشة فى الهواء الطلق ، كما يثبت ذلك التقرير التالى :

« وقد احتفل الملك بذلك العيد ثلاثين يوما متواصلة تحت خيام نصبت فى حديقة كبيرة قطرها يزيد على ميلين تخترقها جداول صغيرة من الماء الجارى ، وكان كل رجل يأتى يجلس تحت خيمة أو أخرى حسب منزلته ، ويقدم له اللحم بكثرة ، والفاكهة والشراب ، وكانوا يشربون كما يشتهون سواء بإفراط أو باعتدال دون إكراه ، وهى أبهة ملكية لم أرها ، ولن أراها مرة أخرى إلا بواسطة الملك نفسه » .

وقد وصلت صناعة السجاد والمنسوجات — فى العصر الصفوى — إلى درجة من الإتقان لا يمكن تصديقها ، وكانت السجاجيد الكبيرة المنسوجة فى المصانع

الملكية ، والمخصصة للقصور والمزارات غالية غلاء خياليا ، وهى فى صورتها التى نراها بها الآن — وهى معلقة على حيطان المتاحف — فى درجة من الروعة بحيث يصعب على الإنسان أن يصدق أن مثل هذه القطع التى لا تقدر بثمن قد صنعت ليمشى الناس عليها ، وكانت المناظر الطبيعية ومناظر الحدائق المزهرة تكون نماذج الزخارف المرسومة عليها . وكانت أهم المناظر المستعملة هى مناظر الصيد ، ومناظر الحدائق الكاملة كما ترى من أعلى ، ومناظر الشعيلات التى تتألف من وسام فى الوسط محاط بحقل من الزهور أو النقوش العربية ، والحيوانات ومناظر الحقول المكونة من صفوف الأصص المملوءة بالأزهار ، أو المكونة من بيوت من الزهر ومناظر الأشجار المورقة ، وترجع السجاجيد الكبيرة الممتازة التى بقيت محفوظة حتى الآن ، إلى أوائل القرن السادس عشر ، وقد استمرت صناعة السجاجيد فى أوجها طوال هذا القرن .

وهناك ثلاث من السجاجيد عظيمة الشهرة هى : سجادة الصيد ، وهى أكثر من ٢٢ قدما طولا ، و ١١ قدما عرضا ، وعليها اسم غياث الدين الجامى ، وهى مؤرخة بعام ١٥٢٢م (٩٢٩ هـ) وهى الآن فى متحف فى ميلان ، ثم السجادة الكبيرة جدا ذات الوسام الكبير فى وسطها ، وثريات المسجد معلقة فيها ، وهى التى أمر بصنعها الشاه طهماسب لتوضع فى مزار جده الشيخ صفى فى أردبيل وهى ممهورة باسم مقصود الكاشانى فى عام ١٥٣٩ م (٩٤٦ هـ) ، ثم السجادة ذات الوسام والنقوش العربية ، وهى أكثر من ٢٦ قدما طولا ، و١٣ قدما عرضا ، وهى منسوجة فى الثلث الأول من القرن السادس عشر ، وكانت فيما مضى ضمن مجموعة دوق أنهالت (Duke of Anhalt) وقد نسجت فى أواخر هذا القرن مجموعة من السجاجيد الحريرية فى مصانع كاشان ، بقيت منها سجاجيد صغيرة كثيرة ، وثلاث سجاجيد كبيرة جدا ، والسجاجيد الأكثر ترفا هى التى تسمى السجاجيد البولونية (Polonaise Carpets) وهى التى نسجت نماذج زخارفها بخيوط من الفضة وخيوط فضية مذهبة . وقد نسجت بكثرة فى هذا العصر — سجاجيد للصلاة اتخذت من المحراب أساس زخرفتها فى الوسط .

وقد أنتج النساجون الذين كانوا يشتغلون فى إصفهان ويزد ومراكز أخرى أقل أهمية أقمشة حريرية مقسمة ، كما أنتجوا الأطلس والمخملات ، والحرائر ذات الخيوط الفضية والذهبية فى نماذج الزخرفة فقط ، والحرائر التى أرضية الرسم — جميعها — فيها من الخيوط المعدنية . وقد بقيت قطع كثيرة من عهد الشاه عباس ، تعد فى المرتبة الأولى من حيث المهارة الفنية ، وقد أنشأ زخارفها غياث الدين على اليزدى أكبر النساجين المشهورين ، وكان هو وزملاؤه فى يزد متخصصين فى اللوحات التى تشتمل على نبات مفرد نضير موضوع داخل إطار منحن ، وكان من الموضوعات الشائعة فكرة الزهور المنثورة المتكررة على أرضيات صلبة من الأحمر الوردى ، والأزرق الداكن ، والأصفر والأخضر ، وكان من الأشياء الرائجة كذلك منظر الحديقة الذى كان يمثل — غالبا — أشخاصا يحملون إبريقا ، وقدحا من الخمر ، وأشجار الصفصاف ، والأيكات المزهرة ، والطيور ، والحيوانات ، وبركة ماء . وكانت أغلب هذه الأقمشة مخصصة للمناسبات ، لتلبس فى القصر الملكى ، ولا زالت بعض هذه الملابس الصفوية باقية إلى الوقت الحاضر .

وقد حشد الشاه عباس فى جزء من عمارة المزار الموجود فى أردبيل بمجموعة كبيرة من الخزف الصينى الأزرق ، والخزف الصينى الأبيض ، وتشبه نماذج الفخار المصنوع فى العصر الصفوى النماذج الصينية ، فقد استعملت الألوان اللطيفة والرسومات المهذبة المعروفة فى الشرق الأقصى ، بل لقد تمادى الشاه عباس أكثر من ذلك فأحضر ثلثمائة من صانعى الفخار الصينيين وعائلاتهم إلى إيران لتعليم الصناع المحليين ، فصار الخزف الإيرانى ينتج بكميات كبيرة ، ولكنه لم ينافس قط الخزف الصينى الأصلى ، وكان بعض أنواعه يعد تقليدا للأسلوب الصينى ، ولكن أحسن مصنوعاته الإيرانية ذات اللون الرمادى الأخضر لم ترق إلى حد مشابهة أصلها الحقيقى الرائع ، والنموذج الإيرانى المثالى لهذه الصناعة فى ذلك العصر هو مايسمى بالفخار القباجى ، ويحمل كثير منه شكل إنسان مرسوم بسرعة مع رسومات منقوشة بلون أزرق وأخضر وأحمر ، على حافة بيضاء مغطاة بطبقة لامعة شفافة .

عصور الأفشاريين والزنديين والقاجاريين :

كان نادر قلي رجلا قبليا من الأفشار ، ولد فى مشهد وارتفع شأنه من جمّال إلى رئيس عصابة لقطع الطريق يتخذ مقره فى « قلعت نادرى » المنيعة فى خراسان ، وفى عام ١٧٢٦ م (١١٣٩ ﻫ) اشتغل فى خدمة طهماسب ميرزا ابن الملك الصفوى الشاه حسين ، وفى ١٧٢٩ م (١١٤٢ ﻫ) هزم الأفغانيين بقيادة أشرف ، على مقربة من إصفهان ، وطردهم من غربى إيران ومن خراسان وهراه ، واسترد نادر — أيضا — أرمينية وجورجيا من الأتراك العثمانيين كما اعترفت بذلك معاهدة القسطنطينية المبرمة فى عام ١٧٣٦ م (١١٤٩ ﻫ) .

وفى عام ١٧٣١ م (١١٤٤ ﻫ) عزل نادر طهماسب ، وحكم كنائب للشاه عباس الثالث ابن طهماسب إلى أن توفى عباس هذا (آخر الصفويين) فى عام ١٧٣٦ م (١١٤٩ ﻫ) ، وحينذاك اعتلى نادر عرش إيران وتلقب بنادر شاه . وصار مؤسسا للدولة الأفشارية .

وقام نادر بحركة سياسية تهدف إلى إزالة الانقسام الواقع فى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى ، فأعلن المذهب السنى مذهبا رسميا للبلاد ، ولكن إعلانه هذا ، واضطهاده لزعماء الشيعة لم يؤديا إلى نتائج حاسمة .

وعين نادر أفرادا من أسرته حكاما على أقاليم إيران ، ثم ظن أن مؤامرة دبرت ضده بواسطة ابنه رضا قلى ميرزا ؛ فأمر بسمل عينيه ، غير أن تأنيب ضميره بعد ذلك دفعه إلى القيام بأعمال تدل على الجنون والقسوة ، فكان النظام المفروض على كل من الشعب وجنود جيشه قاسيا جدا . وفى عام ١٧٣٦ م (١١٤٩ﻫ) ، توغل فى أفغانستان ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابل ، ثم واصل سيره إلى الهند حيث دخل دلهى (دهلى) فنهب القصور ، وما بالمدينة من كنوز خيالية كان من بينها عرش الطاووس .

وفى عام ١٧٤٠ م (١١٥٣ ﻫ) استولى على بخارى وخيوة وجميع إقليم الأوزبكيين ، وقام بمحاولة جدية لبناء أسطول فى الخليج الفارسى ، وفى عام ١٧٣٨ م (١١٥١ ﻫ) ضم جزيرة البحرين إلى إيران . وفى عام ١٧٤٣ م

(١١٥٦ هـ) سار لفتح العراق ؛ فاستولى على الموصل والبصرة ، وكان عصره يمثل عهدا قصيرا من القوة الوطنية والكرامة ، ولكن أهالى البلاد لم يظفروا بأية فائدة من غزواته الخارجية ، وكان جيشه الضخم يعيش بعيدا عن موطنه الأصلى؛ لأنه كان يسير من الغرب إلى الشرق وبالعكس ، وكانت الضرائب الثقيلة تفرض على السكان . وقد قتل نادر بيد واحد من ضباطه فى عام ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) فى أثناء الثورات التى قامت فى الأقاليم .

وحكم ابن أعمى لنادر — هو شاهرخ — خراسان من عام ١٧٤٨ إلى ١٧٩٦ م (١١٦١ — ١٢١١ هـ) ، ولكن حدث فى هذه المدة أن ظفر الأفغان باستقلالهم وتمزق غربى إيران بواسطة الحروب الداخلية ، وسقط فى أيدى دولتى الزنديين والقاجاريين ؛ فصار كريم خان رئيس الزند — القبيلة البدوية المتنقلة فى إقليم فارس — سيدا على إصفهان وشيراز وأغلب الجزء الجنوبى من إيران ، ونجح فى صد القاجاريين ، وتلقب بلقب « وكيل » أو « نائب الملك » متخفيا بذلك وراء اسم أحد الصفويين الضعاف ، واستمر فى الحكم من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٩ م (١١٦٤ — ١١٩٣ هـ) ، فزين عاصمته شيراز بالقصور والجواسق المقامة فى الحدائق ، والمساجد ، والسوق الطويلة المسقوفة ، ولا تزال المدينة تحتفظ بجزء كبير من طبيعتها المعمارية التى سادت فى ذلك العصر .

وكان كريم خان رجلا ذا خلق شخصى رائع ، ويبدو أنه ظفر بحب وتقدير من أفراد شعبه .

أما القاجاريون فقد كانوا إحدى القبائل السبع التى ساعدت الشاه إسماعيل أول ملوك الصفويين ، وقد انخفض شأنها فى عهد نادر شاه ، ولكنها ظهرت على المسرح فى مازندران بعد وفاته ، وقامت بمجهود عقيم للانتشار فى جنوبى إيران ، وقد وجد القاجاريون قائدهم الأعظم فى شخص آقا محمد خان ، وكان خصيا ، نجح عن طريق العنف والقتل ، وكان هو نفسه أميرا قاجاريا ، فوحد فروع القبيلة ، وقوى أمره فى عام ١٧٧٩ م (١١٩٣ هـ) ، فاستولى على طهران ، وأصبح أول ملوك الدولة القاجارية ، ولو أنه لم يلقب رسميا بملك إيران حتى عام ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) ، وهاجم محمد — فى الجنوب —

قوات لطفعلى خامس الزنديين الذين أعقبوا كريم خان ، واضطره إلى اللجوء إلى كرمان ثم قبض عليه وعذبه حتى مات ، وعاقب أهل كرمان ؛ فأمر بسمل أعين ٢٠,٠٠٠ من سكانها ، ولكنه لم يلبث أن قتل هو نفسه فى عام ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) وكان قد ظفر بالسيطرة على جميع إيران منضما إليها جورجيا . وكان ابن أخيه وخليفته فتحعلى شاه — الذى حكم من ١٧٩٧ إلى ١٨٣٤ م (١٢١٢ — ١٢٥٠ هـ) — رجلا ذا أخلاق تختلف عنه تماما ، وكان عهده فاتحة قرن تمتعت فيه إيران بمزيج من الهدوء والسلام النسبيين ، ولكنها قاست فيه انهيارا خلقيا وسياسيا .

وبدأ فى عهد فتحعلى شاه الاتصال المباشر بالدول الأوروبية ، فعقدت معاهدة تحالف بين فرنسا وإيران فى عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢هـ) ، وتوقع نابليون أن تفتح هذه المعاهدة أمامه طريق الغزو الفرنسى للهند عن طريق البر ، فى مقابل أن تمد فرنسا إيران بالأسلحة ، وتستقبل بعثة عسكرية لتدريب جيشها ، لتتمكن بذلك من مقاومة روسيا القيصرية التى ضمت جورجيا فى عام ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) ، ومع هذا فقد اتفق نابليون — سريعا — مع روسيا ، وانتهت العداوات التى شبت بين روسيا وإيران فى عام ١٨١٣ م (١٢٢٩ هـ) بمعاهدة كلستان التى اعترفت لروسيا بامتلاك جورجيا .

وفى عام ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) أمضت إيران معاهدة تحالف دفاعى مع بريطانيا العظمى ، لم تكن ذات قيمة قط لإيران ؛ رغم أنها بقيت سارية المفعول إلى ١٨٥٧ م (١٢٧٤ هـ) .

وفى عام ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) تحاربت إيران وروسيا مرة أخرى ، وأتبعت الانتصارات الإيرانية الأولى بسلسلة من الهزائم ؛ بلغت أوجها باستيلاء الروس على تبريز ، ونصت معاهدة تركمان جاى — الموقعة فى عام ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) — على إعطاء روسيا إقليمى إريوان ونخجوان ؛ اللذين كانا ضمن الأراضى الإيرانية مع تعويض كبير ، كما نصت على حق السفن الروسية فى الرقابة الحربية على بحر قزوين ، ومنح روسيا كثيرا من

الامتيازات ، وأعطى ملحق للمعاهدة — عقد بعد ذلك — لروسيا حقوقا اقتصادية وجمركية خاصة .

ومنذ ذلك الوقت إلى القرن العشرين ؛ أصبحت إيران موزعة بين المصالح المتعارضة لروسيا وبريطانيا العظمى ، فكانت روسيا تبنى سياستها على أساس التوسع فى آسيا ، وتطمع فى أن تكون لها ميناء فى المياه الدافئة فى الخليج الفارسى ، بينما ووجهت بريطانيا العظمى بالحاجة إلى السيطرة على الخليج الفارسى ، وجميع الأراضى المجاورة للهند ؛ أعظم مستعمرة ظفرت بها .

وحكم محمد شاه حفيد فتحعلى شاه من عام ١٨٣٤ إلى ١٨٤٨ م (١٢٥٠— ١٢٦٥ هـ) ، وبذل جهده لتحسين الحالة الداخلية للبلاد ، وإلغاء التعذيب ، ومنع استيراد العبيد إلى إيران ، وقد خطبت روسيا فى أثناء عهده ودّ إيران حتى تتمكن من تدعيم نفوذها فيما أحرزته من ولايات القوقاز وتركستان .

وقام محمد شاه — تساعده روسيا — بمحاولة لإعادة فتح هراه ؛ ولكن هذه المحاولة عورضت بشدة من جانب بريطانيا العظمى ، التى أرسلت ضابطا بريطانيا لتنظيم المقاومة التى انتهت بالنجاح فى هراه .

وفى عهد محمد شاه ؛ حدثت آخر الحركات الدينية المهيبة التى ظهرت فى إيران ، وقد بدأ الدعوة إليها ميرزا على محمد ، المولود فى شيراز فى عام ١٨١٩ م (١٢٢٥ هـ) ، وقد أمضى هذا الرجل شبابه فى الدراسات الدينية ، فاعتنق — أولا — المذهب الشيعى ، ثم تحول إلى تابع لفرع خاص من فروع الصوفية . ولما بلغ سن النضج ؛ رحب بتعاليمه عدد كبير من أتباعه ، الذين لقبوه بـ « الباب » أى الباب بين دنيا المادة ودنيا الروح ، وقد ادعى أنه نقطة التجلى الإلهى فى هذا العالم . فدعا إلى السلام الدائم ، وتحسين حالة النساء ، وإزالة الفوارق بين الطبقات ، وإلى حياة تقوم على أساس التفسير الروحى لا الحرفى للدين ، ولكن معتقداته تعقدت باعتماده الغريب على دراسة المعنى الخفى للأعداد والأرقام .

وقد قتل الباب بأمر من الحكومة الإيرانية فى تبريز فى عام ١٨٥٠ م (١٢٦٧هـ)، وبعد سنتين تقريبا؛ قتل حوالى ٤٠,٠٠٠ من أتباعه، وبعد قتل الباب صار ميرزا يحي — أحد أتباعه الغيورين — رئيسا للطائفة، وهاجر إلى أدرنة داخل الدولة التركية؛ وهناك حدث الخلاف فى هذه الدعوة الجديدة، فانتهى أمر الفرع البابى — فعلا — بوفاة ميرزا يحي فى عام ١٩١٢ م، واتخذ أخوه لأبيه ميرزا حسين — زعيم الطائفة المنافسة — لقب «بهاء الله» أو «البهاء الإلهى» فى عام ١٨٦٣م، وسلمت بذلك البابية زمام الأمور للبهائية، وسرعان ما مزج بهاء الله ما فى العقيدة من عناصر التصوف الإيرانية بأفكار تحررية معينة؛ كانت رائجة فى ذلك الوقت فى أوروبا، وصاغ منها دينا عاما دوليا لا يعترف بطقوس خاصة، ولا بنظام للكهنوت، وجعل مركزه عكا فى فلسطين، وتابع الدعوة لهذه المعتقدات عباس افندى ابن بهاء الله وخليفته، فانتشرت الحركة فى جميع أنحاء العالم، وأنشئ محفل مهيب للبهائية فى ولمت (Wilmette)، فى ولاية اللينوى (Illinois)، بينما قارب محفل آخر من محافلهم على الانتهاء فى طهران[1].

وقد اعتلى ناصر الدين شاه ابن «محمد شاه» العرش فى عام ١٨٤٧ م (١٢٦٤هـ) وهو فى السادسة عشرة من عمره، وامتاز عهده الطويل بالعلاقات الودية مع روسيا؛ التى تركز نفوذها — بإحكام — فى إيران. وفى عام ١٨٥٦م (١٢٧٣ هـ)، تحرك الجيش الإيرانى إلى أفغانستان واستولى على هراة، فطلبت بريطانيا العظمى التى حاربت ملك أفغانستان فى المدة من ١٨٣٩ إلى ١٨٤١ م (١٢٥٥ — ١٢٥٧ هـ) سرعة الجلاء عن هراة، وأعلن الحاكم الإنجليزى العام فى الهند الحرب على إيران، وأنزلت القوات البريطانية على رأس الخليج الفارسى، وعجزت روسيا عن إمداد إيران، فاضطر ناصر الدين إلى التسليم، وانسحبت إيران من هراة واعترفت باستقلال أفغانستان بمقتضى

(١) انتهى بناء هذا المحفل فعلا، وظل مركزا للبهائية فى طهران الى أن اضطهدتهم الحكومة الإيرانية أخيرا، فاستولت عليه، وجعلته مقرا للحاكم العسكرى (المترجم).

معاهدة باريس التى أبرمت فى عام ١٨٥٧ م (١٢٧٤ هـ) وقد منحت هذه المعاهدة — أيضا — امتيازات أجنبية وحقوقا تجارية خاصة لبريطانيا العظمى

ومنذ ذلك الوقت ، اتخذ التنافس بين روسيا وبريطانيا العظمى على المسرح الإيرانى صورة التدخل الاقتصادى ، وتطلب النشاط الصناعى المتزايد ، الذى ظهر فى الغرب ، الحصول على المواد الخام وعلى الأسواق الجديدة لتصريف المنتجات المصنوعة ، فنظر إلى أقاليم بعيدة معينة على أنها مجال للغزو الاقتصادى الذى تطلب بدوره شيئا من التدخل السياسى ، وقد طبقت هذه السياسة فى إيران ؛ فى صورة التنافس فى الحصول على الامتيازات .

ففى عام ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) حصل : البارون رويتر (Baron Reuter) وهو صاحب مصرف بريطانى على امتياز عجيب من ناصر الدين ، تقع تفصيلاته فى أكثر من عشرين مادة ، أعطت بريطانيا الحق فى إنشاء السكك الحديدية ، وطرق المواصلات بالسيارات ، واستغلال الثورة المعدنية والبترول لمدة سبعين سنة ، كما أعطتها الحق فى أن تشرف على الأعمال الجركية لمدة أربع وعشرين سنة .

ولما قام ناصر الدين برحلته الأولى إلى أوروبا فى السنة التالية ، استقبل بفتور شديد فى روسيا ، فألغى الامتياز عقب رجوعه ، ومع هذا : فقد عاد فى سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ) فاسترضى رويتر بمنحه حق إنشاء المصرف الإمبراطورى لإيران (Imperial Bank of Persia) . وفى عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ) أعطيت شركة إنجليزية حق احتكار الطباق والدخان ، ولكن الزعماء الدينيين للبلاد قادوا موجة من السخط عليها ، فأعلنوا تحريم استعمال الطباق فى إيران حتى ألغى حق الاحتكار ، كما جدت بريطانيا العظمى أيضا — بعد عام ١٨٦٣ م — فى إنشاء خطوط البرق فى جميع الأجزاء الغربية من إيران .

ولم تقف روسيا مكتوفة اليدين أمام هذه الاحداث : ففى عام ١٨٧٩ م (١٢٩٧ هـ) وافق ناصر الدين شاه على إنشاء لواء من القوزاق الفرس على النمط الروسى على أن يدربه ، ويقوده ضباط من الروس ، وأعدت هذه القوات

سريعا فى طهران . وفى بعض المدن الشمالية الأخرى ، كما فتح مصرف روسى هو مصرف الخصم (Discount Bank) فى طهران فى عام ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ) وهو مؤسسة روسية . وحدث فى عام ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ) ، أن حصل أحد الرعاة الروس على امتياز يمنحه حقوق الصيد فى بحر قزوين كما نشطت روسيا جدا فى هذه الأوقات أيضا فى الاستيلاء على الأراضى الإيرانية القديمة ، فاستولت جيوشها — فى عام ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) — على طشقند وسمرقند وبخارى وخيوه ، فأبرمت إيران — فى عام ١٨٨٢ م (١٣٠٠ هـ) — اتفاقية أخال (Akhal) التى اعترفت فيها بحق استيلاء روسيا على مرو ، تلك المدينة المهمة .

وفتحت السفارة الأمريكية فى طهران فى عام ١٨٨٢ م (١٣٠٠ هـ) ، وظفرت خمس عشرة دولة أجنبية على الأقل بحقوق وامتيازات أجنبية لرعاياها المقيمين فى طهران فى المدة التى تقع بين ١٨٥٥ و ١٩٠٠ م (١٢٧٢ — ١٣١٨ هـ) وقد بذل ناصر الدين جهده — بقدر المستطاع — لخدمة بلاده ، ولكن الظروف كانت أقوى فعلا من أن تقاوم مقاومة فعالة .

وزار أوروبا مرتين ، فرجع مقتنعا بأن إيران فى حاجة إلى الاقتباس من الفنون والأساليب الأوروبية حتى تستطيع أن تتخذ مكانها فى العالم الحديث ، وسرعان ما أيقن أن الحالة ليست كما اعتقد ، لأن الامتيازات الأجنبية الممنوحة للدول الأجنبية ورعاياها ، جعلت الفائدة التى تعود على إيران قليلة ، وكل ما حدث هو أن امتلأت طهران بالأجانب المغامرين الذين أخذوا يتطلعون إلى تكوين ثرواتهم على حساب الفرس السذج . ولم يكن الشاه — مع هذا — شخصية بسيطة ساذجة ، فقد ساءته الاستعراضات الحربية فى أوروبا إساءة شديدة ، وتأثر بالاستعدادات الدائمة للحرب التى تقوم بها كل دولة ، فكتب بعد أن شاهد عرضا مؤثرا لإدارة المطافئ البريطانية : « ولكن وجه الغرابة يبدو فى أنهم تحملوا مثل هذا العناء لإنقاذ الناس من الموت ، بينما نرى — على العكس من ذلك — أنهم يعدون — فى مخازن الأسلحة والمصانع الحربية — الآلات الحديثة الكفيلة بإبادة الجنس البشرى بطريقة أسرع وأعم ، وهكذا

أصبحت الأمة التى تستطيع مخترعاتها تدمير الناس تدميراً سريعا مؤكدا تزهو بنفسها وتحصل على أوسمة الشرف » .

وبذل الشاه محاولة جدية لتحسين نظم القضاء والإدارة العامة ؛ ولكن مجهوداته لم تكلل بنجاح دائم ، ودخلت الدولة تحت سيطرة رجال الدين المتزايدة ، وقتل ناصر الدين فى عام ١٨٩٦ م (١٣١٤هـ) . وحكم ابنه مظفر الدين من عام ١٨٩٦م (١٣١٤ هـ) إلى ١٩٠٧م (١٣٢٥ هـ) ، وكان قد أمضى شبابه فى الكسل والبحث عن الملذات — عندما كان فى تبريز — فلما تولى الملك ؛ لم يظهر أى مجهود ، أو أى اهتمام صادق بمهام الدولة ، وتكلفت رحلاته إلى أوروبا مبالغ طائلة ، تركت الخزانة خاوية على الدوام ، وأخذ الأمراء ورجال البلاط يكدسون الثروات فى وقت لا يستطيع الموظفون العموميون فيه الحصول على مرتباتهم ، وكانت العقارات الكثيرة فى أيدى عدد قليل من الملاك ، بينما كان الفلاحون يبيتون على الطوى ، وتهدمت وسائل الرى ، وزحف الجدب على القرى والحقول . وأخيرا ؛ أدى احتياج إيران إلى المال إلى أن تطلب قرضا من روسيا — فى عام ١٩٠٠ م (١٣١٨ هـ) — قدره ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ روبل بفائدة قدرها ٥٪ ، وكان من بين شروط القرض أن يستعمل جزء منه فى تسديد جميع القروض المستحقة للدائنين الأجانب ، وألا يكون لإيران الحق فى الاقتراض من أية جهة أخرى بدون موافقة روسيا ، إلى أن يتم تسديد القرض ، وقد ضمنت الجمارك الإيرانية أداء هذا القرض ، وفى الوقت نفسه ؛ تجدد بين إيران وروسيا اتفاق سرى قديم ، ينص على عدم إعطاء الأجانب امتيازات بإنشاء السكك الحديدية قبل موافقة روسيا ، وأخذت روسيا تنشئ الطرق لسير العربات فى الولايات الشمالية من إيران .

ولم يبق من هذا القرض الروسى بعد دفع نفقات زيارة الشاه لأوروبا فى عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) ، وسداد قرض المصرف الامبراطورى ، وتسوية بعض الالتزامات الأخرى إلا مبلغ ٦,٠٠٠,٠٠٠ روبل فقط ، فطلبت إيران — على الفور — قرضا آخر ، فبادرت روسيا بتقديم مبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠

روبل ، وبادر مظفر الدين بالسفر إلى أوروبا على الفور أيضا . وفى عام ١٩٠١ م (١٣١٩ هـ) ؛ أبرمت روسيا وإيران اتفاقية جمركية نصت على فرض رسوم جمركية بسيطة على البضائع الواردة من روسيا ، وعلى فرض رسوم جمركية مرتفعة على البضائع الواردة من الدول الأخرى .

وأخيرا صار الجو مهيئا للتغيير ، فأخذت الثورة للظفر بالدستور تظهر قوية مفاجئة ؛ ولكن جذورها فى الحقيقة كانت قد تأصلت فى نفوس فريق متعلم من الشباب الذى اتصلت ثقافتهم بالأفكار التحررية التى سادت فى بلاد الغرب ، وعضد التجار وبعض رجال الدين والأشراف هذه الحركة الدستورية على أمل أن تهيئ لهم مزايا مادية أوسياسية . وفى يوليه ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) ، تجمع التجار وغيرهم من سكان طهران — حتى بلغ عددهم عشرة آلاف — وقصدوا دار السفارة البريطانية ، ليكونوا فى مأمن من الاعتقال ، وترك رجال الدين المدينة ، وشل بذلك النشاط الاقتصادى والاجتماعى فيها ، مما جعل الشاه يعد بالقيام بالاصلاحات ، وتجدد الضغط عليه مرة أخرى ، فأعلن الدستور فى أغسطس ١٩٠٦م (١٣٢٤ هـ) وتكون أول برلمان سريعا ، فاشتغل بمعالجة كثير من المشاكل التى عرضت نتيجة لقيام نظام جديد .

وتوفى مظفر الدين فى يناير ١٩٠٧م (١٣٢٤ هـ) ؛ وتطلع ابنه الطموح محمد على شاه إلى الاستفادة من الخصام بين طبقات النواب ليستعيد سلطته المطلقة ، وكان التجار قد بدأوا يظهرون عدم الاهتمام بوجود البرلمان ؛ فامتنعوا عن مده بالأموال اللازمة ، وكان رجال الدين قد انقلبوا عليه بعد أن فشلوا فى السيطرة على الحكومة الجديدة ، وفى هذه الأثناء أعلن نبأ عقد الاتفاقية الإنجليزية الروسية فى عام ١٩٠٧ .

وكانت بريطانيا العظمى تساعد الدستوريين فى المطالبة بوضع حد لمؤامرات الروس ونفوذهم فى البلاط الإيرانى ، وكانت روسيا قد خرجت — حديثا — من حرب فاشلة مع اليابان ، كما كانت بريطانيا العظمى تحس بوجود تهديد جديد فى خطة ألمانية تهدف إلى إنشاء خط حديدى يعبر بلاد الشرق

الأدنى إلى الخليج الفارسى ، فعرضت على روسيا عقد اتفاقية ، تساعد على صد المطامع الألمانية ، وعقدت روسيا وبريطانيا معاهدة فى عام ١٩٠٧ تضمنت نصوصا تتعلق بإيران وأفغانستان والتبت ؛ ففيما يتعلق بإيران ، اتفق الطرفان المتعاقدان على احترام سيادتها واستقلالها ، ثم انتقلا من ذلك إلى تقسيم البلاد إلى منطقتى نفوذ ، والتزمت بريطانيا بأن تمتنع عن التطلع إلى أية منافع عامة أو خاصة فى المنطقة الروسية ، التى كانت تشمل القسم الشمالى كله من البلاد ؛ وتضم تبريز ورشت وطهران ومشهد وإصفهان .

وكانت المنطقة المخصصة للمنافع الإنجليزية أصغر كثيرا ، فكانت تشمل الركن الجنوبى الشرقى من إيران ، وكان من المقرر أن تكون المنطقة الواقعة بين هاتين المنطقتين على الحياد ، ولم تكن هذه المنطقة محددة — فى الاتفاقية — تحديدا واضحا ، وقد صارت — فعلا — حقلا للنشاط البريطانى ، وأصبحت حاجزا على الطريق الموصل إلى الهند .

وكان الشاه — فى الوقت نفسه — على استعداد للضرب على أيدى الدستوريين، تشجعه تأكيدات الروس بمساعدته . وفى يونيه من عام ١٩٠٨م (١٣٢٦ هـ) ضربت فرقة القوزاق الإيرانية — بقيادة الكولونيل لياكهوف (Liakhoff) مبنى البرلمان بالقنابل وأحدثت وفيات عديدة، ثم أعلن الشاه حل البرلمان، ولكن رد الشعب على هذا العمل كان سريعا حاسما،فاستولى الثوار فى مدينة تبريز على المدينة إلى أن جاءت قوة روسية،ودخلتها وتمكنت — بعد أعمال عنيفة — من إخضاع الثوار. وتجمعت قوات ثورية فى رشت وإصفهان وكانت قوة من اصفهان قوامها ٥٠٠٠ بختيارى بقيادة أحد القواد القبليين ،وتقدمت نحو طهران وهزمت فرقة القوزاق الإيرانية خارج المدينة . ثم دخلت القوات الحرة المدينة فى يوليه ١٩٠٩م (١٣٢٧ هـ) ، ولجأ محمد على شاه أولا إلى السفارة الروسية ، ثم هرب إلى روسيا ؛ وعين البرلمان الذى أعيد من جديد — ابنه أحمد شاه ملكا على ايران ، وكان فى الحادية عشرة من عمره — وبقيت القوات الروسية معسكرة فى شمالى إيران ، وسرعان ما ثارت المنازعات بين الثوار المنتصرين ، فكان

نجاحهم بطيئا إلى أن عين أمريكى يدعى مورجان شستر (Morgan Shuster) أمينا عاما للشؤون المالية فى إيران ، وجاء مورجان شستر إلى طهران فى عام ١٩١١م (١٣٣٠ هـ) ، ومعه بعض مساعديه ، فقام مباشرة بإعادة تنسيق النظم المالية ؛ فأدى نشاطه وحبه الواضح لمصالح البلاد إلى ظفره بحب الناس .

وقاومت روسيا هذا العمل بشدة ، فقدمت فى نوفمبر ١٩١١ م (١٣٣٠ هـ) إنذاراً لإيران فيه طلبات نهائية منها طرد شستر ، وتقدمت قواتها حتى بلغت قزوين . وقتلت كثيراً من الأحرار فى تبريز وضربت مزار الإمام على الرضا فى مدينة مشهد بالقنابل — كل ذلك — لتعطى إنذارها صورة جدية حاسمة ، وقد رفض البرلمان هذا الإنذار النهائى ، ولكن الحكومة قبلته ، فترك شستر إيران ، وألف كتابه العلمى القيم «خنق إيران» (The Strangling of Persia)

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا حيادها ، ولكن طهران صارت مرتعا للمؤامرات التى كان الدبلوماسيون الروس والإنجليز والألمان وعملاؤهم يقومون بها ، وتنافست كل من تركيا وروسيا فى تثبيت نفوذها فى شمال غربى إيران ؛ وتقدمت قوة تركية حتى بلغت منتصف الطريق بين بغداد وطهران ، فلم يلبث أن تصدى الروس لها وقهروها .

وفى عام ١٩١٦م (١٣٣٥هـ) جاء الماجور برسى سيكس (Percy Sykes) من الهند إلى بندر عباس ، وجند قوة سميت « قوة بنادق جنوبى إيران » (South Persia Riffles) سيطرت على جميع أجزاء القسم الجنوبى من إيران ، وبلغت قوتها ٥٠٠٠ رجل ، كما أخذ عميل ألمانى معروف اسمه « واسموس » Wassmuss يحرك القبائل بالقرب من شيراز ، وحاولت إرساليات ألمانية خاصة أن تعبر حدود إيران لتكسب أفغانستان إلى جانبها .

وبعد الحرب ، رفض مؤتمر الصلح مطالب إيران ، ووجهت فى عام ١٩١٩م (١٣٣٨ هـ) بمعاهدة اقترحها الإنجليز عليها ، وعدت بريطانيا فى نصوصها — مرة أخرى — باحترام إيران واستقلالها ، كما وافقت على مدها بالمستشارين والخبراء الحكوميين — على أن يأخذوا مرتباتهم من الحكومة الإيرانية — وتزويدها بالخبراء العسكريين والأسلحة والمعدات على حسابها أيضاً ؛ ونصت

المعاهدة على أن تأخذ إيران قرضاً ، وأن تنشىء بريطانيا العظمى الطرق والسكك الحديدية ، وأن تدرس الاتفاقات الجمركية من جديد .

وقد هدفت هذه المعاهدة إلى وضع إيران تحت السيطرة البريطانية التامة ، وأظهر الشاه والحكومة استعدادهما لقبولها ؛ ولكن الشعور العام — الذى شجعه احتجاج دبلوماسى أمريكى — بلغ درجة جعلت المعاهدة لا تجاز رغم الضغط الإنجليزى الشديد .

وكانت البلاد جميعها — فى هذا الوقت — فى حالة فوضى تقريباً ، وكانت القوات البلشفية مرابضة على الساحل القزوينى على أتم استعداد لبدء الهجوم ، ووقع فعلا اشتباك بين القوات السوفييتية وقوة انجليزية .

وفجأة ، أبرمت إيران وروسيا السوفييتية فى سنة ١٩٢١ م (١٣٤٠ هـ) معاهدة صداقة ، تعد مناقضة تماما للسياسة القيصرية نحو إيران ، فأعلنت روسيا أن جميع المعاهدات التى أبرمت بينها وبين إيران فيما مضى — والتى كانت لا تزال سارية المفعول — قد أنهيت ، كما ألغت — أيضاً — جميع الاتفاقات التى كانت مبرمة بين روسيا ودولة ثالثة أخرى ، وكانت مضرة بالمصالح الإيرانية ، وأسقطت روسيا جميع الديون غير المدفوعة التى كانت على إيران ، وتنازلت عن جميع الامتيازات الروسية ، وردت لإيران جميع الممتلكات الروسية الموجودة على الأراضى الإيرانية مثل مصرف الخصم الإيرانى ، والخط الحديدى الذى يربط بين جلفا وتبريز وميناء انزلى (بهلوى الآن) ؛ والطرق ، وخطوط البرق ، وألغت المعاهدة الامتيازات الأجنبية أيضاً ، ومنحت إيران حقوقا ملاحية فى بحر قزوين مساوية للروس تماما ، غير أن جانباً آخر من هذه المعاهدة صور مخاوف الحكومة السوفييتية الجديدة ؛ فقد نص على ألا تسمح كل من الدولتين بوجود — نشاط داخل حدودها — لقوات أو تنظيمات قد يكون لها خطط معادية للدولة الأخرى ، وأن تصد كل من الدولتين أية قوة ثالثة تهدد أمن الدولة الأخرى وسلامتها ، كما نصت على أنه إذا هددت قوة ثالثة تهديداً مباشراً أو حاولت أن تحولها إلى قاعدة حربية تعمل ضد روسيا ، وكانت إيران نفسها غير قادرة على صد هذا الخطر ، فإن لروسيا الحق فى أن ترسل قواتها عبر إيران دفاعاً عن نفسها .

الفصل الثالث

طابع الحضارة الإيرانية

للمدنية الإيرانية صفاتها الخاصة المميزة . فمن بين العوامل التى صاغتها فى قالبها وجعلتها قوة مستقرة موقعها الجغرافى وكونها معبرا بريا بين الشرق والغرب ، مما أكسبها مزايا إيجابية لنمو المدنية والحضارة ، بينما جر ذلك عليها فى الوقت نفسه المصائب والبلايا . فمن جهة ؛ كانت الهضبة الشاهقة ملتقى الرحل والتجار والعلماء ، وملتقى التيارات الفكرية والفنية . وظلت إيران على مدى العصور المتعاقبة متصلة اتصالا مثمرا بالمدنيات التى كانت تنهض فى أدوارها ، إما فى شرقى الهضبة ، وإما فى غربيها . ومن جهة أخرى ؛ لبث إقليم الهضبة منذ العصور الخالية المجاز الذى تهوى إليه جماعات المهاجرين إلى الغرب فى حشود حاشدة ، كما لبث هدف الغزاة الطامعين فى الأسلاب . وطالما اجتاح البلاد الغزو والفتح ، وأفضى بها إلى خراب لا يرجى له عمار ، غير أن حضارتها كانت تعود — بعد كل نكبة — إلى الانبثاق .

وقد تحملت إيران أثقال موقعها الجغرافى بما لها من قدرة على المزج والهضم ، والقدرة على امتصاص الدم الأجنبى وتطويع العوامل الأجنبية ، وكانت هذه القدرة مستمدة من عاملين هما : طبوغرافية الأرض ، وحيوية أهل البلاد . فالأقوام التى دخلت إيران فى هجرات جرارة ، أو كجيوش ظافرة كان أفرادها يخلدون إلى الاستقرار فى بيئة تكون خيرا من بلادهم الأصلية فى السهول القاحلة الواقعة فى الشمال الشرقى أو الوديان المنخفضة فى الجنوب الغربى ، أو فى فيافى الصحراء العربية .

وقد جاوز مجموع الوافدين فى غضون القرون المتوالية عدد سكان الهضبة الأصليين بكثير ، ولكن المدنية الإيرانية امتصتهم جميعا ، فغدوا جزءاً منها ،

ومما ساعد على هذا التحول انحطاط التطور الحضارى للبلاد التى نشأ فيها أولئك الوافدون ، وكذلك قوة الأساليب الحضارية الإيرانية وما فيها من جاذبية . وقد يكون أروع مثال لهذا الامتصاص ما جرى للمغول الذين دخلوا الهضبة الإيرانية برابرة يستعذبون القتل والدمار ، فصاروا بعد جيلين من المعيشة المستقرة من أشد المعجبين بجميع مظاهر الحياة الإيرانية ومن أقوى دعاتها .

وقد ظلت إيران على الدوام مستعدة لاستقبال واقتباس الأفكار الأجنبية والمؤثرات الخارجية والأساليب الفنية الوافدة ، بل إن هذا الميل كان معروفا فى العصور السابقة للتاريخ ، وقد أبرزه — بنوع خاص — هيرودوت عندما كتب عن استعداد الأكمينيين للتطبع بالعادات الأجنبية . وتاريخ الفنون والهندسة الزخرفية ملىء بالأمثلة على قدرة إيران على هذا التطويع والاقتباس؛ غير أن الملاحظ فى مجال التعبير الفنى ، والتنظيم الاجتماعى والديانة والفلسفة أن النماذج التى تثير الإعجاب لمجرد كونها أجنبية جديدة ، لم تكن لتنسخ نسخا ذليلا ، بل كانت — دائما — يعاد درسها ، وتعاد صياغتها ، ثم يعاد التعبير عنها فى أسلوب خاص متميز .

وإن تاريخ الحضارة الإيرانية ليكشف عن صفة بارزة فيها ؛ هى صفة الاستمرار والاتصال ، وهى صفة ليست قاصرة — بالتأكيد — على إيران ، وإنما يلاحظ أن العناصر المعينة الصامدة التى أنتجتها ، والأسلوب الذى تم بواسطته التعبير عن هذه العناصر كلها أمور مميزة ، ألا وهى الفخر بالماضى وبنوع البناء الاجتماعى ، وصفات التعبير الفنى ، ونشدان معنى الحياة والقصد منها ، ونظرة الإيرانيين العامة وسلوكهم حيال العالم المحيط بهم .

وقد نتحدث عن فخر إيران بماضيها ، وعن إدراكها المستمر لقيمة تراثها الحضارى ، ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن سكان الهضبة على أنهم « إيرانيون » « وطنيون » فإنهم لم ينظروا قط إلى أنفسهم على أنهم « إيرانيون » أو على أنهم أنصار مخلصون لرمز منتفخ مثل : « الوطن » أو « الحاكم المقدس » . ولكن أدنى اقتراب من هذه الحالة الذهنية حدث فى صدر العصر الصفوى ،

عندما عملت الوحدة الدينية فى مذهب الشيعة ، والوحدة العسكرية فى مقابلة الجيوش الأجنبية ، والوحدة الثقافية فى عصر يعد من عصور النشاط الفكرى ، والإخلاص الشخصى لأسرة الصفويين ، على خلق عروة مشتركة تربط بين جميع أنحاء الدولة .

ومن ناحية أخرى ؛ ساد الإيرانيين شعور عميق بالفخر بالماضى المجيد للبلاد فساعد ذلك على تعزيز الشعور بالكرامة كلما تعاقب عصر من عصورهم التاريخية نقصت فيه سطوة الأمة ومنزلتها . وقد دبر القدر أمور إيران ، بحيث شهد أقدم عصورها التاريخية — وهو عصر الأكمينيين — تأسيس أولى امبراطوريات العالم . وقد جاهدت العصور التالية ، ولكنها لم تستطع أن تتفوق على عظمة الماضى .

والأمثلة على هذا التبجيل للماضى ، والسعى إلى النسج على منواله تفوق الحصر ، فإن الحكام البارثيين كانوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم الورثة السياسيون للأكمينيين ، كما كانت أسرة الساسانيين تفخر بانتسابها إلى الملوك الأكمينيين .

وجاء الفردوسى لجمع كل ما روى وكتب عن أمجاد إيران الغابرة فنشر بذلك لواء تقديس الأبطال الذى ظهر فيما بعد ، فمنذ بضع سنوات ارتد رضا شاه إلى تلك التقاليد الوطنية ليستخرج منها اسما لأسرته الجديدة . وسادت أخيرا عادة التسمى بأسماء الأسرات بين ربوع البلاد فوقع اختيار الناس على كثير من أسماء الملوك القدامى ، وأسماء أبطال الوطن .

وقد شيد صرح إيران الاجتماعى على حكم الملك المطلق الذى يشد أزره الأعيان الإقطاعيون الذين كان يطلق عليهم منذ عهد الأكمينيين لقب الولاة ، وكانوا يهيمنون على الولايات المترامية ، وكانت سلطاتهم — فى ذلك العهد وما تلاه — أقرب إلى أن تتصف بصفة التوريث ، وبذلك انحصرت طبقتهم فى عدد محدود من الأسرات . وكان إخلاص الأعيان الإقطاعيين له خطره على مر العصور ؛ فكان الملك فى كل عصر يواجه بلزوم الاحتفاظ بتأييدهم عسكريا ، وإبقائهم فى حال لا تتزايد فيها قوتهم — فوق ما ينبغى — حتى

لا يصبحوا خطرا عليه . أما حالة العامة ؛ فكانت واحدة ، فى كل العصور فكانوا على ارتباط وثيق بالأرض ، يعيشون عليها ، ويباشرون فلاحتها بنفس الطرق التى عرفوها على تعاقب القرون ؛ وكانت حالهم على شىء من اليسر أيام كانت الملكية من الحول بحيث تستطيع أن تهيئ لهم وسائل الرى ، واستتباب الأمن ، ولكن تلك الحال كانت تؤول إلى السوء البالغ أيام كان الضعف السياسى يؤدى إلى الفوضى الاقتصادية ، وكانت آلاف القرى التى يسكنونها متباعدة قاصية عن الطرق الرئيسية ؛ فكانت لذلك ضعيفة التأثر بالغزوات المتتابعة . وربما كان العزال تلك القرى من أهم عوامل المحافظة على المدنية الإيرانية واستمرارها ، ففى كل عصر ؛ جاء رجال من تلك القرى القاصية فصعدوا مناصب النفوذ والسلطان . مثال ذلك . أن رضا شاه أعظم الحكام فى العصور الحديثة ، ولد فى قرية صغيرة فى الطرف الشمالى من سلسلة جبال البرز .

وقد ظلت سلطة حكام الولايات ، وملاك الأراضى من الإقطاعيين قوية إلى عهد متأخر ؛ ولا شك أن إخضاع الحكام المحليين للسلطة المركزية كان عاملا هاما فى الانحطاط الاقتصادى الذى أصاب البلاد نظرا لأن جباية الضرائب انتزعت من الولايات ، وصار من اللازم تسليم حصيلتها إلى الشاه ، وصار ما يعود منها على الولايات قليلا قلة تدنو من العدم .

بيد أن الحياة فى ظل الملوك المستبدين لم تزهق قط نزعة الفردية بين الإيرانيين . وقد تبدو الحياة الإنسانية نفسها زهيدة القيمة عندما يكون ألوف الناس ، أو مئات الألوف منهم عرضة للفناء فى غزوة واحدة ، ومع ذلك ؛ فإن اعتزاز الشعب بكرامته لم يندثر قط . ومهما هانت منزلة الإيرانى فإنك قلما تراه ذليلا أو مستسلما للإهانة ، ولم يكن المجتمع محصورا فى نطاق محكم من نظام الطبقات والطوائف ، ولم يكن هناك حد للمستوى الذى يستطيع أن يسمو إليه الفرد إذا وهب الذكاء والشجاعة والاجتهاد .

وكان للتعبير الفنى فى إيران طابعه الجلى المستمر . وقد ظل الفن الإيرانى — على الدوام — زخرفيا غير تشخيصى ؛ ولذلك فإن من غير الإنصاف أن ندع

تعلق الغرب بالفن التشخيصي يفضي بنا إلى إساءة الحكم على الفن الزخرفي ، فالفن الزخرفي — أو الفن البحت — ينطوي على مغزاه الخاص القوي المتمثل في الرموز لا في الصور . وقد كونت إيران منذ القدم لنفسها مجموعة من الأشكال والطراز ذات المعاني الخالدة ، والقيم الثابتة لدى شعبها ؛ وقد أرست أعمالها الفنية الأولى على جملة من النماذج المتعارف عليها ظلت باقية على مر القرون دون أن يعتريها إلا قليل من التعديل ؛ عندما كانت تعدل وتهذب كلما راج استعمال الطرق الفنية المستحدثة . وقد لبث الفن الإيراني على الدوام متميزا بالدقة والوضوح والطلاقة ، مثال ذلك : أنه في إنتاج الخزف أفضى الحرص على إبراز المهارة الصناعية وحذق الصناعة ، إلى تباين كبير بين الأنواع ، ولكنه لم يؤد قط — كما أدى في الشرق الأقصى — إلى خلق أشكال لا تتفق مع طبيعة الصلصال . والزخارف الإيرانية مهما كان امتلاؤها بالألوان ، ومهما كان ما فيها من دقة الرسوم ، تستند على الدوام على نموذج واضح جلي للعين ، ولم تنخرط قط في فوضى الغزارة المضطربة المعهودة في زخارف عصر ما بعد النهضة العلمية في أوروبا ، والنقوش الهندية المتأخرة .

وتبدو على الفن الإيراني معالم النمو المطرد المتسق المعهود في الفن الغربي ، ولكنه مع ذلك لم يتقدم إلا بخطى أشد بطئا . ولم تفسده التغييرات المبتسرة في الأسلوب ، ولذلك لم تكن هناك فجوة حقيقية بين الفن الإيراني قبل الإسلام ، وبينه بعد الإسلام . وكان في تحريم الإسلام لتشخيص الأحياء — وإن لم يتبع ذلك التحريم في كل الأحوال — ما يناسب ذلك الميل الطبيعي إلى الفن الزخرفي . وعادت إلى الظهور الأسس الفنية المتكررة منذ العصور الأولى حتى العصر الإسلامي — وهي التي تشاهد في هندسة واجهات القصور والمعابد الساسانية وأساساتها وكذلك في المساجد — وظلت أشكال الإنشاء وطرقه على حالها لم تتغير ، أو لم تكد تتغير ، لأن بنائي الإيرانيين لم تستهوهم — إلا نادرا — تلك العناصر الحديثة غير المألوفة ، التي لم تجرب التجربة الكافية .

وكان الإيرانيون على الدوام شديدي الاهتمام بمعرفة الغرض من الحياة

والقصد منها وكان مثلهم الأعلى الثابت — بصفة عامة للغاية — السلوك الإنسانى طبقا لمبدأ (التفكير الخير والقول الخير والعمل الخير) .

وقد وضعت الزردشتية — وهى من أولى ديانات العالم الفلسفية المتكاملة — نموذج التفكير الدينى فى الأزمنة اللاحقة ، فدعت إلى الفضيلة العملية التى تهيب بكل فرد أن يجاهد — من أجل الحقيقة — ضد قوى الظلم والكذب . ودانت المانوية بمبدأ القوى المتعارضة كقوى الخير والشر والنور والظلام ، ولكنها جمعت بعض مسائل الزردشتية والمسيحية ، والبوذية واليهودية ، وظلت توحد بينها حتى بلغت نهايتها فى الاعتقاد بأن الإنسان يجب أن يخلص روحه بالإعراض المطلق عن الشهوات الجسدية .

وأما المزدكية ؛ فإنها مع اعتناق مذهب النزاع بين النور والظلام أمعنت إلى ما هو أبعد من المانوية فى تعريف الخير الكامل فرأت أنه للقضاء على شرور الحقد والخصام والحرب يجب التخلص من أسبابها الطبيعية ، وهى اشتهاء النساء ، وابتغاء الثراء ، وعلى هذا يجب أن تكون النساء والثراء مشاعا فى مجتمع لا طبقات فيه يضم أفرادا متساوين .

ولم تستطع الضربة القاصمة التى أنزلها بإيران غزو العرب أن تحول هذا الاتجاه الفكرى ، لأن الإيرانيين صمدوا لقوة العرب المادية ، ولسيطرة الإسلام القاهرة بفضل قوة تقاليدهم ذاتها . واستطاعت إيران بإقبالها على التشيع وجعله مذهباً إسلاميا ، وعلى التصوف — باعتباره من المقاصد الروحية — الاحتفاظ بمذاهبها الفكرية فى حدود الإسلام ، فإن فكرة الشيعة عن (المهدى) التى تقول بأن الحفيد الثانى عشر — من سلالة على — سوف يظهر فى نهاية العالم ليقضى على الشر ، وينصر الخير النصر الأخير ، جعلت الإيرانيين يحيدون عن العقيدة الأصلية التى تعد محمداً خاتم الأنبياء وأعظمهم ، بل وأحيت فيهم روح أساطيرهم القديمة التى تقول بعودة البطل عودة مظفرة بعدما يظن أنه قد مات . ويعتقد الإيرانيون أن عليا [1] تزوج من إحدى

(١) المراجع : الحسين بن على هو الذى تزوج من أميرة ساسانية .

الأميرات الساسانيات . ويجل الإيرانيون خلفاءه الأئمة الاثنى عشر إجلالا عظيما ، ويعتقدون أن هؤلاء الأئمة — الذين يمثلون قوى الخير والنور — قد جاهدوا الشيطان الذى تمثل لهم فى صورة (أهرمن) إله الشر قبل الإسلام .

وهناك رأى له وجاهته يقول بأن الفلسفة العربية هى فى الواقع فلسفة إيرانية ، تكاد تكون معادية للعرب حينما تتناقض مع التقاليد الإسلامية ، والأغلبية العظمى من فلاسفة العرب المبرزين من أصل إيرانى أو كانوا تلاميذ لأساتذة من الإيرانيين . وقد كان الاشتباه فى نسبتهم إلى العرب ناشئا من أن كثيرا من الإيرانيين الثقاة فى هذا المحيط كانوا يحررون بالعربية ، وقد بدأ النشاط الفلسفى بدراسة فلسفة الإغريق وترجمة مؤلفاتهم وشرحها ، واستمر ذلك النشاط بمحاولة التوفيق بين الفكر الإغريقى ، والمبادئ الإسلامية ، ثم أفضى الأمر به إلى ولوج الميادين الإيرانية والشرقية أصلا كالتصوف والفلسفة الإشراقية ، والفلسفة الأخلاقية .

وبلغ التصوف الإسلامى غاية الازدهار فى إيران ، ويبدو أن الإيرانيين امتازوا بميل طبيعى إلى الاستلهام الروحى — ويقول المراقبون المختصون بأحوال إيران الحديثة إن جميع الفرس نساك بقلوبهم — وقد قوى ذلك الميل بفضل قرائحهم الذكية ، ولكن معتقدات الصوفية التى راجت فى إيران سلكت هذه الطريقة فى سلك المذاهب الإسلامية الملحدة ، حتى جاء الغزالى فأدخل التصوف فى أحضان العقيدة الإسلامية الأصلية ، وحوله من مذهب إلى نظام سلوكى فى الحياة ، وهو سلوك عقيدة للتواضع فى الإيمان ، والحب المتناهى ، والأخلاق الفاضلة . وقد أصبحت كتابات الغزالى من مصادر الإلهام للأجيال التالية بالرغم من أن مبادئه فقدت بعض بهائها وصفاتها بطريق النقل ، ولذلك فإن تصوف الخيام تغطيه طبقة من الإيمان بالقضاء والقدر والاستسلام والشك ، كما تمتاز آثار حافظ بصفة مزدوجة من التصوف ومن اللذة الدنيوية ، وسعدى وحده من بين المتأخرين هو الذى صور أجمل العواطف فى الفلسفة الأخلاقية ، وشرح الأخلاق العملية بالأمثلة والقصص .

وقد بلغ الغزالى — وورثة فلسفته المباشرون — مستوى عالياً فى الفكر التأملى ، لم يدركه أحد قط فى العصور المتأخرة حينما اعترضت مجرى الحياة غزوات المغول وتيمور والأفغان ، وقد أعقب هؤلاء عدد من شعراء الصوفية يعدون أساتذة فى هذا الفن ، وهم يظفرون بحب وتقدير عظيمين فى إيران ، فانعكست فى آثارهم صور من الحالة فى عصرهم ، فتحدثوا عن الحاجة إلى القيم الصحيحة التى تبقى وتنفع فى الآخرة ، وتتمثل فى صفات ، كالشجاعة والمثابرة والمواظبة فأشاروا إلى ضرورة الخضوع إلى القضاء والقدر ، وإلى الرضا بالهروب من الحقيقة القاسية ، إلى عالم الأحلام والرؤى . وبينوا أن حرص الإنسان على الأشياء المادية — فى هذه الدنيا — يمنعه من الوصول إلى المستوى الرفيع ، للكمال الخلقى والروحى ، الذى هو هدف الحياة ، وصارت هذه التعاليم وتلك النزعات جزءاً من حياة الأجيال الإيرانيـة المتعاقبة له أثره الشامل حتى الوقت الحاضر .

وينبغى أن تقرر إيران الحديثة ما إذا كانت تستطيع أن تعيش كأمة فى دنيا تعطى أهمية كبيرة للنواحى المادية ، وهى لا تزال تحتفظ بهذه النظرة . وهى الآن جزء غير منفصل من هذه الدنيا الكبيرة ؛ ويتطلب بقاؤها القومى اختيار النظم والمشروعات والأوضاع المتبعة فى أكثر الأمم نجاحا فيجب أن يتحور الخلق الإيرانى ، وهو الآن — آخذ فى التحور — وقد أخذ الفكر التأملى يخلى مكانه للعقل والمنطق ؛ وأخذت الكفاية ، وعدم الإبطاء ، والحث على العمل تسود ميادين العمل والتجارة ، وقد كان الإيرانيون يمتازون — دائما — بالفردية ، ولكنهم الآن — يتجهون نحو التعاون الجماعى ، والمسئولية الجماعية . وقد تخلصت إيران — فى الوقت الحاضر — من العقبة الأولى ، وهى القوات الحربية الطاغية ، والقوة الاقتصادية ، والمهارة الصناعية للعالم الغربى التى سببت لها منذ البداية الشعور باليأس والضعف . ويستطيع الإيرانيون أن يتيقنوا من أنهم لن يجنوا أية فائدة حقيقية من التقليد السطحى للغرب ، وأن الإصلاح السريع لشئون الحياة ، والممارسة الرفيعة لها يجب أن يقوما على نوع جديد من أنواع التعليم ، يعتمد على أساس مدعم من المدنية الصناعية الفنية ، على أن يحتفظ فى الوقت نفسه بالعناصر الأساسية لتقاليد الحضارة الإيرانية .

إيران الحديثة

الفصل الرابع

العصر البهلوى

فى يوم ٢١ فبراير ١٩٢١ — وقبل خمسة أيام بالضبط من إمضاء معاهدة الصداقة الإيرانية السوفييتية فى موسكو — أطيح بالحكومة الضعيفة المترنحة فى طهران بفضل اتحاد نوعين من الضغط : ضغط سياسى فى داخل العاصمة ، وضغط عسكرى بواسطة القوات التى زحفت على المدينة من قزوين ، وكان قائد هذه القوات الكولونيل رضا خان .

وقد ولد رضا خان فى ١٦ مارس ١٨٧٨ فى « سوادكوه » فى إقليم مازندران الواقع على بحر قزوين ، وكان والده وجده ضابطين فى الجيش الفارسى القديم ، والتحق فى شبابه بفرقة القوزاق الإيرانيـة ، واستطاع أن يصل إلى رتبة القيادة بكفاءته الخاصة ، وقوة شخصيته ، وكان ذا قامة فارعة ووجه فيه قوة وخشونة ، كما كان إداريا صارما ، ولم يكن ذا ثقافة تعليمية ، وكانت تجاربه — فى غير المسائل العسكرية — محدودة ، ولـكنه كان رجلا ذا آمال وأهداف محددة.

وقد رأس الوزارة بعد احتلال طهران السيد ضياء الدين طباطبائى ابن أحد الزعماء الدينيين مدة مائة يوم ، وكان صحفيا مكافحا فحاول فرض إجراءات خاصة وإصلاحات معينة ، ولـكنه اصطدم برضا خان الذى كان فى ذلك الوقت قائدا عاما للقوات المسلحة ، ووزيرا للحربية وأجبر على الاستقالة من الوزارة وترك إيران ، وظل رضا خان نفسه وزيرا للحربية فى عدة وزارات متتالية إلى عام ١٩٢٣ ، ثم أصبح رئيسا للوزارة ، وبعد ذلك بأشهر قليلة ترك أحمد شاه آخر ملك فى الدولة القاجارية إيران على ألا يعود إليها أبدا .

وفى عام ١٩٢٥ ، اختارت جمعية تأسيسية خاصة رضا خان ملكا على إيران ، كأول ملك للدولة البهلوية ، ثم توج فى ربيع عام ١٩٢٦ ، وقد فطن رضا شاه

أكثر من غيره من مواطنيه إلى الفرق الشاسع ما بين ماضى إيران المجيد ، وحاضرها المنهار ، فصمم على أن يوقظها من سباتها ، ويغذى فيها الشعور بالاتحاد والعزة القومية ، وكان على إيران أن تطرح كل تدخل ونفوذ أجنبيين وأن تظفر باستقلال كامل ، وباحترام من الشعوب الأخرى كما كان عليها أن تتحول إلى بلاد صناعية ، وأن تصلح نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وفقا للنظم الغربية ، وأن تتبع برنامجا يشبه فى تفاصيله وتنفيذه البرنامج المتبع فى جارتها تركيا ، وقد استطاعت أن تحرز تقدما ملحوظا فى تنفيذ هذا البرنامج فى خلال السنوات القليلة التى أعقبت تولى رضا شاه الحكم .

أما فى ميدان الشئون الخارجية ؛ فقد أنهى رضا شاه نظام الامتيازات الأجنبية ، وحاول أن يؤكد سيادة البلاد وأن يضع حدا للاقتراض من الدول الأجنبية ، فاختفى التدخل البريطانى في شئون إيران الداخلية ، وسلب رضاشاه من المصرف الامبراطورى الذى تملكه بريطانيا حق إصدار العملة الإيرانية ، وألغى الاتفاق المعقود مع شركة البترول الانجليزية الإيرانية ، واستبدله باتفاق آخر أكثر نفعا لإيران .

وقضى رضا شاه على كل مظاهر الشيوعية فى إيران ، ولكنه تحقق من ضرورة إقامة علاقات تجارية واقتصادية وثيقة مع روسيا السوفييتية ، فأبرمت خمسة مواثيق بين روسيا وإيران فى عام ١٩٢٧ ، كما أبرمت بضعة مواثيق أخرى فى عام ١٩٣٥ : تتعلق بحقوق صيد السمك فى بحر قزوين ، وبإعادة بعض المنشآت على ميناء بهلوى (على بحر قزوين) إلى إيران . كما تتعلق بالعلاقات التجارية ، والرسوم الجمركية ، والضمانات الخاصة بالحياد والأمن المتبادلين .

وأنشأ رضا شاه جيشا ضخما مزوداً بالأسلحة الحديثة ، وسرعان ما أخضع كل ركن من أركان إيران تحت سيطرة الحكومة المركزية العليا ، وضحى بالنظام الاجتماعى العتيق فى سبيل إدخال أسلوب تقدمى جديد ، ففقد الأشراف قوتهم واعتبارهم . كما ألغى استعمال الألقاب ، وفقد التجار حريتهم

فى تنفيذ مشروعاتهم التجارية ، وأصبحوا يخضعون لنظم الحكومة فى الاحتكار والسيطرة على الصناعة والتجارة فى الداخل والخارج ، ورأى أن نفوذ رجال الدين المسلمين ، وتوجيههم لكثير من مظاهر الحياة العامة يؤثر على مركزه كحاكم جديد ، فخطا خطوات كثيرة لتحطيم قوتهم ونفوذهم ، ففقدت وظيفة رجل الدين هيبتها وسيطرتها على أموال الأوقاف الطائلة ، واستبدل القانون الدينى بالقوانين المدنية والجنائية ، وصار الزى الدينى لا يلبس إلا بتصريح خاص ، وأنشئت المكاتب لتسجيل الزواج والطلاق المدنيين ، وتحسن مركز المرأة وسمح للأجانب من غير المسلمين بزيارة المساجد الفخمة فى البلاد وألغيت الاحتفالات الدينية ، والتعزية فى مصارع الأئمة ، ومنع الدراويش من الظهور فى المدن ، واستبدلت المدارس الدينية بالمدارس المدنية ، ولم يكن هدفه من هذا كله محاربة الدين نفسه ، كما حدث فى بعض الدول الأخرى التى حاولت إعادة بناء نظامها الاجتماعى ، بل كان القضاء على المظاهر الكاذبة التى لا تتناسب مع إيران بعد أن أعيد بعثها .

وقد استخدم المتخصصون من الأجانب لتنفيذ برنامج التصنيع والإصلاح المالى والإدارى ، غير أنهم كانوا — بعد عام ١٩٣٠ — لا يعطون مناصب ذات نفوذ ، فاكتفى باستعمالهم كفنيين ومهندسين ، لأن رضا شاه أظهر نفورا شديدا من الدول الأجنبية وقد تولد فيه هذا الشعور بسبب وطنيته المفرطة وبسبب نفوره من كل نقد يوجهه إليه الأجانب ، وغذاه أيضا ضغط الأزمة الاقتصادية العالمية الشاملة على إيران .

وقد ووجه رضاشاه بالأزمة الاقتصادية وبنقص فى العملات الأجنبية ، فاضطرت حكومته إلى السيطرة على الاقتصاد والتجارة ، وأسست شركات احتكارية لتنفيذ مشروعات الاستيراد والتصدير ، كانت الحكومة تمتلك جميع أسهمها أو أكثرها ، وكانت أثمان البضائع المستوردة تحدد بأسعار تزيد على أسعارها العادية فى أنحاء العالم ، فحققت الحكومة بذلك أرباحا طائلة ، وعقدت اتفاقيات المقايضة والتبادل التجارى بين إيران وكل من ألمانيا وروسيا السوفيتية .

وكانت الأرباح الناتجة عن الاحتكار والدخل الناتج من الضرائب العادية والضرائب الاستثنائية تمول الاعتمادات الخاصة بإنشاء الصناعات التى تمتلكها الدولة ، فحدث تقدم كبير فى إنشاء المصانع ، وتيسير النقل بفضل إنشاء السكك الحديدية عبر إيران ، وتعبيد آلاف الأميال من الطرق الجديدة ، واستيراد السيارات لنقل المسافرين والبضائع ، ولكن الزراعة وطرق الرى أهملت من — ناحية أخرى — ولذلك فإن الزراع لم يستفيدوا كثيرا من الصناعات الجديدة ، فشعروا بهبوط ملحوظ فى مستوى معيشتهم .

ومما يؤسف له ، أن تكريس رضا شاه نفسه لخدمة إيران وتقدمها قد عاقته لذته المتزايدة فى جمع ثروة شخصية هائلة ، وعدم رغبته فى التنازل عن شىء من السلطة ، فأصبحت فى يده مبالغ طائلة من المال ، واستولى على كثير من القرى ، وامتلك كثيرا من الأراضى الزراعية والغابات .

أما فى الناحية الإدارية فقد استعان بقوته الشخصية الصارمة ، وببرلمان فقد روح الاستقلال ومقوماته الأساسـية ، فكان ينفذ كل اقتراح تقدمه الحكومة .

وقد استعمل الجيش — تنفيذا لأوامره — كل الوسائل العنيفة لإخماد روح التمرد بين القبائل البدوية . وتجنب الموظفون الحكوميون تحمل المسئولية ، فكانت تقاريرهم عن الحالة الداخلية تصور حالة الرضا ، والشعور بالتفاؤل لإرضائه ، كما تشير إلى الصلات الطيبة بين إيران والدول الأجنبية . وكان المخطئون يعاقبون عقابا قاسيا ، كما يعاقب أعداء الملك الشخصيين .

وانعدمت حرية الكلام والصحافة ، وأنشأت الدولة إدارة خاصة لتوجيه الرأى العام ، ولم تتح أية فرصة لإظهار المصلحين والزعماء الوطنيين من بين أفراد الجيل المتعلم الناهض . وصفوة القول أنه وجدت حالة إضعاف للأساس الخلقى ، كما وجد جو شامل من الضعف والإذعان .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية أعلنت إيران حيادها ، وحاولت أن تقيم علاقات عادية مع جميع القوى المتصارعة ، وكانت الواردات من الآلات ومواد

البناء ، والمواد اللازمة للصناعة تعد حيوية بالنسبة للبرنامج الصناعى ، وللحياة الاقتصادية فى البلاد ، فكانت الظروف تحتم الاعتماد على الصلات الطيبة التى تربط بين إيران وألمانيا فى الحصول على هذه الأشياء ، لأن ألمانيا كانت — حتى عام ١٩٣٨ — قد ظفرت بالمكان الأول فى تجارة إيران الخارجية ، ويسرت هذه التجارة بواسطة نظام المقايضة ، وبعض ترتيبات الدفع الخاصة ، هذا فضلا عن أن رضاشاه كان قد رسخ فى نفسه نفور شديد من الشيوعية وخوف من إمكان انتشار مبادئها فى إيران .

ثم حدث أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى يونيه من عام ١٩٤١ ؛ مما أدى إلى إيجاد تحالف جديد بين روسيا وبريطانيا العظمى ، وسرعان ما أدركت الدولتان أهمية إيران من الناحية الاستراتيجية ، لأن أى هجوم ألمانى عن طريق القوقاز إلى داخل البلاد كان معناه تهديد مؤخرة الروس ، كما أن إيران كانت مهمة كطريق آمن لإمداد روسيا .

وكانت القوات البحرية البريطانية تعتمد على محصول حقول البترول القريبة من رأس الخليج الفارسى ، كما كانت ألمانيا تعرف — تماما — أهمية إيران ، فأبقت عملاءها فى البلاد ، وكانوا نشيطين دائما . وقد أثار نشاطهم شعور بريطانيا وروسيا بضرورة اتخاذ خطوات سريعة لوضع حد لهذه الحالة التى كانت تتنافى مع حياد إيران ، ولم يذعن رضاشاه للاحتجاجات ، ويبدو أنه لم يعتقد كثيراً فى جديتها ، أو أنه اعتقد أن الحلفاء لن يقدموا على اتخاذ عمل جدى مباشر بشأنها ، هذا من ناحية ، كما أن الحلفاء — من ناحية أخرى — كانوا قد اقتنعوا باستحالة التعاون مع شخصية قوية مثل رضاشاه .

وفى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٤١ ؛ هاجمت القوات الروسية إيران من الشمال الغربى ، ودخلت القوات البريطانية إيران من ناحية الحدود العراقية ، كما أنزلت قوات على رأس الخليج الفارسى ، وقامت السفن البريطانية بهجوم مباشر على القوات البحرية الإيرانية فى خرمشهر ، فأغرقت جميع السفن الإيرانية ، وأحدثت خسائر فادحة فى الأرواح ، وأبدى الجيش الإيرانى

مقاومة واهية انتهت بعد ثلاثة أيام ، وفكر رضا شاه فى خير وسيلة لإنقاذ بلاده والأسرة البهلوية فتنازل عن العرش ، وأخذ تحت حراسة بريطانية ، لحمل أولا إلى جزيرة موريتيوس (Mauritius) ثم نقل إلى جنوبى أفريقية حيث توفى فى عام ١٩٤٤ .

وقد نشر سيل من المقالات وعديد من الكتب عن عصر رضا شاه منذ تنازله فى عام ١٩٤١ ، والواقع أن الأجانب يجب أن يبنوا حكمهم النهائى عليه ؛ على أساس ما فى هذه المصادر من مادة . ومهما يكن من شىء فإن من الواضح تماما أنه أحد الشخصيات المهمة فى تاريخ إيران ، وأنه قد استطاع بمفرده أن يضع إيران جنبا إلى جنب مع دول العالم الحديثة المتحضرة .

وقد خلف محمد رضا أباه على عرش إيران ، وأسندت الوزارة إلى فروغى — وكان فيلسوفا ومؤلفا ورجلا سياسيا ذا مكانة محترمة — فوضع نصب عينيه أن يبرم معاهدة ودية مع الحلفاء تؤيد متابعة الحرب ضد ألمانيا .

وقد أمضيت معاهدة التحالف الثلاثية بين إيران وبريطانيا العظمى ، وروسيا السوفيتية فى ٢٩ يناير من عام ١٩٤٢ . وتعهدت بريطانيا وروسيا فى أول مادة من هذه المعاهدة باحترام سيادة إيران واستقلالها السياسى والمحافظة على حدودها ، كما وافقت الحليفتان على بذل المحاولات اللازمة لتأمين الكيان الاقتصادى للشعب الإيرانى لحفظه من الفاقة والصعوبات التى تكون نتيجة للحرب . وعينت المواد الأخرى التسهيلات التى يجب منحها للحليفتين فى أثناء حربهما ضد ألمانيا ، وأكدت المعاهدة أن وجود القوات المتحالفة فى الأراضى الإيرانية لا يعنى احتلالا عسكريا ، وأن هذه القوات يجب أن تنسحب من الأراضى الإيرانية فى خلال مدة لا تزيد على ستة أشهر بعد انتهاء الحرب بين قوات الحلفاء وبين ألمانيا وحليفاتها .

وفى أوائل عام ١٩٤٢ ، بدأت الإمدادات المقررة لروسيا تصل إلى رأس الخليج الفارسى ، وتدخل بواسطة الخطوط الحديدية الإيرانية ، وطرق السيارات المؤدية إلى الشمال كما وصلت أولى القوات الأمريكية إلى إيران فى ديسمبر ١٩٤٢ ،

وهى قوات عرفت باسم «قيادة الخليج الفارسى» (Persian Gulf Command) وبلغ عددها — فى النهاية — ٣٠٫٠٠٠ رجل . وقد استغل الأمريكيون الخط الحديدى الممتد من الخليج الفارسى إلى طهران ، وكذلك قوافل السيارات التى تنتقل من الخليج إلى شمالى إيران حيث كانت الإمدادات تسلم للروس ، فحمل خط النقل بالسيارات ٤٠٠٫٠٠٠ طن من مواد الحرب ، بينما نقل الخط الحديدى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ طن من الإمدادات سلمت جميعها لروسيا السوفيتية وإيران ، وقد استطاع الحلفاء بفضل تعاونهم وكفايتهم أن ينقلوا خمسة ملايين طن من مواد الحرب عبر إيران ، ويسلموها للجيش الروسى .

ولم يكد يحل ربيع ١٩٤٢ ، حتى كانت العلاقات الدبلوماسية قد قطعت مع ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وأخرجت جالياتها من إيران ، وفى ٩ سبتمبر ١٩٤٣ اعلنت إيران الحرب على ألمانيا كما أعلنت تمسكها بميثاق هيئة الأمم المتحدة .

وفى آخر نوفمبر ١٩٤٣ ؛ جاء روزفلت وتشرشل وستالين إلى إيران لحضور مؤتمر طهران ، وكان ميثاق طهران ذا أهمية حيوية بالنسبة للإيرانيين ، فقد اعترف الزعماء المتحالفون فيه بالمساعدة التى قدمتها إيران فى الحرب ، ووافقوا على مواصلة تقديم المساعدة الاقتصادية لإيران ، وقرروا أن المشاكل الاقتصادية التى سوف تواجه إيران بعد الحرب ينبغى أن تعطى عناية بواسطة المؤتمرات الدولية أو ممثلى الدول ، كما عبروا عن رغبتهم فى رعاية استقلال إيران وسيادتها ، وسلامة حدودها .

وكان ضغط الحرب شديدا على إيران ، فكان الطعام قليلا ، والبضائع — من كل نوع نادرة ؛ وساعد التضخم المالى على ارتفاع الأسعار ، وكانت المقادير الكبيرة من العملة الصادرة لمواجهة نفقات القوات المتحالفة داخل البلاد تعمل عملها فى ارتفاع الأسعار وازدياد التضخم المالى ، وكانت الوزارات المتتالية قصيرة الأجل ، تهتم بالضروريات اليومية فلا تستطيع أن تقدر المشاكل الجوهرية الناشئة من التغير السريع من حكم رضا شاه الأرستقراطى إلى حكم ديموقراطى . وقد فشل رضا شاه فى تكوين حزب يمثل الأغلبية

فى داخل البرلمـان ، كما فشل أعضاء البرلمان المنتخبون فى ١٩٤٣ فى إعطاء ثقتهم وتأييدهم للحكومات المتتالية ، نظرا لقلة التعاون ، وانعدام الهدف بينهم ، وكان رؤساء الوزارات يتلو بعضهم بعضا فى فترات متقاربة ، وكانت الحكومات المتتابعة تهتم برعاية مصالح الشعوب الأجنبية ، وبأن تكون محافظة جدا ، أو متطرفة جدا .

وفى ١٩٤٤ ؛ قدمت شركات البترول الأمريكية والإنجليزية عروضا لأخذ امتيازات فى جنوب شرقى إيران ، كما طلبت روسيا السوفييتية — فى أكتوبر من نفس العام — امتيازا لاستغلال البترول فى شمالى البلاد ، وكان جواب البرلمان أنه صدق على مشروع قانون — فى ديسمبر ١٩٤٤ — يمنع أى موظف رسمى إيرانى من عقد أى اتفاق مع أية دولة أجنبية أو شركة يتعلق بأى امتياز . وقرر الزعماء الإيرانيون أن المشروعات الحيوية بالنسبة للشعب يجب ألا تتم إلا بعد انتهاء الحرب ، وفى أكتوبر ١٩٤٥ وافق البرلمـان على قرار بتأجيل الانتخابات للدورة البرلمانية القادمة لمدة ستة أشهر بعد جلاء القوات الأجنبية جميعها عن البلاد .

وكانت الأحزاب السياسة الجديدة ذات أسماء رنانة ، وكان حزب « توده » (الكتلة الشعبية) المتطرف — فى إقليم آذربيجان ، قد أبدل اسمه باسم « الحزب الديمقراطى الآذربيجانى » وكانت جماعة هذا الحزب — الذى تحتل القوات السوفييتية ميدان نشاطه — تتهم الحكومة المركزية بشدة ، وتهاجم حاميات الجيش الإيرانى ومراكز الشرطة فى كل مكان فى الأقليم ، مما جعل المنطقة فى فوضى شاملة واضحة . وفى نوفمبر ١٩٤٥ ؛ أرسلت الإمدادات الحكومية من طهران ، ولكنها لم تتقدم إلى أبعد من شريف آباد — إلى الغرب من طهران — حيث أوقفتها القوات السوفييتية المعسكرة هناك . وفى ديسمبر أعلن الحزب الديمقراطى الآذربيجانى تأسيس دولة مستقلة فى آذربيجان . وفى يناير ١٩٤٦ : أخطرت الحكومة الإيرانية مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة بتدخل روسيا السوفييتية الواضح فى شئون إيران الداخلية بواسطة

موظفيها الرسميين ، وقواتها المسلحة ، فاتخذ المجلس قرارا بالإجماع بأن إيران وروسيا ينبغى أن تخطرا مجلس الأمن بنتائج المفاوضات التى تدور فى هذه المسألة ، واستبقى لنفسه الحق فى أن يطلب معلومات عن سير هذه المفاوضات .

وفى فبراير ١٩٤٦ ؛ أصبح أحمد قوام رئيسا للوزارة الإيرانية ، فسافر إلى موسكو بالطائرة — فورا — لإجراء المفاوضات ، فوصل اليها فى ٢ مارس ، وهو التاريخ الذى اتفقت عليه الدول المتحالفة لجلاء جميع قواتها عن إيران جلاء تاما ، وكانت القوات الأمريكية قد جلت قبل ذلك ، كما جلت القوات الانجليزية فى التاريخ المحدد ولكن روسيا السوفييتية أعلنت أن جلاء قواتها عن بعض المواقع فى الشمال الشرقى من إيران سيبدا فى ٢ مارس ، وأن قواتها ستبقى فى بعض المواقع الأخرى حتى يتضح الموقف ، فشكت إيران فى ١٨ مارس — إلى مجلس الأمن — من أن روسيا السوفييتية تحتفظ بقوات داخل حدود إيران ، مخالفة بذلك المعاهدة الثلاثية ، وأن عملاءها ، وموظفيها الرسميين ، وقواتها المسلحة مستمرة فى التدخل فى شئون إيران الداخلية ، وقد نوقشت المسألة فى المجلس ، ولكن المفاوضات بين أحمد قوام وأعضاء السفارة السوفييتية فى طهران ؛ وهى التى بدأت حوالى نهاية الشهر انتهت بتبادل المذكرات وأعلنت نتائجها فى ٤ أبريل . وقد تم الاتفاق فيها على انسحاب جميع القوات السوفييتية من إيران فى خلال مدة ستة أسابيع ، وعلى تقديم اقتراح فى دورة المجلس القادمة بإنشاء شركة بترول إيرانية سوفييتية مشتركة لاستغلال آبار البترول فى ولايات إيران الشمالية ، وإيجاد تسوية سلمية داخلية بين الحكومة المركزية ، والحركة الثورية فى آذربيجان ، وأبلغت الاتفاقية المتعلقة بجلاء القوات السوفييتية إلى مجلس الأمن ، فوافق على قرار بتأجيل المناقشة فى المسألة الإيرانية إلى ٦ مايو ، على أنه يجب على كل من روسيا السوفييتية وإيران أن تبلغ المجلس — فى ذلك الوقت — ما إذا كان جلاء القوات السوفييتية قد تم أم لا . وفى ٢٢ مايو ؛ أجل المجلس مناقشة المسألة الإيرانية ، وأخيرا جلت القوات السوفييتية عن إيران .

ووجه قوام رئيس الوزارة عنايته إلى الشئون الداخلية ، ليعنى بالنزاع السافر بين الأجنحة اليمينية واليسارية فى الأحزاب السياسية ، وبالاضطراب القبلى ، وبمشكلة آذربيجان وبالإصلاحات الجوهرية ، وكانت الدورة البرلمانية قد انتهت ، فكان حرا فى أن يعمل دون أن تعوقه المعارضات البرلمانية ، إلى أن يحين موعد الانتخابات القادمة .

وقبض على السيد ضياء الدين طباطبائى — رئيس حزب مشيئة الأمة — فاختفى حزبه من فوق المسرح السياسى ، وأعلن رئيس الوزارة تكوينه لحزبه الشخصى المختص به ، المسمى بالحزب الديمقراطى الإيرانى .

وفى صيف ١٩٤٦ ؛ قبل التعاون مع حزب « توده » ، وأشرك ثلاثة من مؤسسى الحزب — الذين كان ينظر إليهم كشيوعيين فى الوزارة — ولكن سرعان ما أعيد تشكيل الوزارة بدون أعضاء حزب « توده » ، وبدأ الديمقراطيون الإيرانيون يسيطرون — وحدهم — على مسرح السياسة .

ودارت مباحثات طويلة مع زعماء الحكومة الآذربيجانية المذكورة ، واتفق فيها على الأسس العامة للاتفاق ، فأصدر الشاه — فى أكتوبر — مرسوما ملكيا يدعو إلى الانتخابات الجديدة ، وأعلن رئيس الوزارة أن الانتخابات يجب أن تعقد فى جميع أنحاء البلاد بمجرد أن تصبح قوات الأمن الوطنية فى مواقعها فى كل مكان للإشراف على هذه الانتخابات ، وحينذاك تراجعت حكومة آذربيجان المتمردة عن تنفيذ الاتفاقية ، ولم تسمح بمثل هذا الإشراف ، ولذلك ؛ فقد أرسلت حكومة إيران المركزية — فى أوائل ديسمبر ١٩٤٦ — قواتها إلى آذربيجان ، فلم تلبث أن احتلت تبريز عاصمة الإقليم ، وانهار نظام الحكم فى الحال ، وهرب بعض الزعماء عبر الحدود الروسية .

كما أجريت — أيضا — مباحثات مع الزعماء القبليين للكرد والبختياريين والقاشقائيين ، وعقدت اتفاقية مع القاشقائيين تصلح نموذجا للعلاقات مع القبائل الأخرى ، فمن ناحية ؛ كان على القبيلة أن تسلم أسلحتها للحكومة ، ومن ناحية أخرى ، صار للقبيلة الحق فى أن يكون لها تمثيل متناسب فى البرلمان ،

وأن تتمتع بتسهيلات أفضل فى التعليم والعلاج والمواصلات ، وأن يعين الموظفون المحليون من بين سكان المنطقة .

وبدأت الانتخابات البرلمانية فى أوائل ١٩٤٧ ، وقرر حزب توده — الذى كانت قوته قد ضعفت ضعفا ملحوظا — ألا يشترك فيها ، وفى صيف ١٩٤٧ ، كانت جميع النتائج قد رصدت ؛ وظهر أن جميع النواب الذين انتخبوا — ما عدا حفنة قليلة — ينتمون إلى الحزب الديمقراطى الإيرانى ، وبدا أن قوام — الذى بقى فى الحكم مدة أطول كثيرا من أسلافه المباشرين وواجه فى خلال هذه المدة مشاكل هامة وعالجها — يريد أن ينفذ سلسلة طويلة من المشروعات النافعة لمستقبل إيران معتمدا على معاونة برلمان مؤيد له .

وفى ربيع ١٩٤٧ ، وأوائل الصيف ، أخذ متخصصون من شركة موريسون — نودسن الدولية (Morrison — Knudsen International Company) يشرفون على العمل فى إيران ، وقد استبقت الحكومة الإيرانية هذه الشركة الأمريكية لتقوم بدراسات ، وتوصيات محددة ، لتنفيذ برنامج اقتصادى يستغرق سبع سنوات ، وحوالى نهاية الصيف ، قدمت الشركة تقريرا مطولا يحدد النفقات المحتملة بحوالى ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار لتنفيذ الإصلاحات فى ميادين الزراعة ، والوقود والقوى ، ووسائل النقل والمواصلات ، وطرق الرى ، والصناعة .

واجتمعت الدورة الخامسة عشرة للبرلمان فى ١٧ يوليه ١٩٤٧ ، واختارت — فى ٣٠ أغسطس — «قوام» رئيساً للوزارة ، وفى ٢٢ أكتوبر قدم قوام هيئة وزارته مع تقرير عن اتفاقية أبريل ١٩٤٦ الخاصة بتكوين شركة بترول إيرانية — سوفييتية ، فوافق البرلمان — فى الحال — بأكثرية مائة صوت ضد صوتين على مشروع قانون يتضمن عدة مواد ، ألغت اتفاقية ١٩٤٦ باعتبارها مناقضة لقانون ١٩٤٤ الذى يمنع مثل هذه المباحثات بواسطة موظفى الحكومة ، وأوصت بوجوب معاينة المختصين للبترول فى إيران فى السنوات الخمس التالية ، ومعرفة ما إذا كان موجودا فى الشمال بكميات تصلح للتجارة ، حتى تستطيع الحكومة أن تدخل فى مباحثات مع روسيا السوفييتية لبيع مثل

هذا البترول لها ، وقرر هذا القانون أنه لا يمكن منح أية امتيازات للأجانب فى المستقبل ، أو لشركات يكون للأجانب فيها أسهم ومنافع ، ووجه نظر الحكومة لدراسة الامتيازات الممنوحة للشركات الأجنبية ، وخصوصا امتياز البترول الموجود فى الجنوب ؛ على أساس زيادة المنافع التى يمكن أن تجنيها إيران من مثل هذه الامتيازات .

وبعد هذا التاريخ اشتدت المعارضة لقوام بين الديمقراطيين الإيرانيين فى البرلمان ، وفى داخل وزارته نفسها ، فاستقال فى ١٠ ديسمبر بعد فشله فى الظفر — من البرلمان — بقرار بالثقة بوزارته . وفى ٢١ ديسمبر اختير إبراهيم حكيمى رئيسا للوزارة فأظهرت وزارته نشاطا محدودا فى معالجة مشاكل الميزانية وسلسلة الإصلاحات الطويلة .

وفى ١٠ فبراير ١٩٤٨ ؛ وافق البرلمان الإيرانى على قانون يوصى بشراء ما قيمته ١٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار من المهمات الحربية الأمريكية الفائضة ، وهو اقتراح كان يهدف إلى تحسين مهمات قوات الأمن الإيرانية ، وعلى العموم ؛ فقد فشلت الدورة البرلمانية الخامسة عشرة فى مواجهة مسئولياتها ، ولم تجز فى السنة الأولى من مدتها إلا حفنة قليلة من مشروعات القوانين ، وكان جو المناقشة والمواد الموجودة فى بعض هذه المشروعات يصور عداء متزايدا دون سبب منطق ، وقد نوقشت الرغبة فى مراجعة عقد شركة البترول الإيرانية الإنجليزية ، ووافق المجلس على مشروع قانون تجارى يمنع التجار الأجانب — فى إيران — من استيراد البضائع . ومشروع قانون يوصى الحكومة الإيرانية باستعادة السيادة الإيرانية على جزيرة البحرين فى الخليج الفارسى ، — والبحرين ضمن منطقة امتياز البترول الممنوح للشركة العربية الأمريكية للبترول Arabian - American Oilcompany

ويحكمها حاكم محلى له علاقات وثيقة بإنجلترا بمقتضى معاهدة خاصة — واعتقدت الجماعات — فى إيران — أن مثل هذه الإجراءات المشروعة ستكون أفضل وسيلة تعجل بمنح الشاه سلطات أوسع ، فقدم مشروع قانون — فى مايو — يقترح إنشاء مجلس للشيوخ وهى هيئة اقترح الدستور تكوينها من قبل .

وفى يونيه ١٩٤٨ ، اعتلت وزارة جديدة برئاسة عبد الحسين هژير منصب الحكم — وقد قتل فى ١٩٤٩ على يد متعصب دينى ، أثناء الدورة البرلمانية — وفى يوليه زار محمد رضا شاه إنجلترا ، وفى نوفمبر أعلن طلاقه من الامبراطورة فوزية ، وفى نوفمبر استقالت وزارة هژير بعد مقتله ، وأصبح محمد ساعد رئيسا للوزارة ، وظل ساعد — وهو شيخ سياسى ذو لياقة وخلق — فى منصبه إلى مارس ١٩٥٠ ، وكانت سنة ١٩٤٨ هادئة نسبيا ، ولكنها تتميز بظهور البطالة ، ومظاهر إحياء قوة حزب توده ، وبسلسلة من المذكرات السوفيتية التى اتهمت إيران بأنها تسمح للولايات المتحدة بإنشاء قواعد حربية فى أراضيها .

وفى ٤ فبراير ١٩٤٩ بذلت محاولة فاشلة لاغتيال الشاه ، وكان رد الفعل السريع لهذا العمل مهما ، فمن جهة اعتبر حزب توده مسئولا عن الاعتداء ، فحورب ، وهرب زعماؤه وحوكم الذين لم يستطيعوا الهرب من الدولة ، وأرسلوا إلى السجن ، ومن جهة أخرى اجتمعت عناصر الشعب المختلفة حول الشاه ، وأظهر البرلمان مزيدا هائلا من النشاط قبل أن تنتهى الدورة البرلمانية فى يوليه ، فأقر تكوين مجلس الشيوخ ، كما أقر مشروع السنوات السبع للإنهاض والتعمير . وفى ١٦ نوفمبر وصل الشاه إلى الولايات المتحدة فى زيارة — رسمية ، واشترك حتى وقت رحيله فى آخر العام — فى عدة حفلات عامة ، وأدلى بأحاديث عن أهداف دولته واحتياجاتها بلغة انجليزية سلسة .

وقد تميزت سنة ١٩٤٩ بنجاحها فى برنامج الإصلاح باستخدام متخصصين من الشركة المساهمة لخبراء ما وراء البحار الاستشاريين Overseas Consultants, Inc. تخلفت هذه الشركة شركة موريسون — نودسن Morrison - Knudsen كما تميزت هذه السنة بانتهاء الدورة البرلمانية الخامسة عشرة ، والانتخابات للدورة السادسة عشرة لمجلس النواب ، وبتكوين أول مجلس للشيوخ ، وباشتباكات مسلحة عديدة على الحدود الإيرانية السوفيتية ، وبنقص شديد فى محصول القمح .

الفصل الخامس

مـــوارد الـثـروة

أنواع التربة والمعادن والأحجار

تدل الأبحاث على أن إيران تمتلك موارد معدنية كثيرة ، متنوعة للغاية ومنذ خمسة عشر عاما ، كان استخراج المعادن جميعها يتم بواسطة استعمال الآلات اليدوية فكان عملا شاقا ، غير أنه منذ إنشاء المؤسسات الحديثة فى صناعة المعادن ، أدخلت وسائل فعالة فى عملية التعدين .

وقد كانت ثروات البلاد التى تحت سطح الأرض موضوعا عالجه قانون خاص بالتعدين ، نقح أخيراً فى ١٩٤٧ . وقسم القانون جميع موارد الثروة إلى ثلاثة أنواع ، فإذا وجدت المعادن التى تدخل تحت النوع الأول — مثل حجر الكلس ، وحجر البناء ، والرخام ، والجبس فى أرض مملوكة ملكا خاصا ، فإن الحكومة تمنح أحد المستغلين حقوق استخراجها فى مقابل حصولها على ٥٪ من قيمة هذه المواد ، على أن يعطى المالك ١٪ ، أما إذا تم استخراج المعادن فى أرض مملوكة للحكومة ، أو لا مالك لها ، فإن الحكومة تأخذ ٦٪ من قيمتها ، وإذا كانت المواد المستخرجة من النوع الثانى ، — مثل المواد المعدنية ، والوقود اليابس ، والأملاح ، والاسبستوس[1] ، والكبريت ، وأكسيد الحديد — فإن الدولة تأخذ ٣٪ من قيمتها ، أما النوع الثالث — ويشمل البترول والمعادن الثمينة ، والأحجار الكريمة فإن حقوق استغلالها من اختصاص الحكومة وحدها ، بصرف النظر عن مالك الأرض . ويمكن للحكومة أن تعطى حقوق استخراج هذه المعادن للشركات المحلية ، أو أن تشرف

(١) معدن ذو ألياف غير سريع الإلتهاب .

هى بنفسها على عمليات استخراجها ، وتمنح الشركات الأجنبية امتيازات تحديد أماكن البترول والمواد المعدنية واستخراجها ؛ ولكن بشرط الحصول على موافقة خاصة من البرلمان .

ويعد المستغل من الموارد المعروفة — فعلا — قليلا نسبيا فى الوقت الحاضر؛ وليس المقصود من القائمة التالية أن تتضمن جميع مصادر الثروة المعروفة ، وإنما هى دالة — فقط — على أمثلة من المعادن مع ذكر أماكنها .

وقد حددت فعلا أماكن مناجم : الفحم ، ومعادن الكروم ، والحديد ، والرصاص، والكبريت ، والنحاس ، والفضة، والذهب ، والنيكل ، والزرنيخ ، والكوبالت[1]، وحجر الكحل، والأكسيد الأحمر ، وأكسيد المنجنيز، والصفيح

ويستخرج الفحم من حقول الفحم الواقعة على سفوح سلسلة جبال البرز الشمالية والجنوبية ليسد حاجة المطالب الصناعية فى مدينة طهران ، كما يوجد الفحم فى شقوق الصخور الدقيقة فى شمالى إيران ، وفى إصفهان ، وفى مناطق أخرى كثيرة ، ويستخرج معدن النحاس — بصفة عامة — فى زنجان، وبالقرب من سبزوار ؛ بينما يشتمل الإقليم الواقع إلى الشمال من تبريز على مناجم كثيرة قديمة ، وتتناثر مناجم الحديد على طول سلسلة جبال البرز ، وهناك جبل غنى بالحديد بالقرب من كرمان ، ويصدر — سنويا — حوالى ٢٠٫٠٠٠ طن من الأكسيد الأحمر من جزيرة هرمز فى الخليج الفارسى .

وتدل الدلائل على أن المناجم الموجودة فى أناراك Anarak داخل حدود دشت كوير قد استغلت لمدة قرون عديدة ، وكانت الفضة تستخرج منها فى الأصل ، ولكنها تستغل الآن فى استخراج النيكل والرصاص أيضاً ، ويبدو أن مناجم الذهب المعروفة تحتاج إلى تعدين دقيق حتى يقوم استخراج هذا المعدن النفيس على أساس مربح تجارياً .

وتوجد الأملاح الكيماوية — مثـــل البوراتس Borates والسلفات Sulphates من مختلف المعادن فى طبقات غنية بها ، بينما يحصل على ملح الطعام

(١) معدن صلب رمادى (المترجم) .

إما باستخراجه من الصخور الملحية أو بالسماح لفيض الينابيع الملحية بالانصباب في أحواض الترسيب والتبلور .

وتوجد مواد البناء — وتشمل الحجر والجبس والكلس — فى جميع أنحاء البلاد ، كما توجد محاجر للمرمر والرخام بالقرب من مراغه ويزد وشيراز ، والمناطق الأصلية للفخار والآجر ، والآجر الخاص المصقول المطبوخ فى النار ، كثيرة شائعة ؛ كما توجد — كذلك — المعادن النفيسة أو نصف النفيسة مثل : الياقوت الأصفر والزمرد ، والياقوت الأزرق ، والعقيق والفيروز . وبالقرب من نيسابور ؛ توجد مناجم وأروقة كثيرة تستخرج منها قوالب مطمورة ذات فيروز بديع استخرجت منذ سنوات طويلة عديدة .

البـــترول :

فى السنوات الحاضرة ، أصبحت إيران رابعة الدول المنتجة للبترول فى العالم فهى تتلو الولايات المتحدة وفنزويلا وروسيا السوفييتية ، وتنتج الآن ٥٫٨٪ من مجموع الإنتاج السنوى للبترول .

وكانت ينابيع البترول تنساب خلال الصخور فى إيران منذ ظهر الإنسان الأول على سطح الهضبة الإيرانية ، ومن المحتمل أن تدفقات البترول ، أو الغاز المنساب من القيعان المحملة بالزيت قد اشتعلت بفعل البرق ، وأصبحت هدفا للإعجاب والعبادة ، وبعد ذلك بكثير ، حينما أصبح كتاب زردشت المقدس الديانة الرسمية للأكمينيين ، واحترم الصدق والنور ، أنشئ كثير من بيوت النار التى تشتمل على شعلة دائمة فوق منابع الزيت والغاز ، أو بالقرب منها . ولا تزال أطلال واحد من هذه الآثار — وهو مسجد سليمان — ترى فى وسط الحقول المنتجة للبترول . وفى عصور متأخرة استعمل البترول الطبيعى استعمالا عمليا .

وقد كتب أوروبى زار إيران منذ مائتى عام يقول : « يوجد فى الناحية التى يسمونها مازندران زيت النفط ، وهو يستعمل فى الصقل والنقش ، والطب ، والعلاج ، كما أن أفقر طبقات الشعب تحرق الزيت الذى يستخرج منه » .

وفى العصور الحديثة بدأ البحث عن آبار البترول فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى ١٩٠١ سمع رجل من رعايا الإنجليز يسمى وليام دى آرسى William D'Arcy عن إمكان استخراج البترول فى إيران ومنحته الحكومة الايرانية سائر الحقوق للتنقيب عن البترول واستخراجه فى جميع أنحاء البلاد ما عدا الأقاليم الشمالية وخولته حق إنشاء خطوط من الأنابيب تصل إلى الخليج الفارسى ، على أن يسرى مفعول هذا الامتياز لمدة ستين عاما .

وكانت أولى شركات دى آرسى تمول من جيبه الخاص ، وفى ١٩٠٨ حفر أول بئر يتدفق بغزارة فى منطقة تبعد حوالى ١٢٥ ميلا شمالى رأس الخليج الفارسى ، وفى السنة التالية أسست شركة البترول الإنجليزية — الإيرانية فى لندن وأخذت على عاتقها مهمة تنفيذ الامتياز ، وفى عام ١٩١٢ ، قدمت الحكومة الإنجليزية أول إعانة لتمويل هذه الشركة ، وهى فى الوقت الحاضر تسيطر على ٥٢٪ من أسهمها .

وفى عام ١٩٣٢ ؛ ألغت الحكومة الإيرانية الامتياز ، لأنها لم تقتنع ببعض المواد الموجودة فى الاتفاق المبرم بين الشركة والحكومة الإيرانية ، ثم تفاوضت فى عقد اتفاق آخر فى عام ١٩٣٣ ، وباختصار ، نص الاتفاق الجديد على :

١ — منح امتياز إلى سنة ١٩٩٣ .

٢ — تحديد الامتياز بمساحة ١٠٠,٠٠٠ ميل مربع .

٣ — فقدان الحق فى إنشاء خطوط من الأنابيب تصل إلى الخليج الفارسى .

٤ — دفع أربعة شلنات للحكومة الإيرانية عن كل طن من البترول سواء بيع للاستهلاك داخل إيران ، أو صدر للخارج .

٥ — دفع حصة سنوية تساوى ٢٠ ٪ من جميع الأرباح السنوية التى تحصل عليها الشركة ، فضلا عن مبلغ ٦٧١,٢٥٠ جنيها إنجليزيا ، وينبغى أن يكون مجموع كل هذه المدفوعات ٧٥٠,٠٠٠ جنيه سنويا على الأقل .

وفى الوقت الحاضر ، تمتلك شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ستة حقول منتجة للبترول فى المنطقة المرتفعة التى تقع إلى الشمال والشمال الشرقى من رأس الخليج الفارسى ، ويسحب الزيت المستخرج من هذه الحقول خلال خطوط عديدة من الأنابيب إلى « عبدان » الواقعة على الخليج الفارسى ، حيث يوجد أكبر معمل لتكرير البترول يعد واحدا من أحدث المعامل الموجودة فى العالم ، وتساعد خطوط الأنابيب فى عبدان ومعاملها والتسهيلات الموجودة فى مينائها على تسليم ٦٠٠,٠٠٠ برميل من الزيت يوميا ، أما الغاز الذى يتسرب فى الحقول متدفقاً مع الزيت فإنه يسحب ويحرق سدى . ويصل الاستهلاك فيه إلى مايقرب من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ قدم مكعب يوميا ، وقد أعد مشروع لحمل هذا الغاز إلى طهران والمدن المهمة الأخرى . ولما كان ضغط الغاز فى الطبقات التى تحمل البترول يكفى تماما لدفع الزيت إلى السطح ، فإن الشركة قد نفذت عملية خاصة تعيد بواسطتها بقايا الزيت الثقيلة المتخلفة بعد عملية التصفية وترجعها مرة أخرى من عبدان إلى الحقول ، حيث تحقن فى الطبقات الأرضية لتكون الضغط تحت الأرض من جديد .

وتستخدم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية حوالى ٦٠,٠٠٠ من الإيرانيين وهيئة إنجليزية وأجنبية كبيرة ، وقد اهتمت اهتماما خاصا بمساكن الموظفين وتعليمهم وتدريبهم ومعالجتهم فى مؤسساتها الموجودة فى عبدان ، وفى داخل البلاد .

وقد بلغ مجموع إنتاج شركة البترول الإنجليزية الإيرانية فى عام ١٩٤٨ ١٩٠,٣٩٥,٠٠٠ برميل ، وارتفع هذا المستوى فى عام ١٩٤٩ ، وقد جاوزت ضرائب الامتياز المدفوعة للحكومة الإيرانية — فى عام ١٩٤٨ — ٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتنفق شركة البترول مبلغا يساوى ضعف هذا المبلغ المدفوع لضرائب الامتياز — بالجنيهات الاسترلينية — لشراء العملة الإيرانية اللازمة لتنفيذ عملياتها فى إيران ؛ والنقد الخارجى الذى تظفر به إيران من هذين المصدرين ذو أهمية حيوية للاستقرار المالى فى البلاد .

ويوزع البترول المشحون من عبدان على نصف الكرة الأرضية الشرقى بواسطة النظام الذى وضعته الشركة الإنجليزية الإيرانية للتسويق . فى عام ١٩٤٧ وتعاقدت شركتان أمريكيتان للبترول — لهما حقوق التسويق فى نفس هذه المنطقة — على شراء ١٣٢,٠٠٠,٠٠٠ طن برميل من الزيت الخام من شركة البترول الإنجليزية الإيرانية فى خلال السنوات العشرين التالية .

وفى غربى إيران ، استغلت شركة البترول بخانقين — وهى فرع من شركة البترول الإنجليزية الإيرانية — حقول نفط شاه (الزيت الملكى) بالقرب من قصر شيرين المجاورة — تماما — للحدود بين إيران والعراق ، ويسحب الزيت بالطلمبات فوق الجبال المشرفة على الهضبة إلى معمل حديث للتكرير أنشئ فى مدينة كرمانشاه ، ويوزع الجازولين والكيروسين — من هناك — على جميع أنحاء شمالى إيران .

وتدل التقارير — عن مدى اتساع حقول البترول الموجودة فى إيران — على أن فى البلاد مخزوناً يبلغ ثمانية بلايين من البراميل على الأقل .

ومن المحقق أن آبار البترول توجد فى جهات أخرى من إيران ، وقد وجدت آثار من الزفت والقار فى شمالى غربى إيران ، كما توجد ينابيع البترول على طول ساحل بحر قزوين ، وعلامات على وجود البترول فى شمال شرقى إيران ، كما لوحظت ينابيع البترول فى إقليم كرمان أيضا .

وفى عام ١٩٣٧ ؛ منحت الحكومة الإيرانية امتيازا يشمل آبار البترول فى القسم الشمالى الشرقى من البلاد لشركة أميرانيان Amiranian Oil Compay وهى فرع من شركة سيبورد الأمريكية للبترول Seaboard Oil Company of Delaware .

وبدأت أعمال المعاينة فى الحال ، ولكن الشركة الأمريكية تخلت عن الامتياز فى ١٩٣٨ ، وفى تواريخ أحدث من ذلك ، أبدت شركات البترول الأمريكية والانجليزية رغبة شديدة فى الحصول على امتيازات فى القسم الجنوبى الشرقى من البلاد ، وضغطت روسيا السوفيتية لتكوين شركة إيرانية سوفيتية

مشتركة لاستخراج مقادير البترول الممكنة من الولايات الشمالية فى إيران . وفى أثناء الاحتلال السوفييتى فى الحرب العالمية الثانية قامت القوات بمحاولات للكشف فى سمنان — شرقى طهران — وعلى طول ساحل بحر قزوين ، ولا بد أن الجيولوجيين الروس قد كونوا فكرة واضحة عن حقول البترول المحتمل وجودها فى شمالى إيران .

* * *

النبات والتربة :

إن ثلثى مساحة الأراضى فى إيران قد شغلته سلاسل الجبال العالية ، والصحارى الواسعة ، وهى أجزاء غير صالحة للزراعة ، وتبلغ مساحة الأرض الزراعية فى الوقت الحاضر خمس مساحة الثلث الباقى — تقريباً — وهى مساحة ضئيلة تبلغ $\frac{1}{15}$ من مساحة إيران كلها . ومنذ عام ١٧٠٠م، تهدم كثير من وسائل الرى الصناعية ، وتناقص عدد سكان البلاد بنسبة ٥٠ ٪ على الأقل . ولذلك فإنه رغم أن مساحة الأرض الزراعية المنتجة كافية الآن لسد احتياجات السكان القاطنين فى البلاد ، وتقديم كميات محدودة للتصدير إلى الخارج ، فإنها ليست مناسبة لتزايد عدد السكان .

والتربة الإيرانية لا تشبه التربة المعروفة فى أوروبا والولايات المتحدة ، وهى التربة التى تشتمل عادة على تركيبات عضوية حيوية نتجت عن تحلل النباتات الطبيعية . أما تربة إيران الأصلية فإنها غير ذلك ، فهى خليط من الحصباء والرمل والطين والكلس ، مما جعلها تتعرض — بمضى القرون — للبوار والفساد والتآكل ، وهى رغم ذلك صالحة للزراعة إلا حينما تتشبع بالقلويات[1] .

(١) يقصد أملاح القلى وهى أملاح متجمدة ممزوجة بالأحماض تسمى (Alkalis) وهى مادة ضد الحوامض (المترجم) .

الزراعة والغلات الطبيعية :

يتوقف الإنتاج الزراعى ونمو النباتات البرية على المطر ، وتحدد مقاديرها وفقاً لقلة المطر أو كثرته فى البلاد ، والحبوب هى قوام غلات البلاد ، وتشمل : القمح والشعير والأرز ، وتشغل زراعتها ٨,٠٠٠,٠٠٠ فدان .

ويزرع القمح فى كل جزء من أجزاء البلاد فيما عدا الأجزاء الواقعة على طول ساحل بحر قزوين حيث تحتل مكانه حقول الأرز الشاسعة الذى يزرع على الهضبة أيضاً فى الأماكن القليلة التى تتوافر فيها كميات كبيرة من المياه ، وقد بلغ محصول القمح فى عام ١٩٤٧ : ٢,١٣١,٩٠٠ طن ، وبلغ محصول الأرز ٢٤٥,٨٠٠ طن ، كما حصد أيضاً حوالى ٨٥٥,٤٠٠ طن من الشعير ، وهناك محصولات أخرى من بينها الأذرة والحنطة والبطاطس والذرة العويجة والبازلاء والفول والعدس . ويعد العلف — وهو من النباتات المستوطنة فى الأقاليم — أحد المحصولات الجديرة بالزراعة على نطاق أوسع ، لأن جذوره الطويلة تستطيع النفاذ إلى طبقات التربة الرطبة كما يزرع فى إيران — عموما — الكرنب واللفت والبصل والباذنجان والخيار والبطيخ ، ويزرع كذلك البنجر والقطن والطباق والخشخاش .

وتنتج إيران فواكه رائعة ، لا يساوى أغلبها فى الحجم أصنافنا التى تحسنت كثيراً ، ولكنها ألذ طعما ، وتشتمل الفواكه التى تزرع فى إيران على الخوخ والمشمش والبرقوق والكرز والكمثرى والرمان والتفاح . ومن المحتمل أن زراعة الخوخ وكثير من الفواكه الأخرى قد بدأت أصلا فى إيران ثم انتشرت منها إلى البلاد الأخرى . . . والمشمش هو المحصول الذى يزرع بكثرة وهو يجفف للاستهلاك المحلى والتصدير . والتفاح أصغر فى الحجم من التفاح المزروع فى الولايات المتحدة لأن برودة الشتاء لا تمتد امتداداً كافيا لصيانة فترة الحياة الساكنة اللازمة لأشجار التفاح . وتزرع الموالح وتشمل : البرتقال ، واليوسفى ، والليمون ، والليمون الحامض على طول الساحل القزوينى الدافئ الرطب ، كما تزرع كذلك فى الأقاليم الجنوبية كبلدة شيراز ، ويبلغ متوسط المحصول السنوى ١٤٩,٠٠٠ طن .

ويزرع نخيل البلح فى قرى الواحات الواقعة فى الداخل فى المناطق الواقعة على الخليج الفارسى ، وفى الحدائق المزروعة على رأس الخليج الفارسى ، وتوجد فى إيران ٨,٠٠٠,٠٠٠ شجرة من أشجار النخيل ، بلغ محصولها فى عام — ١٩٤٧ — ١٢١,٣٠٠ طن . ويعد البلح الغذاء الرئيسى فى جنوبى البلاد ويقوم مقام الخبز .

ويقدر عدد أشجار الزيتون فى — إيران — بحوالى ٤٠٠,٠٠٠ شجرة تزرع فى مساحة محدودة على المنحدرات الشمالية لجبال البرز ، ومحصولها من الثمار والزيت الذى تغله ذو قيمة محققة ، وهناك محاولات تبذل لإنبات هذه الأشجار فى أجزاء أخرى من البلاد .

وينمو على سطح الهضبة أكثر من ثلاثين نوعاً من أنواع العنب وتختلف طرق زراعته باختلاف العادات المحلية ، وهناك طريقة طريفة من هذه الطرق — هى أن تحفر حفرة مستديرة إلى عمق عدة ياردات حتى تصل إلى الطبقات الرطبة من الأرض ، ثم تزرع جذور الكرم فى قاع الحفرة ، وتملأ الحفرة بالتراب ، فيأخذ الجذر فى النمو نحو السطح ، حتى تصبح الكروم المزروعة جميعها فوق سطح الأرض . والعنب غذاء رئيسى فى أثناء أشهر الصيف ، ويجفف فيصير زبيباً للتصدير ويستعمل فى صنع النبيذ ، وتصنع أنواع من الأنبذة على الطريقة الأوروبية فى كثير من المدن ، ولكن خمر شيراز القوية هى أكثرها شهرة وانتشارا .

وبالإضافة إلى الحبوب ، فإن هناك محصولات أخرى تعد المصدر الرئيسى للإيراد الزراعى وهى القطن، والبنجر، والطباق ، والشاى ، وشرانق دود القز ، والخشخاش . وتشرف الحكومة على الصناعات المتصلة بالأنواع الخمسة الأولى منها فى مصانع حديثة مملوكة لها .

ويتفاوت محصول القطن المزروع بين سنة وأخرى تفاوتا كبيرا ، ففى السنوات ذات المحصول الوفير بلغ وزن المحصول المصدر ٢٧,٠٠٠ طن ، وفى عام ١٩٤٧ ، زرعت ٤٠٣,٦٠٠ طن من البنجر فى مساحات قريبة من المعامل

السبعة الكبيرة لتكرير السكر ، وهى مملوكة للدولة ويبلغ إنتاجها السنوى ٥٢,٥٠٠ طن من السكر ، أى أكثر من ثلث الاستهلاك المحلى للبلاد .

ويزرع قصب السكر على طول ساحل بحر قزوين ، وفى إقليم خوزستان — فى جزئيه الجنوبى الشرقى والجنوبى الغربى — حيث يلائم الجو القصب ، وكان يزرع بكثرة فيما سبق ؛ ويزرع الطباق المسمى بالطباق التركى — الذى يستعمل فى السجاير — فى الحقول الواقعة على طول بحر قزوين ، كما يزرع الطباق المستعمل فى الغليون (البيبة) فى الشمال الغربى .

ويزرع نوع خاص أكثر ملاءمة للنرجيلة (الشيشة) فى قرية خوانسار ذات الرى الوفير ؛ وقد بلغ محصول الطباق — فى عام ١٩٤٧ — ١٨,٧٠٠ طن . ومنذ سنوات استدعى متخصصون من الصين للعمل على التوسع فى زراعة الشاى الموجودة ، ولتحسين النباتات ، وتنتج إيران — فى الوقت الحاضر — ٧,٧٠٠ طن من الشاى سنويا ؛ من نباتاته التى تزرع على طول بحر قزوين ، ولكن هذه الكمية ، تقل عن المقدار اللازم لسد نصف الاستهلاك المحلى .

وفى الصيف ، تصير حقول الخشخاش البيضاء منظرا مألوفا ، ورغم احتياج زراعته إلى قليل من العناية ، فإنها تغل إيرادا نقديا طيبا ، وكان إعداد الأفيون وبيعه احتكارا حكوميا مربحا ، وقد بلغت مشتريات الولايات المتحدة وحدها فى سنة ١٩٤٢ ما قيمته ١,٤٠٠,٠٠٠ دولار من الأفيون ، ولكن المجهودات الحديثة التى تبذل لمنع تدخين الأفيون فى داخل البلاد ، قد أدت إلى إصدار أمر وزارى — فى عام ١٩٤٦ — بتحريم زراعة الخشخاش وبيع الأفيون . وغير اسم « القسم الحكومى لاحتكار الأفيون » إلى « إدارة تحريم زراعة الأفيون واستهلاكه » ، ومع ذلك فقد أغلت البلاد محصولا من الأفيون بلغ ثمنه ٩,٣٣٠,٠٠٠ دولار ، واستمر إنتاج الأفيون وإعداده خلال عام ١٩٤٩ .

وتنمو أشجار التوت فى جميع أجزاء الهضبة الإيرانية ، وتربى قرى كثيرة دود القز الذى يتغذى على أوراق التوت ، ولكن أهم مركز لإعداد شرانق دود القز هو السهل الساحلى لبحر قزوين ، ويتراوح إنتاج الحرير بين ٥٠٠ و ٢,٠٠٠ طن سنويا .

ولا تزيد مساحة المناطق المغطاة بالغابات الخشبية عن ١٠٪ من مساحة البلاد، وثلث هذه المناطق مغطى بغابات كثيفة، وهى توجد على طول المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال ألبرز، مبتدئة من مسافة قصيرة خلف بحر قزوين، من الشريط الساحلى لهذا البحر، وتتدرج فى الارتفاع حتى تصل إلى ارتفاع أقصاه ٧,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتغطى أغلب هذه المساحة غابات بكر من شجر البلوط ولسان العصافير (Ash)، وشجر الدردار (البقيصاء) والجوز، وخشب الزان، وخشب البقس (Box)؛ وشجر السرو، وشجر القبقب (الاسفندان) (Maple)، وشجر الخرنوب الحلو.

وتعد هذه الأشجار أهم ثروة وطنية يمكن الحصول عليها، ولذا فإن قطع الأشجار خاضع للقوانين الحكومية، وينقل الخشب فى صورة أعمدة للبرق، وألواح خشبية للوقود. إلى أجزاء الهضبة المختلفة بالقطار، وعربات للنقل، ويقوم مصنع حكومى بالقرب من بابل بقطع الأخشاب ودهنها بالزيت — خشية فسادها — لإعداد قواعد لقضبان السكك الحديدية التابعة للحكومة الإيرانية.

وتنحصر مناطق الغابات فى الهضبة الأصلية فى أعالى الجبال — غالبا — وتشتمل على نباتات متفرقة متباعدة من شجر البلوط المنخفض الذى يستعمل قشره فى دبغ جلود الحيوانات، ويقابل النقص الشديد فى الأخشاب فى أجزاء الهضبة الإيرانية بزراعة أحراش من شجر الزان فى بعض الأجزاء ذات الرى الوفير، وتستعمل جذوع هذه الأشجار فى إقامة المنازل، كما تزرع أشجار الصفصاف، والأشجار الباسقة، فى القرى، وعلى شواطئ الأنهار، كما توجد أحراش من أشجار الجوز السوداء الجيلة فى جميع أنحاء البلاد. وتزرع أشجار اللوز والفستق بكثرة أيضا، وتغر هذه الأشجار إيرادا نقدياً طيبا لكل من البدوى والفلاح، والواقع أن الدخل المتحصل من محصول شجرة جوز ضخمة واحدة يكفى لإعالة أسرة كاملة طوال العام.

وقد استمر قطع الغابات فى الهضبة الايرانية قرونا عديدة، ولا زال قائما على قدم وساق، فان البدو يقطعون أشجار البلوط المنخفضة، ويحرقون

الخشب للحصول على الفحم ، بينما تلتهم قطعان الغنم والماعز الشجيرات الجديدة . كما أن القرويين — فى كل مكان — يبحثون بحثا حثيثا عن الوقود . ومن المتيسر تماما إعادة زراعة الغابات فى مناطق معينة من البلاد ، ولكن ينبغى أن يحمى كل قسم تعاد زراعته لمدة معينة من السنوات ، حتى لا تصيبه أنواع التخريب التى ذكرت .

وتجمع بعض النباتات والشجيرات البرية ، ويعاسيبها وعصاراتها ومستخرجاتها بعناية فتكون مادة هامة من مواد التصدير ، ومن هذه المستخرجات : صمغ الكثيراء Gum tragacanth والصمغ العربى ، وصمغ الحلتيت والبرزد [1] Galbanum والحنظل (العلقم) Colocynth والعرقسوس ، ومواد الصباغة ؛ كالنيلة والزعفران والحناء المستعملة فى تخضيب الأيدى والأرجل والشعر والذقن — وهى تستعمل الآن أقل كثيراً جداً من ذى قبل — وتستخرج من أشجار تسمى بهذه الأسماء ، ويعد نبات القنبس الهندى (الجوت) Jute من النباتات المحلية المألوفة على الساحل القزوينى حيث بلغ أقصى إنتاجه فى إحدى السنوات ٦,٠٠٠ طن من أليافه ، وتستخرج الزيوت بعصرها من بذور النباتات مثل القطن والكتان والسمسم والخروع والخشخاش.

وتحظى الأزهار بتقدير عظيم من الإيرانيين ، حتى إن أصغر الحدائق المنزلية لتتلألأ بآنيات الزهر ، والنباتات الموضوعة فى الأصص .

وفى أوائل الربيع تزدهر أراضى الوديان وسفوح الجبال بالأزهار البرية . ومن بين الأزهار المألوفة فى إيران : الشقائق ، والياقوت الزعفرانى Grape-hyacinth والجيلاديولا [2] Gladiola وعباد الشمس Gentian ، والناقوس الأزرق Bell-flower ، والخشخاش Poppy ، والشقيق الأصفر Buttercup ، والكركم (الزعفران) Crocus والقرنفل الأحمر ، وزهرة السوسن (الايريس) Iris ، والخبيزى (الجيرانيوم) Geranium ، وشقائق

(١) البرزد أو القنة صمغ من شجرة القناوشق (المترجم) .

(٢) الجلاديولا : زهر من الأبصال (المترجم) .

النعمان القصيرة (Dwarf Hollyhock) ، وكثير من الأزهـار البرية التى ليست مألوفة فى البلاد الأخرى .

وتعتبر الوردة — من بين هذه الزهور جميعها — ذات المكان الأول فى قلوب الناس عامة ، فقد امتدحها الشعراء فى أشعار جميـلة ، منذ ألف سنة ، وتزرع أنواع كثيرة منها فى الحدائق ، أو تنمو كأزهار برية على أطراف مجارى المياه ، كما تزرع فى كاشان حقول واسعة من الورود لاستخراج ماء الورد المشهور الذى يصنع هناك .

موارد المياه ونظام الرى :

لقد أكدنا فيما سبق الحقيقة الثابتة ، وهى أن سقوط المطر فى إيران محدود مما أوجب أن ينتفع بقدر الإمكان من موارد المياه الموجودة فعلا ، وقد ذكرنا أن قدراً كبيراً من الأراضى يزرع بغير اعتماد على وسائل الرى فى الشمال الغربى والشمال الشرقى للبلاد ، ومع ذلك فإن إنتاج إيران الزراعى يعتمد على طرق الرى المختلفة .

والطريقة الفعالة فى زراعة سفوح الجبال هى أن تشق قنوات متفرعة من الأنهار ومجارى الميـاه فتحمل الميـاه مباشرة إلى الحقول المزروعة ، وتقسم القنوات الأكثر اتساعا إلى أخاديد ضيقة ، وتتصل الأخاديد المتوازية على مسطحات مختلفة على طول المنحدرات بمجارى المياه الصغيرة التى يمكن أن تترك مفتوحة أو مغلقة بواسطة الأحجار والحواجز ، ورغم هذا ، فإن نسبة كبيرة من موارد المياه الأصلية تضيع — بهذه الطريقة — عن طريق التسرب والتبخر فى القنوات ، وطبيعى أن كمية كبيرة من المياه تستنفد عند منبع النهر ، بحيث لا يبقى إلا ماء قليل لرى المساحات الواقعة فى مجرى النهر الأسفل .

وهناك طريقة أكثر منطقية وتعد تحويراً لهذه الطريقة من الرى الطبيعى ، وهو تحوير يجعله أكثر نفعا ، هى أن تحول القناة الرئيسية بحيث تجرى خلف الخزانات والقناطر المقامة على طول الأنهار ، ومن المحتمل أن تاريخ هذه الخزانات والقناطر يرجع إلى العصر الأكمينى رغم أنه لا توجد أطلال قائمة

يمكن أن تنسب إلى هذه الفترة التاريخية على وجه التحديد ، ومع هذا فإنه من المعروف أن الخزانات والقنوات المتصلة بها قد أنشئت فى جنوب غربى إيران فى حوالى القرن الأول الميلادى ، وقد وجدت بقايا لخزانات وقناطر كثيرة أنشئت فى أثناء العصر الساسانى — فيما بين القرنين الثالث والسابع الملاديين — على مساحة واسعة من جنوبى إيران وغربيها ، ولا زال قليل منها سليما فى أكثر أجزائه وهو يستعمل فى مشاريع الرى الحالية ، وقد أنشئت سلسلة متينة من الخزانات على طول نهرى قارون وآب دز ، ويستطيع المسافر بطريق الجو فوق خوزستان — الآن — أن يلاحظ بسهولة خطوط القنوات الواسعة التى تواصل سيرها خارج الخزانات . وقد ظلت هذه الخزانات مصونة جيداً بعد الغزو الإسلامى لإيران ، وحتى القرن الثالث عشر الميلادى ؛ وكانت مشاريع الرى تتسع دائماً ، فنتجت عنها زراعة آلاف كثيرة من الأفدنة على نطاق واسع ، وقد صارت الآن قاحلة تماما ، وإذا تقدمنا إلى عهود تاريخية أحدث ، فإننا نجد خزانات قليلة ضخمة قد أنشئت فى القرن السابع عشر ، وقد بقى اثنان منها — واحد بالقرب من ساوه والآخر بالقرب من كاشان — فى حالة حسنة تماما .

ومنذ ١٩٤١ ، اقتنع زعماء إيران بأنه ليس هناك مشروع أكثر حيوية بالنسبة لمستقبل البلاد من تيسير التسهيلات فى الرى ، فوضعت إدارة الرى مشروعات شاملة وقد بنيت — فعلا — خزانات قليلة صغيرة ، أما المشروعات الأخرى التى فى مرحلة الدراسة والتخطيط فتشمل إنشاءات على نطاق واسع سوف تحتاج إلى مبالغ كبيرة من المال ، وأحد هذه المشروعات مشروع لتوسيع نهر زاينده رود وتعميقه ، وهو النهر الذى يجرى إلى ماوراء إصفهان ، ويوجد أخدود ضيق على بعد حوالى خمسة وسبعين ميلا غربى إصفهان فى سلسلة جبال كوهرنك ، وهو يفصل بين حوضين رئيسيين من المصارف ، حيث توجد — إلى غربى الأخدود — منابع المياه الوفيرة لنهر قارون الذى يصب فى الخليج الفارسى ، ويوجد — إلى شرقى الأخدود — الجزء العلوى لمجرى زاينده رود الذى ينتهى فى الصحراء الداخلية .

وكان الملوك الصفويون هم أول من فكر فى ربط نهر قارون بزاينده رود فى القرن السابع عشر الميلادى ، فاشتغل آلاف من العمال بقطع حوض يشبه حرف « V » فى الأخدود ولكنهم تركوا العمل بعد أن أكملوا ما يقرب من ثلثه . والهدف — الآن — هو أن يشقوا نفقا عبر الأخدود وأن ينشئوا خزانا على الجانب الشرقى ليخزن مياه فيضان كل من النهرين ، وسوف يكون هذا الخزان — أيضاً — مصدراً للقوة الكهربائية التى ستستعمل لإدارة مصانع إصفهان ، وقد أكمل إنشاء نصف الطريق إلى الخزان . وموقع النفق .

وهناك مشروع آخر سوف يوفر كميات كبيرة من مياه الشرب لمدينة طهران ، كما يروى — أيضاً — مساحات واسعة من سهل ورامين جنوبى طهران ؛ فعلى بعد من طهران وعلى الجانب الآخر من سلسلة جبال البرز — يوجد نهر لار الذى يجرى نحو بحر قزوين ، وقد اقترح إنشاء خزان مرتفع جداً على الجزء العلوى من نهر لار لخزن المياه ، وحفر أنفاق لحمل المياه من هذا الخزان تحت الجبال إلى نهر « جاجى رود » الذى يجرى فى المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال البرز ، ثم تحمل أنابيب منفصلة — تخترق الجبال — الماء النقى إلى طهران ، وتعد هذه الطريقة الجبارة مشروعاً بالغ الأهمية .

ويجب أن يبين أنه ليس من الضرورى أن تكون مشروعات الرى العملية ذات الفائدة العظيمة للبلاد على النطاق الذى يكون عليه المشروعان اللذان وصفا من قبل ؛ وسوف تحدد المعاينات الدقيقة جوانب كثيرة . حيث يمكن أن تنشأ خزانات صغيرة على الوديان الضيقة فى نقط مرتفعة مجاورة للمناطق الزراعية ، وسوف تملأ هذه الخزانات فى الربيع ثم تطلق المياه بالتدريج خلال الأشهر الجافة ، ويمكن أن تبنى هذه الخزانات بواسطة العمال المحليين ، ومن الحجارة الموجودة فى متناول اليد مباشرة ، ويحتاج فى هذه الحالة إلى نقل الأسمنت فقط ، وبعض الآلات التى تنقل الأتربة إلى موقع الخزان ، ورغم هذا فإن الدراسات الأولية يجب أن تهتم بالاعتبارات الأخرى فى اختيار كل موقع فلا تقتصر على مجرد ملاءمته ، فهناك نماذج معينة من التربة يكفى

توزيع المياه فيها لخلخلة بناء الخزان ، وينبغى أن تتخذ عناية تامة حتى لا يساق الماء الأجاج إلى أرض عذبة ، أو يضيع الماء العذب فى أرض مشبعة فعلا تشبعا شديدا بالأملاح .

والوسيلة الثانية — وهى الأكثر أهمية — للرى فى إيران هى القنوات الجوفية التى تحت الأرض والتى تسمى بالفارسية «قنات» أو «كاريز» ، وهى طريقة تستعمل فى جميع أنحاء البلاد ، وخصوصا فى المناطق التى تفيض فيها أنهار قليلة ، ويبدو أن هذه الطريقة خاصة بإيران وحدها ، لأنه يندر أن توجد فى غير هذه البلاد ، وتعتقد بعض المصادر أن القنوات الأولى من هذا النوع قد حفرت فى عصور ما قبل التاريخ ، وقد وجد نفق لقناة قديمة — وهى القناة الوحيدة المعروفة فى مصر — فى واحة الخارجة ، على بعد مائة ميل غربى وادى النيل ، ولما كانت القناة قريبة من معبد مشيد بعد فتح الجيوش الإيرانية لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فانه يبدو من المحتمل جدا أن الغزاة شيدوا هناك مشروعا كان فى ذلك الوقت معروفا فى إيران .

وقد يحفر مجرى للقناة ليمد قرية منزرعة بالماء ، وليروى حقولها الخصبة ، كما قد تحفر بئر أو ينشأ خزان فى قواعد الجبال فى أقرب نقطة إلى القرية ، وتغوص البئر فى الأرض بحيث يكون قاعها تحت المستوى المائى فى الصيف ، والمستوى المائى هو طبقة من الصخور المسامية تستبق الماء الذى يتسرب إلى أسفل الأرض — بعد أن يكون الربيع قد أذاب الثلوج التى على القمم العالية — ويكون عمق البئر الرئيسية مائتى متر على الأقل ، وتوجد آبار رئيسية بالقرب من قرية «كناباد» فى شرق إيران يبلغ عمق الواحدة منها حوالى ١٫٠٠٠ قدم ، ومن المعروف أنها حفرت منذ خمسمائة سنة على الأقل ويتفرع من قاع البئر غالبا مجموعة من الدهاليز الأفقية حتى يمكن سحب الماء من منطقة أوسع من منطقة المستوى المائى إلى المشروع الذى تم فعلا . وبعد الفراغ من البئر الرئيسية يبدأ فى حفر خندق فى المنحدر البسيط الذى يعلو القرية ، يتجه مباشرة نحو البئر البعيدة ، وحينما يصل إلى عمق معين يتحول إلى نفق ، وبعد أن

يمتد النفق خلال الأرض تخترقه آبار عمودية تحفر على مسافات تبلغ خمسين ياردة أو أكثر ، وهى تساعد على جلب الهواء للعمال الذين فى النفق كما تساعد على إخراج المواد المحفورة بسلال تسحب إلى أعلى الآبار بواسطة الحبال . ثم يصل النفق إلى البئر الرئيسية فى النهاية ، وتتدافع المياه خلاله إلى القرية .

وقد تخصص فى حفر شبكة القنوات عدد محدود من أسرقام أفرادها بهذا العمل أجيالا عديدة ، وتعد مدينة يزد مقر حفرة القناة المهرة ، ويحفر هؤلاء الرجال مجرى النفق بمعدات بسيطة ، ويرسمون انحداره بحيث يجعل المياه فى حالة حركة ، وأحيانا يشق النفق من قاعدة البئر الرئيسية نحو القرية ، ويختلف مجرى خط القناة فى الطول فيتراوح بين مئات قليلة من الياردات وبين خمسة عشر أو عشرين ميلا ، وقد يستغرق حفر مجرى قناة واحدة سنوات عديدة ، ويبلغ عرض النفق الذى تحت الأرض ٢½ قدم ، ويبلغ ارتفاعه أربعة أقدام ، وهو مكان يكفى لأحد الحفرة . ويحفظ سقف النفق من الانهيار — فى الأرض الهشة أو الرملية — بتدعيمه بأسطوانات من القرميد . ولا يعد العمل منتهيا بمجرد إتمام القناة ، لأنه ينبغى أن تبقى من الأنقاض والرمل الذى يقع فيها من الآبار العمودية ، وتتكون — عاجلا أو آجلا — كهوف ، فيبدأ أولا بحفر أجزاء جديدة من النفق حول هذه النقط ، ويصبح جميع خط النفق مغلقا بالحجارة ، وينبغى فى هذه الحالة أن يهجر بعد ذلك . وعلى هذا ، فإنك تستطيع حينما ترى قرية من الجو أن تتتبع مجارى أربع قنوات أو خمس بواسطة أكوام التراب التى حول الآبار العمودية ، ولكن المحتمل أن واحدة فقط — لا أكثر — هى التى تؤدى وظيفتها .

ويمكن لمجرى القناة الذى يحمل كمية وفيرة من الماء أن يفيض بمعدل حوالى أربعة أقدام مكعبة فى الثانية ، وهو مقدار يكفى لرى حوالى مائتى فدان ريا دوريا ، ويفيض مجرى القناة على السطح المنحدر البسيط الذى يعلو القرية ، ويكون فى البداية نفقا منفردا يهب القوة الكافية لإدارة الطاحون المحلية ،

ثم يتفرع النفق فيها وراء الطاحون وتفيض فروعه — أولا — خلال الحدائق والأراضى التى تحيط بالمنازل ، ثم خلال أزقة القرية ، وتنتشر المياه قرب نهاية المنازل لتغطى منطقة — على شكل مروحة — من الحقول المزروعة .

وتمر الأنفاق أو الجداول عبر الحقول — فى زوايا مستقيمة إلى قطع مستطيلة من الأرض محاطة بحاجز من الطين ارتفاعه قدم ، وتروى كل قطعة بواسطة نقل المياه من المجرى إليها حتى يغمرها الماء بارتفاع بوصة أو بوصتين . وتروى حقول القمح فى الشتاء — فى أثناء الجو البارد — ثلاث ريات أو أربعا ، وفى الصيف تروى كل قطعة فى فترات تتراوح بين ثمانية أيام وأسبوعين ، وتكون حقوق الرى عادة معقدة جدا ، لأن دخل القناه يمكن أن يكون ملكا لشخص واحد ، أو لعدة أشخاص بالشيوع ، يمتلك كل منهم نسبة مئوية مختلفة من مجموع الدخل ويتولى واحد من الرجال أو أكثر توزيع الماء وصرفه ، ويقدر الزمن اللازم لرى كل قطعة بواسطة قدح نحاسى صغير بجوف مثقوب فى قاعدته ، ويوضع فى سلطانية أكبر من الماء ، وذلك لقياس الزمن المطلوب لغطسه فى هذا الماء .

والوسيلة الثالثة للرى هى المياه المسحوبة من الآبار ، وتتحقق الآن فائدة محدودة — نسبيا — من هذه الوسيلة ، اللهم إلا فى جنوب غربى إيران حيث تستعمل الحيوانات لإدارة السواقى أو سحب أدلاء الماء المصنوعة من الجلد ، وكلتا الوسيلتين مألوفتان فى بلاد الشرق الأدنى وشمالى إفريقية ، ومع هذا فإن من المحقق أن الآبار سوف تلعب دورا متزايد الأهمية فى الرى ، لأن المياه فى معظم أجزاء الهضبة تقع على مسافات ليست بعيدة جدا عن سطح الأرض ، وقد بدأت إمكانيات حفر الآبار بالآلات ودفع الماء بواسطة المضخات الآلية تلفت الأنظار ، وتحظى باهتمام كبير ؛ وهناك الآن جملة من آلات الحفر تشتغل فى أماكن متعددة . ويمكن بواسطة الآبار الارتوازية أو الينابيع التى تفيض من تلقاء نفسها أن تكثر كميات المياه ، كالبئر التى تفيض الآن فى ناحية شهريار بطهران ، وقد حدد المتخصصون مناطق أخرى قليلة ،

تدل طبوغرافيتها العامة وتكوينها السفلي على إمكان وجود الآبار الارتوازية فيها ، غير أنه ليس من المحتمل أن توجد مثل هذه التكوينات المناسبة فى أجزاء كثيرة من الهضبة .

وسائل الزراعة :

تتم زراعة الأرض — حرثها وبذرها وحصدها — بنفس الطريقة المتبعة فى البلاد الأخرى فى الشرقين الأدنى والأوسط ، وبالوسائل المستعملة منذ آلاف السنين فتُشَقّ الأرض بواسطة عدد من الثيران تجر محراثا مصنوعا من فرع شجرة متشعب ، حده مصنوع من الحديد ، وتسمى المساحة التى يمكن أن تحرث بواسطة ثورين « جفت » أى « زوج » ، وتتطلب من البذور ألفى رطل من القمح أو الشعير ، ويتم بذر الحبوب ، وتنقية الحشائش باليد ، ويقطع القمح الناضج أو الشعير بالمناجل ويحزم فى حزم ، ويترك للفقراء حق جمع العيدان الساقطة كما ورد فى التوراة تماما .

وتحمل الحزم إلى البيدر ، وهو مسطح من الأرض الصلدة يقع فى حافة كل قرية ، وهناك يكوم القمح كومات ، ويدرس بنورج تجره ثيران ، وهو عبارة عن إطار ضخم له حدود بارزة ، تمر ببطء فوق الحزم التى تكون فى شكل دائرة مرات عديدة ، وتتم تذرية الحبوب بمذراة فى ريح قوية ، ويطحن الدقيق فى طاحون التربة للاستهلاك المحلى ، بينما يوضع الباقى فى جوالات ، تحملها الحمير أو الجمال إلى المدن الكبيرة ، وتستعمل الحكومة أيضا أسطولا من عربات نقل البضائع لجمع القمح ونقله إلى المخازن الكبيرة .

الفصل السادس

الصناعات
والتجارة الداخلية
والتبادل التجارى

الصناعة والتجارة :

قال رضا شاه حينما افتتح الجلسة الأولى للدورة البرلمانية الثامنة فى ديسمبر من عام ١٩٣٠ : « نريد أن تعرف هذه الدورة البرلمانية — فى تاريخ البلاد — باسم الدورة البرلمانية الاقتصادية » .

ومنذ ذلك الوقت ، بذلت كل المحاولات لجعل إيران تكتفى نفسها بنفسها بقدر المستطاع ؛ وقد بدأت الحكومة العمل بأن قامت بدور هيئة التنظيم الاقتصادية العليا ، فبدأت بتنمية الصناعة فى داخل البلاد على نطاق واسع ، غير أنه كان لابد من اتخاذ مقاييس خاصة قبل إنشاء المصانع وإعدادها للعمل ، وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية قد أثرت فى إيران كثيرا ، فكان لزاما على الحكومية أن تنهض بالسيطرة التامة على المعاملات التى تتم عن طريق التبادل الخارجى ، وأن تشرف على تجارة (عملية) الاستيراد حتى لا تشترى إلا الضروويات الرئيسية برأس مالها الضئيل المخصص للمعاملات الخارجية ، وكانت فكرة إنشاء شركات ذات رأس مال Stock Companies وطريقة تشغيلها ، يجب ان تشرح للتجار ولرجال الصناعة الجدد وللساهمين الذين يمكن اشتراكهم فيها ، وفضلا عن ذلك كان من الواجب إعداد جملة من الشركات المساهمة التى تشتغل بمسائل التصدير والاستيراد لتوزيع منتجات المصانع التى كانت تحت التأسيس .

وأنشئت وزارة الاقتصاد الوطنى لتنظيم ميادين الزراعة والتجارة والصناعة . وفى عام ١٩٣١ ؛ ووفق على قانون يحتم تسجيل جميع الشركات ، وإلزام هذه الشركات باتباع بعض التنظيمات المعينة . وفى عام ١٩٣٢ ؛ نفذت لائحة قوانين

جديدة ، وتزعمت الحكومة حركة إنشاء شركات جديدة ، كان بعضها كله ملكا للحكومة ، وكانت للحكومة نسبة مئوية غالبة فى البعض الآخر ، وكانت الملكية فى البعض القائم موزعة بين حملة الأسهم فى الشركة الجديدة والحكومة ، وشركة أو أكثر من الشركات الموجودة ، والواقع أن أعمال بعض هذه الشركات وكيفية تقسيمها جديرة بالذكر .

وقد أسست الشركة الأمبراطورية Emperial Company فى عام ١٩٣١ براس مال قدره ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال تمثلها ٥٫٠٠٠ سهم هى قيمة رأس المال ، وكان رضا شاه يملك ٢٫٠٠٠ سهم منها ، بينما كان المصرف الأهلى يملك ٢٫٠٠٠ سهم . أما الباقى وهو ١٫٠٠٠ سهم فكان ملكا لشركتين ألمانيتين تنتجان الأدوات الميكانيكية ، والمعدات الكهربائية .

وأسست الشركة المركزية Central Company لتنهض بالمعاملات التجارية فى الخارج ، وكانت تمولها وزارة المالية والمصرف الزراعى ، وكانت تتحكم فى شركة القطن ، والصوف ، وجلود الحيوانات التى كان عليها أن تعد هذه الأشياء وتصدرها .

وكانت شركة المنسوجات القطنية تحتكر واردات أثواب المنسوجات القطنية وبيعها لأفراد التجار وقد قرر لها رأس مال قدره ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال ، ٥٢٪ منه يملكه المصرف الأهلى ، ويملك الباقى وزارة المالية ومديرو الشركة ، وكان على التجار أن يدفعوا للشركة ٢٠٪ فوق قيمة البضائع ؛ فكان ١٥٪ من هذا الربح يدفع للحكومة ثمنا لإعطائها حق هذا الاحتكار للشركة ، بينما كانت الـ ٥٪ الباقية تدفع عمولة للشركة .

وفى عام ١٩٣٦ حصلت الشركات — التى للحكومة عدد ضخم من أسهمها ، أو التى لها فيها أكبر نسبة من الأرباح — على امتياز احتكار تصدير أو استيراد الأشياء الآتية : بيض دود القز ، والسكر والكبريت ، والخشخاش ، والحرير ، والمنسوجات القطنية ، والجوت ، والأرز ، وأوراق اللعب ، وجلود الماعز ، والغنم ، والزعفران والحلتيت ، والسجاد ، والجوارب الحريرية ، والصوف ،

والمشروبات الروحية ، والأطعمة المحفوظة فى العلب ، والفراء ، وحقائب اليد ، والأحذية ، والسيارات ، وعربات النقل ، والإطارات ، وقطع الغيار ، والفواكه المجففة .

وهذا معناه أن الحكومة كانت لها سيطرة مباشرة على ٣٣ ٪ من جميع الواردات ، وعلى ٤٤٪ من مجموع الصادرات .

وكانت أرباح الشركات كبيرة ، فمثلا عرضت شركة أسهما للبيع مع ضمان ربح سنوى لها قدره ١٢٪ ، كما حققت شركة أخرى للغزل والنسيج أرباحا تتراوح بين ٤٠ و ٥٠٪ .

وكان جزء من الأرباح التى تتجمع لدى الحكومة يستعمل لإنشاء المصانع ، والمشروعات الصناعية ، وكانت هناك بطبيعة الحال محاولة لجعل ثمن البضائع المستوردة عاليا نسبياً ، وكان أهل إيران — نتيجة لهذا — يدفعون شيئاً للتوسع الصناعى فى بلادهم عن طريق نوع من الضرائب غير المباشرة .

ودخل نظام الاحتكار والمراقبة فى طور جديد حوالى سنة ١٩٣٧ بعقد اتفاقات مبادلة (مقايضة) بين إيران وألمانيا ، وبين إيران وروسيا السوفييتية ، فأرسلت روسيا المنسوجات القطنية والسكر والأشياء الأخرى فى مقابل الصوف والأرز .

ولما جلت الحرب العالمية الثانية ؛ لعب نظام الاحتكار دوراً مهما للغاية فى الحياة الاقتصادية للبلاد ، لأن مصادر التموين المحدودة ، وصعوبة الشحن فى السفن ، جعلت من الضرورى على الحكومة الإيرانية أن تستورد عن طريق عملاء الحلفاء ، فلم تكن تستورد إلا الأشياء الضرورية ، وكان نظام التموين فى وقت الحرب — أيضاً — من العوامل التى جعلت الحكومة فى شغل شاغل .

وقد ألغيت احتكارات كثيرة منذ عام ١٩٤٢ ، وأخذ البرلمان والحكومة يدرسان نظام الاحتكار جميعه ، لتقرير ما إذا كان ينبغى أن يبقى الاحتكار جزئياً ، أو أن يلغى تماما .

وكان فى إيران أقل من مائة شركة أجنبية مسجلة فى المدة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٤١ ، وكان أغلب هذه الشركات يشتغل بالتجارة والتأمين والنقل ، وكان سبعا منها — فقط — شركات صناعية .

وفى عام ١٩٤٣ زودت إنجلترا رأس المال الأجنبى المستثمر فى إيران بمبلغ ١٩,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ، وضعت أغلبه فى المصرف الإمبراطورى (Imperial Bank) ، وفى شركة البترول الإنجليزية الإيرانية (Anglo—Iranian Oil Company) ثم اقتفت روسيا السوفييتية أثر إنجلترا فزودت رأس المال الأجنبى بمبلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وضعتها فى شركات التأمين والنقل ، والسياحة ، وشراء منتجات البترول ، واقتفت دول أخرى أثرهما إلى أبعد حد .

وطبيعى جداً أن تتخلف إيران — كثيراً — عن العالم الغربى فى ميدان التصنيع ، واستعمال الآلات الحديثة ، ففى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت هناك صناعات قليلة فى داخل البلاد لا تعدو بعض مصانع توليد الكهرباء على نطاق محدود ، ومصانع قليلة للكبريت . وقبل أن توقف الحرب العالمية الثانية برنامج رضا شاه المفصل لتصنيع البلاد ، استطاع أن ينشئ ثلاثين مصنعا متوسطة الاتساع ، تملكها الحكومة وتديرها فضلا عن مائتى إدارة أخرى للصناعة ، وكان الاهتمام منصبا — غالبا — على نسج المنسوجات ، تليها — فى المرتبة الثانية — المواد الغذائية ، ومنتجات الخضروات .

وكان البرنامج الصناعى — عامة — ذا هدف واحد ، وكان ينفذه متخصصون أجانب ومهندسون إيرانيون دربوا فى الخارج ، وكانت المصانع تقام فى أماكن معينة خاصة بجوار السكك الحديدية الجديدة ، والمناطق التى بها رواسب معدنية ، والمساحات التى تصلح لإنتاج المنتجات الزراعية ، وقد صمم كثير من هذه المصانع بمعرفة الشركات الأوروبية التى أشرفت عليها ، واشتريت لها آلات حديثة جديدة من إنجلترا ، وألمانيا ، والسويد وغيرها من الدول .

ويوجد فى كل مدينة تقريباً — أيا كانت مساحتها — مصنع لتوليد الكهرباء للإضاءة وإدارة الآلات ، وتستعمل أغلبها محركات الديزل ، ويدار قليل منها بالفحم .

وتوجد سبعة معامل كبيرة لتكرير السكر ، فى أجزاء مختلفة من البلاد ، حيث توجد مساحات كبيرة من الأراضى الصالحة لزراعة البنجر .

وقد أنشئت مصانع النسيج فى أماكن متعددة من البلاد ، ويحلج القطن فى محالج محلية كثيرة ، حيث أقيمت مصانع كثيرة تدار بالآلات ، ويوجد ٢٩ مصنعا للغزل والنسيج فيها ٢٢٣,٦١٤ مغزل ، وأكثر من ٣,٦٠٠ نول ؛ وهى تنتج حالياً ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ متر من الأقمشة القطنية — أى حوالى ½ احتياجات البلاد — و ٢,٤٠٠,٠٠٠ حزمة (بكرة) من الغزل ، وهناك مصنع ينتج الخيوط القطنية ، وخمسون مصنعا صغيراً لصناعة الجوارب ، والبضائع المحبوكة على ٤٥٠ نول يدوى ، وتضم عشرة مصانع لغزل الصوف ونسجه ٤٣٦ نول ، وتنتج الآن ٢,١٤٢,٧١٩ متر من القماش — أى نصف الاستهلاك السنوى — و ٤٠١,٥١١ بطانية سنويا . وإصفهان هى مركز صناعة نسج الصوف ، وكثير من المصانع مملوك ملكا خاصا ، ويربى دود القز على طول الساحل القزوينى ، حيث يوجد مصنع حكومى فى جالوس ، يقدر إنتاجه السنوى بـ ٤٢٢,٠٠٠ متر من الأقمشة الحريرية .

وقد أقيمت مصانع لحفظ اللحوم والفواكه على طول الساحل القزوينى ، وتوجد مصانع أصغر لحفظ الخضروات والفواكه فى شمالى البلاد ، ويوجد مصنع لحفظ السردين فى بندر عباس على الخليج الفارسى ، يبلغ إنتاجه السنوى خمسين طنا . وتعصر الخضراوات ، ويصنع الصابون من زيوتها فى كثير من المصانع ، ويوجد فى جنوبى طهران مصنع للزيوت النباتية يقدر إنتاجه السنوى بـ ٣,٠٠٠ طن ، ويوجد مصنع حكومى فى طهران ينتج ٩,٦٠٠,٠٠٠ قالب من الصابون ، و ٢٥ طنا من الجلسرين كل عام وينظف القمح والشعير فى سبعة مصانع تملكها الحكومة ، وتخزن الحبوب فى مخازن كثيرة محكمة ، ثم تطحن فى أحد عشر مطحنا ، ينتج كل منها ٣٠ طنا من الدقيق يومياً .

وقد أنشأت الحكومة — وهى تحتكر الطباق — مصنعا حديثا ، ذا إنتاج سريع لمنتجات الطباق فى طهران ، وهو ينتج السيجار والتبغ للغليون ، ودخان

النرجيلة ، والنيكوتين المركز ، ويستطيع أن ينتج ١٢٫٥٠٠٫٠٠٠ سيجارة من مختلف الأصناف يوميا .

وفى عام ١٩٤٧ ، كانت العشرون سيجارة من أرخص صنف تباع بعشرين سنتا ، بينما كانت العشرون من أحسن صنف تباع بأربعين سنتا[1] ، وهى أثمان تساوى ثمانية أضعاف أثمان عام ١٩٣٩ ، وهذه الزيادة لم تنتج من ارتفاع تكاليف الإنتاج ؛ بل نتجت عن ارتفاع الأرباح التى تأخذها الحكومة عن طريق احتكارها لهذا الصنف المهم .

وتعد طهران — أيضا — مركزا لإنتاج مواد البناء ، حيث يوجد فيها مصنع تملكه الحكومة ، ينتج ٣٣٠ طن من الأسمنت يوميا ، كما تحرق الأفران الموجودة على الحافة الجنوبية للمدينة حوالى أربعة ملايين من قوالب الطوب يوميا .

ولكن إنشاء المصانع لصهر المعادن وصنعها لا يساير التوسع الصناعى فى الميادين الأخرى . ويوجد مصنع حكومى بالقرب من طهران ، ينتج السبائك والأسلاك النحاسية ، ولكن الصلب والحديد يستوردان فى الوقت الحاضر من الدول الأخرى لجميع الإنشاءات المعمارية . ولما قامت الحرب العالمية الثانية ؛ كان مصنع كبير للصلب قد تم إنشاء أكثر من نصفه فى مدينة « كرج » على بعد ٢٥ ميلا من طهران ، وكان هذا المصنع يضم أفرانا للصهر والتفجير ، وأسطوانة لبسط المادة ؛ كما كان قريبا من مناجم الفحم والحديد ، وقد أنشىء لإنتاج القضبان ، والحدائد الثقيلة ، والعهادات الخاصة بخطوط السكك الحديدية ، ولصنع الدعائم وكمرات الحديد للمنشآت البنائية والمعابر .

وتنتج مصانع أخرى مملوكة ملكا خاصا ، أو مملوكة للحكومة ؛ كربونات الصوديوم ، والصودا الكاوية ، وحامض الهيدروكلوريك ، وحامض الكبريت (السلفريك) ، وبيكرومات (ثانى كرومات) البوتاسيوم لدبغ الجلود ، والبوراكس ، والخور والبيرة .

---

(١) كان السنت يساوى فى ذلك الوقت مليمين بالعملة المصرية تقريبا (المترجم) .

والصناعة مركزة فى طهران ، وتوجد مراكز ثانوية للصناعة على طول الساحل القزوينى وفى الإقليم الشمالى الغربى لآذربيجان ، ويقدر المجموع الكلى للعمال الصناعيين بما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ عامل ، منهم ٦٠,٠٠٠ يعملون فى شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، و ٢٥,٠٠٠ فى مصانع النسيج .

ولم يكن يسمح بإنشاء نقابات للعمال فى أثناء عهد رضا شاه ، وقد أنشئت الاتحادات الأولى من هذا القبيل فى عام ١٩٤٢ . واستطاع حزب توده — وهو حزب سياسى — أن يسيطر على لجنة مركزية لاتحاد نقابات العمال التجاريين ، وأن ينظم لها فروعا محلية فى المراكز الصناعية فى البلاد . وقد استفادت اللجنة المركزية استفادة فعالة من الضغط السياسى والإضرابات للحصول على أجور أعلى ، وتحسين أحوال العمل لأعضاء الاتحاد .

وفى عام ١٩٤٦ ، أصدرت وزارة العمل — المنشأة حديثا — قوانين للإشراف على تكوين نقابات العمال ، وتنظيم نشاطها ، واستوعبت كثيرا من النقابات الموجودة فى اتحاد سمته : « الاتحاد الحكومى لرعاية العمال الإيرانيين » .

التجارة الخارجية :

مكنت القوانين التى فرضتها الحكومة الإيرانية وأشرفت على تنفيذها — فى المدة التى سبقت الحرب العالمية الثانية — إيران من الاعتماد على ميزان مناسب للتجارة الخارجية رغم أنه كان ميزانا مضطربا ، ففى السنوات التى مالت أسعار الواردات فيها إلى الزيادة ، استعملت البلاد العملة الأجنبية المتحصلة من استغلال امتياز البترول فى شراء البضائع الأجنبية ، وبذلك تجنبت التصدع فى نظامها الاقتصادى .

وتمثل الإحصاءات الواردة فى الجدول التالى المجموع الكلى لتجارة إيران الخارجية خلال بضع سنوات ، وقد أخذت من نشرات إدارة الجمارك الإيرانية ، وتشمل الأرقام الخاصة بالواردات مشتريات الذهب والفضة ، ولكنها لا تشتمل على قيمة البضائع التى أعفيت من الرسوم الجمركية ، كما أن

أرقام الصادرات لا تشتمل على قيمة منتجات الزيت المصدرة من إيران عن طريق شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، ولا تضم قيمة التجارة الخارجية التى تمت بمقتضى اتفاقيات المقايضة وقد تم تحويل الأرقام الأصلية من الريالات الإيرانية إلى الدولارات الأمريكية بناء على السعر الرسمى الذى تم به المعاملات كما كان سائدا فى كل سنة تم فيها التعامل . وقد كانت قيمة الريال الإيرانى — فى سنة ١٩٤٢ — بالنسبة للدولار الأمريكى أكثر ارتفاعا منها فى أى وقت آخر منذ ذلك الحين :

	الصــــادرات	الواردات	مجموع التبادل التجارى
١٩٤٧	٧١٬٥٠٧٬٠٠٠ دولار	١٤٤٬٨٠٠٬٠٠٠ دولار	٢١٦٬٣٠٧٬٠٠٠ دولار
١٩٤٦	٧٩٬٠٧٦٬٠٠٠ »	١٢٦٬٦١٥٬٠٠٠ »	٢٠٥٬٦٩١٬٠٠٠ »
١٩٤٥	٥٢٬٢٤٦٬٠٠٠ »	٩٥٬٥٦٩٬٠٠٠ »	١٤٧٬٨١٥٬٠٠٠ »
١٩٤٤	٢٤٬٣٦٩٬٠٠٠ »	٩٠٬٨٤٦٬٠٠٠ »	١١٥٬٢١٥٬٠٠٠ »
١٩٤٣	٢١٬٦٦١٬٠٠٠ »	٤٦٬٩٨٤٬٠٠٠ »	٦٨٬٦٤٥٬٠٠٠ »
١٩٤٢	١٦٬٩٦٠٬٠٠٠ »	٣٩٬٩٣٩٬٠٠٠ »	٥٦٬٨٩٩٬٠٠٠ »
١٩٤١	٣١٬٤٧٢٬٠٠٠ »	٢٣٬٧٩٤٬٠٠٠ »	٥٥٬٢٦٦٬٠٠٠ [(١)] »
١٩٤٠	٥٤٬٠٩٣٬٠٠٠ »	٥٠٬٥٨٤٬٠٠٠ »	١٠٤٬٦٧٧٬٠٠٠ »
١٩٣٩	٤٣٬٩٣٤٬٠٠٠ »	٣٣٬٤٤٢٬٠٠٠ »	٧٧٬٣٧٦٬٠٠٠ »

وأغلب الواردات الإيرانية عبارة عن : الآلات ، والسيارات ولوازم السكك الحديدية ومواد البناء ، والمنسوجات القطنية ، والسكر ، والشاى ، وفيما يلى قوائم شاملة — تقريبا — لواردات البلاد وصادراتها :

الواردات :

سيارات المسافرين ، والسيارات العامة ، وسيارات النقل ، والدراجات البخارية والدراجات وقطع غيارها ، والإطارات وأنابيبها ، ولوازم السكك الحديدية ، والقضبان ، والحديد والصلب اللازمان للبناء والصناعة ، والمواد

(١) كتب هذا الرقم فى الأصل ٧٥٬٢٦٦٬٠٠٠ وهو خطأ كما يبدو من مجموع الصادرات والواردات ، والصحيح ما ذكرنا (المترجم) .

الكيميائية اللازمة للصناعة ، والمواد الأقرباذينية وأدوات الزينة ، والورق ، وأوراق اللعب ، والتوصيلات الكهربائية ، ولوازم الإضاءة ، وبيكات (كوبسات) النور ، والأسلاك من جميع الأنواع ، وأجهزة التليفون والراديو والموتورات الكهربائية ، والمحولات ، والبطاريات المشحونة ، وموتورات الديزل والمبردات الميكانيكية ، والمواقد ، ومضخات المياه اليدوية ، والميكانيكية ، والأدوات الصينية ، والأدوات الزجاجية ، والملابس القديمة المستعملة (الخرق) ، ولوازم المكاتب ومعدات الرسم ، ومواد الصباغة والآلات الزراعية ، والسكر والشاى والبن والكاكاو والتوابل ، وأدوات السيارات ، والمنسوجات القطنية ، والمنسوجات الصوفية والحريرية ، والخردوات ، وقبعات السيدات ، وتوابعها .

الصادرات : الغنم والماعز ، وجلود الحملان ، وجلود الحيوانات المفترسة ، والصموغ وصمغ الصنوبر ، وزيوت البلسم ، والعصارات الطبيعية ، والقطن والصوف ، وجلود الحيوانات ، والأرز والقمح ، ومصارين الغنم لصنع السجق ، والسجاجيد والأبسطة المنسوجة يدويا ، والفواكه الجافة ، والزبيب ، والكافيار ، والمعادن ، والخشخاش ، والزيت ، ومنتجات الزيت .

ويبين الجدول التالى الأنصبة المتعلقة بالدول الأجنبية فى التبادل التجارى الخارجى مع إيران :

النسبة المئوية لتجارة إيران الخارجية مع الدول الأجنبية

	١٩٣٥	١٩٣٨	١٩٤٠	١٩٤٢	١٩٤٤	١٩٤٦	١٩٤٧
الولايات المتحدة الأمريكية	٩,٨٠	٩,٥٠	١٠,٥٠	١٧,٥٠	٢٣,٣٠	٢١,٤١	٢٢,٧٨
المملكة المتحدة	١٥,٠٠	٩,٥٠	٤,٠٠	٥,٥٠	٤,٦٥	١٥,٨٤	٢١,٤٨
روسيا	٢٩,٥٠	١١,٥٠	١١,٠٠	١٥,٧٥	٢١,٠٠	٢٢,٤٥	١٠,٢٢
الهند	٧,٧٠	٨,٥٠	٧,٥٠	٤٣,٥٠	٣٠,٣٠	١٤,٨٠	١١,٣٠
ألمانيا	١٣,٩٠	٤١,٥٠	٤٥,٥٠	١,٢٥	,١٠	٠,٢٨	—
اليابان	٥,٩٠	٢,٥٠	—	١,٥٠	—	—	٠,١٧
فرنسا	٣,٦٠	١,٠٠	,٥٠	—	—	٣,٢٣	٦,٢٨
الدول الأخرى	١٤,٦٠	١٦,٠٠	٢١,٠٠	١٥,٠٠	٢٠,٦٥	٢١,٩٩	٢٧,٧٩

وفى المدة الواقعة بين ١٩٣٥و١٩٤٠ ازدادت المعاملات التجارية الخارجية بين إيران وروسيا السوفيتية وبينها وبين ألمانيا ونشطت — بسبب اتفاقيات التبادل التجارى، واتفاقيات الدفع الخاصة — بين إيران وألمانيا .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ارتفعت الهند إلى المرتبة الأولى فى المعاملات التجارية الخارجية نظراً لقدرتها على الإمداد بالمواد الحيوية التى لم يمكن من المتيسر الحصول عليها من الدول الأخرى .

وقد أصبحت التجارة الخارجية بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية ذات أهمية متزايدة لأن الولايات المتحدة تعد الآن أكثر الدول شراء للسجاد الإيرانى، والجلود الحملان، كما أنها تقوم بشراء نسبة مئوية كبيرة من الصمغ، والمصارين لصنع السجق، هذا فضلا عن أن إيران تقوم غالباً بشراء جميع السيارات الخاصة وسيارات النقل وقطع غيارها، والإطارات وأنابيبها من الولايات المتحدة وحدها . كما تمد الولايات المتحدة إيران أيضاً بما يلزمها من الأدوات الكهربائية، والموتورات، ومضخات المياه، والأدوات الصينية والزجاجية، والأدوات الكيميائية وأدوات الزينة . ونضرب مثلا بعام١٩٤٨، فقد صدرت الولايات المتحدة فيه لإيران بضائع بلغت قيمتها ٤٣,٦٥٠,٠٠٠ دولار، واستوردت من البضائع الإيرانية مابلغت قيمته ٢٦,٥٠٧,٠٠٠ دولار.

صناعة السجاد :

بلغ فن صناعة السجاد فى إيران — فى خلال القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) — مرتبة لم تدرك قط فى أية دولة أخرى، وكانت صناعة السجاد ذى الوبر، والأبسطة صناعة وطنية محلية منذ قرون عديدة، غير أن أقدم قطع السجاد المحفوظة يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى)، كما توجد أبسطة مصورة فى المنمنمات (منياتور) التى يرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجريين)، أو فى الصور الأوروبية المرسومة بالزيت ويرجع تاريخها إلى هذه الفترة نفسها .

وما زالت الأنوال اليدوية التى تستعمل فى صنع السجاد الفاخر توجد فى إيران على نطاق واسع ، ويتبع نظام إعداد المواد ، وطرق النسيج ، واختيار النماذج والألوان نظام النماذج القديمة نفسه ، ويعتز سكان البلاد بهذا السجاد ، ويعدونه من أغلى ممتلكاتهم ، وفضلا عن ذلك فإن السجاد الايرانى يكون أهم جزء من صادرات البلاد ، وهو يستطيع منافسة السجاد الذى تصنعه الدول الغربية حتى الوقت الحاضر ، وتستعمل الدول الغربية الماكينات فى نسج السجاد ، وتصنع الولايات المتحدة الأمريكية سجادا مطابقا تماما للسجاد الإيرانى بواسطة الأنوال المدارة بالمحركات ، ولكنه يبدو دائما أقل روعة وتلألؤا من النماذج الأصلية ؛ وأغلب الظن أن عدم انتظام نماذج الرسم وألوانها فى السجاد الإيرانى هو مصدر جماله وسر بريقه .

وتشرف الحكومة على نوع السجاد المخصص للتصدير ، فتدعو النساجين إلى استعمال صبغات ثابتة . وتستعمل الصبغات الزيتية إلى حد ما ، بينما تغلى الخيوط — فى أغلب مراكز النسيج — فى أحواض تحتوى على مواد للتلوين لمدة معينة ، مثل العروق الحمر ، والنيلة ، واللون القرمزى ، وأعشاب الصباغة ، وقشور أو جلود اللوز والجوز ، والفستق ، والرمان .

وتتم صناعة السجاد — غالبا — فى مصانع خاصة ، والمصنع عبارة عن منزل عادى واسع ، يوجد فيه نولان أو أكثر أما المنشآت التى بنيت خصيصا لإقامة الأنوال فيها فقليلة نسبيا .

وفى عام ١٩٣٦ ؛ كان عدد النساجين الذين يعملون فى بعض مراكز إنتاج السجاد المهمة كالآتى :

أرك وما جاورها	٦٦,٦٨٠
قم	١,٦٠٠
كرمان	٨,٠٠٠
مشهد	٢٠٠
برجند	٢,٨٠٠

سبزوار	٢٠٠
كاشـــان	٤٠٠
همـــدان	٢,٠٠٠
المجمـــوع	٨١,٨٨٠

ولا تشمل هذه الأرقام النساجين فى شيراز ، وتبريز ، وبجار ، وسنا ، وبعض المدن الأخرى ، ويحتمل أن يكون مجموع المشتغلين بصناعة النسيج فى فترات العمل المختلفة قريبا من ١٠٠,٠٠٠ نساج .

وينسج السجاد غالبا على قاعدة (أرضية) من خيوط القطن ثم يقام الوبر من شطوط من لفات الصوف أو الحرير تعقد حول خيوط القاعدة ثم تقطع بعد ذلك ، ويفضل القطن على الصوف فى خيوط القاعدة ، لأن العقد يمكن أن تعقد على مسافات أكثر تقاربا على الشطوط القطنية الضيقة . وقد تشتمل السجادة السميكة على ستين عقدة فى كل بوصة مربعة ، بينما تشتمل السجادة ذات الصنف الفاخر على مائتى عقدة .

ويحتوى السجاد الرائع الموجود منذ القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) على أربعمائة عقدة فى البوصة المربعة ، وتوجد هذه الخاصية أحيانا فى قطع السجاد الحريرية الغالية جدا ، ولا علاقة لعقد العقد الموجودة فى البوصة المربعة بخصائص النسيج ، ولكن الصناعة البارعة تعطى أهمية فائقة للألوان التى تتكون منها نماذج الرسم .

وفى المصنع ، يعد رسم أولى لكل سجادة ، كما تعد صورة دقيقة كاملة لمنظر الألوان المستعملة فى أجزاء النموذج ، وإذا أريد صنع سجادة كبيرة ، فإن ثلاثة أو أربعة من البالغين ، أو من الأطفال يجلسون أمام نول ، ويرشدهم ملاحظهم — متبعا الرسوم المعدة — إلى عدد العقد ولونها ، فتعقد بواسطة كل واحد منهم ، ويسير العمل ويتقدم على هذا المنوال .

وينتهى صنع السجادة ، وهى لا تزال على النول ، وحينما يتم صنع جزء طوله قدمان يقطع ملاحظ العمال الوبر ويضعه على سطح مستوعلى نسق واحد ، وهكذا يتقدم العمل ببطء حتى تنتهى السجادة .

ويستغرق صنع سجادة — من الحجم المتوسط — شهرا تقريبا ، بينما تستغرق صناعة سجادة ضخمة — يبلغ عرضها ١٥ قدما وطولها ٣٥ قدما — أكثر من سنتين ، ويصنع هذا النوع من السجاد فى بعض الأحيان .

ويعرف السجاد فى التجارة بواسطة أسماء المدن أو الأقاليم التى يصنع فيها . وهناك مدن كثيرة لها نماذجها الخاصة ، ولها تركيبها الخاص للألوان بحيث يمكن أن يعرف السجاد المصنوع فى كل منها بسهولة . ورغم هذا ، فقد قام مركز صناعة السجاد فى « أرك » بصناعة سجاد لشركات تعمل فى الولايات المتحدة ، فأخرج نماذج من السجاد تروق الذوق الأمريكى . وهذا السجاد ليس قريبا من النماذج التقليدية للسجاد الذى يصنع فى الأقاليم الأخرى ، كما يصنع فى أرك أيضا سجاد بعدد كبير ليفى بحاجات الفنادق الأمريكية والمطاعم ، والمبانى العامة الأخرى . وتتبع النماذج والأحجام الخاصة بهذا السجاد الرسوم المعروفة فى الولايات المتحدة .

كما تنسج قطع كبيرة كثيرة من السجاد أيضا بواسطة نساء البدو ، أو بواسطة الجمعيات الزراعية ، وهى لا تصدر غالبا ، ولا يعمل لها رسم أولى ، وتكثر فيها الرسوم الهندسية الكبيرة ، كلما اتسع النسيج .

وقد أسست منذ عشر سنوات شركة تعرف باسم شركة السجاد الإيرانية ، وهى مؤسسة حكومية تشرف على جميع الأنوال المستعملة فى صناعة السجاد فى أنحاء البلاد ، وحينما ظهرت هذه الشركات كانت نشيطة تنتج السجاد وتبيعه وتملك حوالى ٤,٠٠٠ نول .

والولايات المتحدة — منذ زمن بعيد — هى أكثر الدول شراء للسجاد الإيرانى وتليها إنجلترا ثم تركيا .

وقد اشترت الولايات المتحدة فى المدة الواقعة بين ١٩٣٢ و ١٩٤٣ من السجاد الإيرانى ما تزيد قيمته على ٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار كل عام .

وقد بدأت الصادرات تقل فى الوقت الحاضر نظرا لنفقات الإنتاج المتزايدة ، إذ تبلغ نفقات نسج المتر المربع من السجاد — الآن — حوالى ٢٥ دولارا ، بينما يبلغ متوسط إنتاج النول حوالى عشرة أمتار مربعة سنويا ، كما يشترط فى السجاد الذى يمر من الجمارك الإيرانية — لتصديره للخارج — أن يشتمل على صبغات ثابتة ، وأحيانا تعمل اختبارات للصبغات التى تتكون منها ألوان السجاد . وتعد شركة السجاد الإيرانية أكبر شركة لصناعة السجاد وتصديره .

الفصل السابع

النقل

الطرق :

يرجع تاريخ الطرق ، والتجارة الخارجية ، والسفر فى إيران إلى عهد موغل فى القدم ؛ ففى العصر الأكمينى امتد الطريق الملكى الشهير من مدينة السوس عبر ما بين النهرين وآسيا الصغرى إلى مدينة سرديس القريبة جدا من الساحل الإيجى ، وكان مجموع طوله حوالى ١٥٠٠ ميل . ويعتمد نظام البريد الموضوع فى الوقت الحاضر، الذى ينفذ بطريقة أو بأخرى فى القرن العشرين على الفكرة القديمة التى كانت تقوم على إنشاء مجموعة من الاستراحات على طول الطريق على مسافات متناسبة ، لينزل فيها الرسل الحكوميون أو المسافرون حيث يجدون المسكن والمأكل ، والخيل القوية المستعدة .

ومنذ بداية العصر المسيحى استعمل الطريق الرئيسى الكبير — الذى يربط بين الشرق والغرب — بكثرة وهو يمتد من الصين إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكان يطلق عليه اسم « طريق الحرير » (Silk Route) ولم يكن يحمل عبره الحرير فحسب بل كانت تحمل أيضا كميات من الخزف والتوابل والسلع الأخرى من الشرق الأقصى إلى أسواق العالم الغربى ، وكانت قوافل الجمال — التى خلدت مناظرها على النتوءات المشهورة فى برسبوليس — هى الطريقة الرئيسية للنقل خلال قرون كثيرة ، إلى أن وجدت شبكة من طرق التجارة ، وأخذت تنتشر حتى شملت إيران ، وبعض خطوط هذه الطرق مطابق للطرق الحديثة ، أما الطرق الأخرى ، فيمكن أن تعرف معالمها بالخانات المهجورة التى كانت معدة لمبيت القوافل ، وبواسطة القرى الخربة ، وكانت سلامة القوافل تحظى باهتمام كبير من الحكومة ؛ فمثلا فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أنشئت

مراكز للحراسة على طول الطرق المهمة ، وكان الموظفون المحليون يجبرون على تعويض أية خسارة تصيب القوافل نتيجة للهجمات التى تتعرض لها وهى تمر فى المناطق التى يشرفون عليها .

ويمكن أن تشاهد الخانات المعدة لمبيت القوافل على مسافات تبلغ كل منها عشرين ميلا على طول كل طريق ، وقد أنشأ الشاه عباس كثيرا منها فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) .

ويصل عدد هذه الخانات تبعا للأقوال الشائعة إلى ٩٩٩ خانا ، وبعضها أقدم عهدا من ذلك العصر ، بينما بنى الحديث منها بواسطة الحكومات المحلية ، والصالحين من الأغنياء ، أو بواسطة أصحاب الفنادق أنفسهم ، وهذه الخانات مبنية من الآجر أو الأحجار فى شكل مستطيل ، وهى مصممة على أساس وجود فناء واسع مفتوح فى وسطها ، وبئر فى وسط الفناء ، وتوجد — حول الفناء — حجرات للرجال ، واصطبلات للحيوانات ، وكانت الخانات تستعد للترحيب باستقبال القادمين فى نهاية كل يوم بحيث يبدو منظرها بهيجا . وقديما لم يعجب مسافر بهذه الخانات ، فكتب يقول : « وحينما وصلنا إلى الخانات لم نجد مضيفا ، ولا فتيات صغيرات للترحيب بنا ، كما لم نجد أثاثا اللهم إلا حيطانا عارية ، فكان كل ما وجدناه ينحصر فى منزل مفتوح ليس فيه كأس من الخمر المنعش يطرد عنا متاعب السفر . غير أننا — بعد أن تناولنا بقايا الأطعمة التى كانت معنا بالأمس — عمدنا إلى الراحة فى لهف شديد وسط ضوضاء أجراس الحمالين ، وأكل الحيوانات وصهيل الخيول ونهيق الحمير ، وغناء الخدم وأحاديثهم ، وطنينهم » .

ولم تكن الطرق القديمة التى تخترق السهول الفسيحة معبدة تماما ، أما فى الممرات الجبلية ، فكانت تنحت درجات عريضة — أشبه بدرجات السلم — فى الصخور الجرداء . وقد أنشأ الشاه عباس نوعا أحسن من الطرق يسمى « سنك فرش » أى « البساط الحجرى » وهو عبارة عن رصيف من الحجر يقام على جسر عال من الأرض ، ولا زالت توجد أجزاء منه جنوبى طهران ، وعلى طول الساحل القزوينى .

ولا تشاهد قوافل الجمال بكثرة — الآن — عبر الطرق الكثيرة المعدة للسيارات ، ولكنها مازالت مألوفة فى الجزء الشرقى من البلاد ، حيث توجد الطرق القديمة التى تخترق الأراضى الصحراوية التى لا تصلح لمرور السيارات .

والجمل نفسه من الحيوانات العجيبة فى طبيعته — كما تصوره قصة عربية قديمة — تقول إن الله قد خلقه بعد أن خلق جميع الحيوانات ، وأنه قد أبدعه بما تخلف من هذه المخلوقات من نفايات عجيبة . وقد كتب رحالة أوروبى ساح فى الأراضى الإيرانية منذ حوالى قرنين يقول : « الجمال من الحيوانات المنتشرة فى إيران ، وهى عظيمة الفائدة والقيمة والثمن فى تلك الأجزاء الشرقية ، وهى تعمر طويلا ، فكثيراً ما تزيد أعمارها على ستين عاما ، وهى ذات طبع هادئ لطيف ، وهى صبورة فى السفر ، ذات قوة عظيمة ، تستطيع أن تحمل بسهولة حملا يزن حوالى ١٠٠٠ رطل ، وتقنع بالقليل من الطعام من أرخص الأنواع كأوراق الشجر والحسك ، والحشائش المهملة وما شابهها ، وتكتفى بالقليل من الشراب ؛ ففى مثل هذه البلاد الجافة ، تستطيع عادة أن تكف عن الشرب ما يقرب من أربعة أيام » .

وإذا خرجت القوافل فى رحلة طويلة ، فإنها تبدأ السير — غالباً — فى وقت الغروب وتسير ما يقرب من ثلاثة أميال فقط ، ثم تتوقف ويعد لها المناخ ، ويراجع ما معها من رجال ويرسل شخص لجمع الأشياء التى تكون القافلة قد خلفتها عند بدء تحركها . ويقاس طول الطريق بالفراسخ التى لا يطرد طولها على نسق واحد ، فالفرسخ فى الأرض المنبسطة حوالى أربعة أميال ، بينما هو فى المناطق الجبلية حوالى ثلاثة أميال . وتقطع القافلة حوالى نصف فرسخ فى الساعة ، ويبلغ متوسط سيرها فى اليوم الواحد أربعة أو خمسة فراسخ .

وتبدأ القوافل سيرها بعد الغروب إذا كان الجو حاراً أو كانت الرحلة طويلة ، وتواصل سيرها طوال الليل ، ويحمل كل من الجمل الذى فى المقدمة ، والجمل الذى فى مؤخرة الموكب الطويل جرسا ضخما معلقا فى رقبته ، وتظل

القافلة سائرة ما دامت الأجراس تدق وتعلم كل مرحلة من مراحل الرحلة بالخان ، حيث تحط الأحمال من فوق ظهور الجمال ، وتطلق الجمال للرعى فى أثناء النهار ، بينما يذهب الرجال فى النوم .

وقد أصبحت الحاجة ملحة إلى طرق حديثة بعد إدخال السيارات للنقل منذ القرن التاسع عشر ، ويبدو أن أول طريق حديث أنشئ فى إيران هو الطريق بين طهران وقم ، الذى أنشئ فى ١٨٨٣ ، وفى عام ١٨٩٩ افتتح طريق جديد من رشت على بحر قزوين إلى طهران وقد أنشئ قسم منه بواسطة شركة روسية ، وأنشئ الجزء الباقى بواسطة الحكومة الإيرانية ، وهناك طرق أخرى أنشئت منذ مدة لتربط روسيا بمواقع فى شمالى إيران ، وقد نظر إليها على أنها نوع من الامتيازات ، وسمح لمنشئيها بصيانة هذه الطرق واستعمالها ، والإنفاق على الخيل والمنازل التى على طول هذه الطرق . وقد منحت امتيازات لشركة روسية وأخرى إنجليزية تسمى الشركة الإيرانية للطرق والنقل . وجدت شبكة جديدة من هذه الطرق المخصصة لسير السيارات امتد فرع منها من طهران إلى الخليج الفارسى فى عام ١٩١٤ . ولكن النقل بالسيارات ظل محدوداً جداً ، وفى عام ١٩١٩ ؛ سافرت قوة بريطانية فى سيارات فورد من بغداد إلى قزوين فاضطرت إلى القيام بكثير من الأعمال الميكانيكية لإصلاح السيارات وهى تعبر الجزء المرتفع من الطريق .

وقد بدأ إنشاء الطرق فى العصر الحديث بعد عام ١٩٢٥ بأمر من رضا شاه ، وظل يتقدم باطراد حتى عام ١٩٤١ ، ثم تمت أعمال إضافية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن الطرق التى أنشئت فيما سبق — متسعة اتساعا كافيا ، كما لم تشيد على أساس متين يستطيع أن يتحمل سيارات النقل الثقيلة ؛ فأعيد إنشاؤها جميعاً من الحصباء على قاعدة من الحجارة المسحوقة .

ويوجد فى إيران عدد يتراوح بين ٢٥,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ سيارة ، وهذا العدد يشمل أكثر من ٨,٠٠٠ سيارة لنقل البضائع ، وحوالى ٢,٠٠٠ سيارة لنقل الركاب ، ويمكن أن ترسم على الخريطة الطرق الرئيسية فى البلاد ، ويوجد منها

— فى الوقت الحاضر — حوالى ٩,٠٠٠ ميل ويخترق كل طريق منها — مهما كان طوله — الممرات الجبلية المرتفعة ، ويستخدم — فى كل شتاء — مئات من القرويين فى صيانة الطرق ، وحفظها مفتوحة . ولا تزيد أحسن الطرق على ٦٪ ، ويبلغ متوسط نصف قطر المنحنيات ٢٧ ياردة ، وتوجد المحطات المزودة بمضخات الجازولين على مسافات لا يزيد البعد بينها على ٥٠ ميلا ، ويمكن الحصول على الجازولين فى كثير من القرى فى صفائح تسع كل واحدة منها خمسة جالونات ، وفى عام ١٩٤٩ كان الجازولين يباع بسعر محدد قدره ٤٥ سنتا[١] للجالون رغم أنه كان يستخرج ويكرر فى إيران .

ويوجد حوالى ١٥,٠٠٠ ميل من الطرق الفرعية التى تعد فى المرتبتين الثانية والثالثة ؛ والطرق التى فى المرتبة الثانية تتحمل عدداً أقل من العربات ، وهى أضيق ، وأخف رصفا ، أما الطرق التى فى المرتبة الثالثة فهى تربط بين الطرق الرئيسية والمدن والقرى المعزولة ، وهى غالبا عبارة عن طرق ممهدة ولكنها ليست مرصوفة ، وهى لا تصلح للعبور بعد أمطار الربيع فى كثير من الأحيان . وتساعد الطرق غير المعبدة التى تمتد من قرية إلى أخرى — والتى تتسع لمرور سيارة — على السفر بالسيارات فى كثير من المناطق التى لم تعد فيها طرق صالحة لسير العربات ، وتبدو الصعوبات الحقيقية فى الصيف وفى أثناء سقوط الأمطار ، وذلك بسبب الأخاديد التى يقطعونها للرى فى عرض الطريق ، وبسبب الاضطرار إلى الدوران حول القرى التى لا تصلح دروبها الضيقة لمرور السيارات .

وقد رصفت الطرق الرئيسية الثلاثة الخارجة من طهران قبل عام ١٩٤١ ، وفى أثناء الحرب كان ثقل قوافل السيارات المستمرة التى تحمل الإمدادات من الخليج الفارسى إلى روسيا أكثر من أن تتحمله الحصباء ، فكانت محتاجة إلى طبقة أصلب وأكثر دواما من هذه الحصباء ، فاضطرت الوحدات الميكانيكية الإنجليزية والأمريكية والروسية إلى أن تقوم أو تشرف على رصف مسافات

---

(١) « ٤٥ سنتا » كانت فى ذلك الوقت تساوى ٩٠ مليما بالعملة المصرية (المترجم) .

طويلة من طريق الإمدادات بالأسفلت ، فرصفت الطريق من خانقين — على حدود العراق — إلى قزوين ، والطريق الطويل الذى يصل ممن خرمشهر إلى همدان — عبر الأهواز وخرم آباد ، وملاير — وجزءا من الطريق من رشت — على بحر قزوين — إلى قزوين قبل نهاية الحرب ويبلغ مجموع طول هذه الطرق أكثر من ٩٠٠ ميل ، ومنذ نهاية الحرب أبرمت الحكومة الإيرانية عقودا لرصف أجزاء أخرى ، وقد أكمل رصف الطريق الذى يربط بين طهران وقم ، كما أن الجزء الذى يربط بين طهران وقزوين قد أوشك على الانتهاء ، وحينما يكمل هذا الطريق سيكون من السهل أن تسير العربات من طهران إلى رأس الخليج الفارسى على طريق مرصوف ، وسوف يمتد طريق مرصوف آخر من طهران إلى بغداد ثم يمتد بعد ذلك مخترقا — بادية الشام — إلى دمشق وبيروت .

السكك الحديدية :

فى خلال القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وجدت كل من بريطانيا العظمى وروسيا لذة فى إنشاء خطوط للسكك الحديدية فى إيران كوسيلة لتنمية المنافع الاقتصادية والتجارية لكل من الدولتين ، وكان الخط الذى اقترحه الإنجليز يرمى إلى اختراق المنطقة الواقعة جنوبى ما بين النهرين ، وجنوبى فارس وجنوبيها الشرقى ، وبلوخستان ليربط الهند بالبحر الأبيض المتوسط ، أما روسيا فقد اقترحت خطا يخترق المنطقة الشمالية من إيران ليربط بين القوقاز وتركستان ، وليساعد أيضا على تقوية نفوذها الاقتصادى فى المنطقة التى اختارتها مجالا لهذا النفوذ .

ولكن كلا من الدولتين لم تستطع أن تنفذ ما وضعته من مشروعات ، واكتفت بانشاء عدد قليل من الخطوط القصيرة ذات الفائدة المحدودة بالنسبة لإيران ، وكان أول هذه الخطوط خط ضيق — بنى فى عام ١٨٩٢ — ليربط بين طهران والقرية التى فيها مزار شاه عبد العظيم[١] ، وهى على بعد ستة أميال

(١) يقصد قرية « الرى » القديمة ، وكانت الرى — قديما — مدينة كبيرة ، وكانت طهران إحدى ضواحيها (المترجم) .

جنوبى طهران ، وهذا الخط لا يزال يستعمل حتى الآن ، ويقوم بهذه الرحلة قطار قصير ذو قاطرة صغيرة ، وبضع عربات مكشوفة حاملا جموعا من المتريضين والزائرين فى كل يوم من أيام الجمعة .

وفى عام ١٩١٤ ، بدأت شركة روسية فى إنشاء خط حديدى طوله تسعين ميلا ليصل بين جلفا وتبريز ، وقد أكمل هو وفرع له طوله خمسون ميلا إلى ساحل بحيرة رضائية فى عام ١٩١٦ ، وكان هذا الخط يعد امتدادا للخط الروسى العريض ، فكان يتصل مباشرة بالخط الروسى الرئيسى عن طريق معبر على نهر أرس على الحدود بين روسيا وإيران ، وقد آلت ملكية هذا الخط إلى الحكومة الإيرانية بمقتضى إحدى مواد المعاهدة التى عقدت بين إيران وروسيا فى عام ١٩٢١ ، كما أنشأت شركة البترول الإيرانية الإنجليزية خطا حديديا ضيقا قصيرا جدا — فى عام ١٩٢٣ — وهو يمتد بين مدينة رشت وساحل بحر قزوين لنقل الإمدادات والمعدات داخل منطقة حقول البترول ، وفى أثناء الحرب العالمية الأولى مدت الحكومة الهندية خطها الحديدى عبر بلوخستان من «ميرجاوه» على حدود إيران وبلوخيستان إلى زاهدان أى إلى حوالى خمسين ميلا داخل الأراضى الإيرانية ، وكان الخط أوسع الخطوط الهندية ، فكان اتساعه ٥,٦ من الأقدام ، وقد ازداد الاهتمام بإنشاء الخطوط الحديدية داخل إيران بعد الحرب ، كما أعيد إنشاء الخطوط الحديدية بعد عام ١٩٤١ ، ولا يزال الخط الذى يربط بين زاهدان والهند يستعمل فى الوقت الحاضر .

وقد اتخذت أيضا خطوات قبل تولى رضا شاه عرش البلاد لإنشاء شبكة خطوط حديدية عبر إيران لتساعد على ربط إيران بالبلاد المجاورة أكثر من أن تكون وسيلة لترويج مصالح إيران نفسها ، وقد أدى الطريق الحديدى الذى أنشئ بين الخليج الفارسى وبحر قزوين خدمات جليلة ، فقد مكن الحكومة المركزية من الاعتماد على وسيلة أقرب للاتصال بالأقاليم المجاورة ، ويسر التحرك السريع للقوات اللازمة لكفالة الأمن الداخلى فيها ، وسوف تساعد على توزيع أفضل لموارد البلاد الطبيعية ؛ فإن منتجات الطعام فى الساحل القزوينى

الخصيب سوف تنقل بسهولة إلى المناطق الجنوبية القاحلة ، وسوف تصل مستخرجات المناجم والمواد الخام إلى المشروعات الصناعية التى أنشئت حديثا ، وسوف تساعد أيضا على تقليل اعتماد إيران على بريطانيا العظمى وروسيا فى تجارتها ، بعد أن يتم إنشاء ميناء إيرانى على الخليج الفارسى لدخول البضائع .

ومنذ عام ١٩٢٥ سن البرلمان قانونا أعطى الحكومة حق احتكار السكر والشاى ، وخصص جميع الأرباح الناتجة عن ذلك لإنشاء السكك الحديدية ، ووافق فى عام ١٩٢٦ على إنشاء لجنة لتخطيط المشروع ، وفى عام ١٩٢٧ صدر قانون يخول حق إنشاء الخط الحديدى الذى يمتد من الخليج الفارسى إلى بحر قزوين ، كما تم التعاقد — فى عام ١٩٢٨ — مع شركات هندسية أمريكية وألمانية لإتمام الخط كله ، والبدء فى إنشاء الأجزاء التى تقع جنوبى بحر قزوين ، وإلى الشمال من الخليج الفارسى بأجر قدره ١٠ ٪ من جميع التكاليف ، وفى عام ١٩٣١ ألغت الحكومة الإيرانية هذا العقد ، وحول العمل إلى شركة كامساكس (Kampsax) وهى عبارة عن شركة متحدة من المؤسسات السويدية والدانمركية فتقدمت بالعمل ، ووكلت بعض أجزائه إلى بعض المقاولين المحليين والأجانب .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ استعمال الخط الحديدى المنفرد الذى امتد من ميناء بندر شابور الذى بنى حديثا على الخليج الفارسى مارا بطهران حتى ميناء بندر شاه فى الركن الجنوبى الشرقى من بحر قزوين ، وقطع مسافة قدرها ٨٠٨ أميال .

ومن الجائز أنه لا يوجد خط حديدى فى العالم واجهت إنشاءه صعوبات طبيعية مثل هذا الخط الذى يمر فى الأراضى الإيرانية ، فقد مر أكثره فى أراضى جبلية وعرة للغاية ، ويمر الجزء الجنوبى منه الذى يمتد بين الخليج الفارسى وطهران مسافة أميال عديدة على حافات نسفت من الحيطان المنحدرة للمفازات الجبلية العميقة ، ويتسلق فى النهاية ممرا ارتفاعه ٧٫٢٥٣ قدما فوق سطح البحر حتى يصل إلى السهل المنبسط ، وقد أدى هذا إلى إنشاء مئات من المعابر والجسور ، ويوجد فى هذا الجزء ١٢٥ نفق يبلغ مجموع طولها ٣٥ ميلا ، أما الجزء الشمالى

من الخط فيصعد من ساحل بحر قزوين إلى الهضبة فى مسافة قصيرة كثيرا ، ويتدرج فى الارتفاع بنسبة ١ : ٣٦ ، ويعترض مرحلته الأخيرة نفق يزيد طوله على ميلين ، ويبلغ ارتفاعه ٦,٩٢٤ قدما ، ويبلغ مجموع طول الأنفاق الخمسة والأربعين الموجودة فى هذا الجزء — التى استعمل فى إنشائها عدد يتراوح بين أربعين وخمسين ألف عامل — اثنى عشر ميلا ، وينحنى الخط فى أحد امتداداته مسافة ٣٣ ميلا ليعبر مسافة طولها ١٨ ميلا فقط (على خط مستقيم) .

وقد أنشئت المحطات ، والمخازن ، والمحولات ، وصهاريج الماء على طول الخط كله على مسافات لا تزيد على عشرين ميلا ، وقوبلت صعاب كثيرة — مثل المواد اللازمة لترشيح الماء — ولكنها ذللت ، كما استوردت القضبان ، والقاطرات ، والعربات ، ومواد البناء والآلات جميعها من الخارج ، وقد صنعت الدعامات الخشبية محليا ، وقد قدرت التكاليف النهائية لإنشاء هذا الخط بما يتراوح بين ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أخذت جميعها من ثروة البلاد وكانت عبارة عن استنزاف شديد للدخل القومى .

ولم ينته إنشاء خطوط السكك الحديدية بإتمام هذا الخط الرئيسى عبر الأراضى الإيرانية لأن العمل لم يلبث أن استؤنف بعد ذلك مباشرة لإنشاء خطين طويلين آخرين يتصلان فى النهاية بالخطوط الحديدية المستعملة فى الأقطار المجاورة ، وكان أحد هذين الخطين يمر فى شمالى البلاد ، وقد سارت القطارات — فى عام ١٩٤٢ — على الجزء الغربى منه بين طهران وميانه ، أى حوالى ثلثى الطريق المؤدى إلى تبريز ، ولا زالت أعمال إنشاء بقية الخط تسير إلى الأمام من ميانه إلى الحدود التركية ، ومن المحتمل أن يواصل الجزء الأخير من هذا الخط السير من تبريز إلى الحدود التركية ، حيث يتصل هناك بشبكة خطوط السكك الحديدية التركية ، وقد خطط الجزء الشرقى من هذا الخط بحيث يصل إلى مشهد ، وهو يتفرع من الخط الرئيسى المتجه إلى بحر قزوين من نقطة تبعد حوالى ستين ميلا شرقى طهران ، وقد جرت القطارات — فى عام ١٩٤١ — على هذا الخط حتى شاهرود ، أى حوالى نصف الطريق من طهران إلى مشهد ،

وقد مهد الطريق الذى يمتد عليه هذا الخط إلى أبعد من شاهرود بحوالى ١٢٥ ميل ، وسيمتد هذا الجزء الشرقى من الخط فى النهاية من مشهد متجها إلى الشمال ليتصل بالخط الذى يمر عبر بحر قزوين حتى يصل إلى الحدود الروسية ، مع احتمال مد خط فى المستقبل يصل بين مشهد وزاهدان .

أما الخط الآخر الجديد فإنه يتفرع من الخط الرئيسى عبر الأراضى الإيرانية عند مدينة قم على أساس أن يتجه نحو الجنوب الشرقى عبر كاشان ويزد حتى يصل إلى كرمان ، وقد عبد الطريق الذى يمتد عليه الخط الحديدى حتى يزد فى عام ١٩٤١ ، وفى عام ١٩٤٩ افتتح الجزء الذى يمتد من قم إلى كاشان ، وسوف يواصل هذا الخط امتداده حتى يبلغ فى النهاية كرمان ومنها إلى بام وزاهدان حيث يتصل بالخط الموجود فعلا ، وهو الخط الموصل إلى الهند . وفى أثناء الحرب ، تولت القوات المتحالفة أمر تشغيل خطوط السكك الحديدية الإيرانية لتسهل مهمة إرسال الإمدادات إلى روسيا ، واتفق على أن تتسلم الحكومة الإيرانية أجر استعمال شبكة خطوطها الحديدية تبعا لمقدار الشحنات المنقولة ؛ ولكن الاتفاق النهائى لم يتم ، وكانت القوات الإنجليزية والأمريكية والروسية مسئولة عن تشغيل أجزاء مختلفة من الخط ، وقد أحضرت عشرات من القاطرات إلى البلاد ، كما أحضرت مئات من العربات ، وحملت ملايين من الإمدادات على هذا الخط . وقد قام الأمريكيون والإنجليز بإنجاز منشآت إضافية ؛ فبنى الإنجليز خطاً جديداً يمتد من الأهواز إلى خرمشهر ، على الخليج الفارسى ثم مدوا هذا الخط إلى البصرة فى العراق ، ويبلغ طول الخطوط الحديدية المستعملة فى إيران حاليا ١٫٥٨٥ ميلا .

الخطوط الجوية :

حصلت شركة ألمانية على امتياز بنقل الركاب والبريد داخل إيران فى المدة الواقعة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ، ثم بدأت الحكومة الإيرانية — بعد عام ١٩٣٥ — فى افتتاح خطين جويين : أحدهما من طهران إلى بوشهر ، والآخر من طهران إلى بغداد .

وحوالى عام ١٩٤٦ ، بدأت الخطوط الجوية الإيرانية ، التابعة لمصلحة الطيران المدنى عملها داخل البلاد ، وأصبح لها بعد ذلك خطوط طيران شرقى إيران وغربيها ، وفى عام ١٩٤٩ بدأ نادى الطيران الأهلى فى نقل البريد للحكومة على طول ساحل الخليج الفارسى جميعه .

أما الخطوط الجوية العالمية إلى طهران فتديرها الشركات الإنجليزية ، والهولندية والفرنسية ، والسويدية والعراقية ، ويشتمل مطار مهرآباد — وهو أفضل المطارات الأربعة الموجودة فى طهران — على أرضيـة صلبة من الخرسانة ، وممراته طويلة طولا مناسبا لنزول الطائرات ذات الأربعة محركات وصعودها . ويجرى الآن توسع فى تهيئة التسهيلات اللازمة للمواصلات من هذا المطار ، كما أن هناك فندقا على وشك البناء فى طرفه .

وتشتمل كل من آبادان (عبدان) وزاهدان على مطار واسع ذى ممرات مرصوفة ، كما تشتمل كل المدن الكبيرة فى إيران — تقريبا — على مطارات ذات أرضية ممهدة أو مرصوفة بالحصباء . ومنذ انتهاء الحرب الثانية أصبحت طهران المحطة النهائية للخطوط الجوية الفرعية التى تسيرها الشركات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية وغيرها .

الملاحـــة :

يحمل المسافرون والبضائع عبر بحر قزوين بواسطة سفن روسية ، والموانئ الإيرانية الواقعة على طول السـاحل القزوينى هى : بندر بهلوى ، ونوشهر ، ومشهد سر ، وبندر كاز ، وبندر شاه ، ولـكن بندر بهلوى وبندر شاه هما أهم هذه الموانئ . وتستطيع السفن ذات الحمولة الصغيرة أن ترسو فى ميناء بندر بهلوى ، بينما يوجد فى ميناء بندر شاه رصيف طويل لتموين السفن التى تصل حمولتها إلى ألف طن .

والموانئ الرئيسية الواقعة على طول الساحل الشمالى للخليج الفارسى ، والتى تشتغل فيها كثير من خطوط الملاحة التابعة لكثير من الدول الأجنبية هى : خرمشهر ، وبندر شابور ، وآبادان (عبدان) وبوشهر ، وجاسك ، وبندر

عباس ، ولنكه ، ولـكن السفن التجارية لا تستطيع أن تدخل الميناء وترسو إلا فى الموانئ الثلاث الأولى ، وفى عبدان إمكانيات واسعة لرسو حاملات البترول ، وقد أنشئت الميناء التى ينتهى عندها الخط الحديدى الرئيسى عبر إيران — أصلا — فى بندر شابور — فى جهة منعزلة على مسطحات من الطين — بدلا من خرمشهر ، لأن الحدود بين إيران والعراق تقع هناك فى منتصف قناة من شط العرب حيث يصب نهرى دجلة والفرات ، ولـكن الجزء الفارسى من القناة هو الذى تـكون المياه فيه منخفضة المستوى .

على أن القوات المتحالفة ، وخصوصا القوات الأمريكية ، بذلت الـكثير — فى أثناء الحرب — لتهيىء كثير من التسهيلات فى ميناء خرمشهر ، فأنشأت رصيفا على الشاطىء الإيرانى يكفى لرسو ثمانى سفن فى وقت واحد ، كما أنشأت خطا حديديا يمتد من الأهواز إلى هذا المرفأ مباشرة ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت ميناء خرمشهر الميناء الرئيسية على الخليج الفارسى ، وصارت تفوق غيرها بكثير .

والملاحة فى بحيرة رضائية مقصورة على مرور الصنادل ، والسفن البخارية الصغيرة التى تعبر البحيرة فى شكل دائرى ، وترسو فى نقاط مختلفة على طول ساحلها ، ولا يوجد بين أنهار إيران الـكثيرة نهر صالح للملاحة إلا نهر قارون الذى يصب فى الخليج الفارسى بالقرب من خرمشهر .

الفصل الثامن

نظم الحكم في إيران

كانت إيران خلال أكثر من عشرين قرنا من الزمان تحت حكم ملكيات مطلقة حتى قامت حركة ١٩٠٦ الثورية التى أنتجت لإيران حكومة نيابية . وإذا أخذنا هذا فى الاعتبار إلى جانب أنها كانت فى الأربعين سنة التى تلت ذلك عرضة لضغط أجنبى فى أحيان كثيرة ، فإن التقدم الذى أحرزته إيران فى الحكم الديمقراطى ملحوظ جدا .

الحكومة النيابية :

عدل دستور ١٩٠٦ بملحق ألحق به فى عام ١٩٠٧ ، وبتعديلات أدخلت عليه فى عامى ١٩٢٥ و ١٩٤٩ فجعلت الأجزاء التى كانت موجزة فى مواد عامة أكثر دلالة وشمولا بقانون أصدره المجلس النيابى ، وأصبح الدستور أكثر تجددا وتحررا ، ولكنه ما زال يشتمل على بعض نصوص خاصة بدين إيران أى بالمذهب الشيعى أحد المذاهب الإسلامية ، ويدعو هذا الدستور إلى قيام حكومة تتكون من ثلاثة أفرع : الهيئة التنفيذية التى تتمثل قوتها فى هيئة الوزارة ، وموظفى الحكومة الذين يحكمون باسم الشاه ؛ والهيئة القضائية المكونة من مجموعة من المحاكم تبتدىء بمحاكم الأقاليم وتنتهى إلى محكمة عليا ؛ والسلطة التشريعية التى لا تصير تشريعاتها قانونا إلا بعد إمضائها من الشاه .

ويقرر الدستور قيام مجلس للشيوخ ، لم يصبح له وجود قانونى إلا فى عام ١٩٤٩ ، وقد اجتمع لأول مرة فى عام ١٩٥٠ ، ومجلس للنواب ، تظل دورته عامين ؛ وأعضاء هذا المجلس ينتخبون من كل إقليم بنسبة عدد السكان ، وليس ضروريا أن يكونوا من القاطنين فى تلك الأقاليم التى ينتخبون فيها ، بل أن يمثلوا رغبات الشعب بصفة عامة ، وينبغى أن يكون سنهم بين الثلاثين

والسبعين ، ويمكن أن يعاد انتخابهم لمدد متتابعة ، والقوانين الحاضرة تحدد عدد النواب بـ ١٣٦ نائبا وإن كان الدستور يجيز الوصول بعددهم إلى مائتين. وتختار الطوائف الأرمنية نائبين لتمثيل مصالحها ، كما يختار كل من اليهود والزردشتيين نائبا ، أما فيما يتعلق بالشيوخ فإن ثلاثين منهم يعينهم الشاه بينما يختار ثلاثون بطريق الانتخاب .

ويستقبل المجلس التشريعات التى يقترحها أعضاء الوزارة ، ويحيلها عادة إلى لجنة من اللجان الثمانى المختصة ، ثم يناقش تقارير اللجان بعد وصولها ، والتشريعات المقترحة ، ويجب أن يصدق عليها بأغلبية الأصوات ، وينبغى على النواب أيضا أن يناقشوا التشريعات التى يقدمها الأعضاء ، ما دامت معتمدة من خمسة عشر نائبا ، وللمجلس الحق فى أن يطلب من أعضاء الوزارة الحضور والإجابة على الأسئلة الشفوية أو المكتوبة ، ويحضر الجلسة عادة واحد أو أكثر من أعضاء الوزارة .

ويعطى الدستور للمجلس الحق فى الإشراف على سياسة الوزارة وتصرفاتها فى المسائل التى تعد حيوية بالنسبة لمصالح الشعب ، وينبغى أن يصدق على كل مشروع يتصل بثروة البلاد أو باعتمادات مالية ، وعلى كل التراخيص والامتيازات التى تمنح لهيئة داخلية أو أجنبية ، وعلى قروض الحكومة ، وما تقترحه من إنشاء للطرق أو السكك الحديدية .

وتعقد جلسات البرلمان فى مبناه المسمى « بهارستان » وهو يقع فى وسط حديقة كبيرة مفتوحة للجمهور بالقرب من وسط مدينة طهران الحديثة ، وتنشر محتويات الجلسات فى جريدة رسمية يومية . وتعقد الجلسات الخاصة أو السرية بناء على طلب كتابى يقدمه عشرة من النواب أو واحد من أعضاء الوزارة . وقد كانت المناقشات فى الدورات الأخيرة للمجلس حامية وكانت تبلغ مبلغ الحدة أحيانا ، ولكنها كانت دائما حرة غير مقيدة .

وتجرى الانتخابات لعضوية المجلس كل عامين ، ويقسم قانون الانتخابات الأصلى الناخبين إلى ست طبقات اجتماعية ولكن هذا التمييز قد نبذ منذ عهد

طويل ، ويدعى جميع الذكور الذين بلغوا الحادية والعشرين من عمرهم إلى التصويت باستثناء رجال القوات المسلحة والمجرمين المحكوم عليهم ، والاقتراع سرى وللناخبين الحرية الكاملة فى الإدلاء بأصواتهم ، ولا تجرى الانتخابات — فى الوقت الحاضر — فى يوم واحد فى جميع أجزاء البلاد ، ولكنها تتم فى مدة تتراوح بين أسابيع وأشهر ، وعدد الأصوات المجموعة يكون عادة قليلا جدا بالنسبة لعدد الذين يحق لهم الإدلاء بأصواتهم ولذلك يدور الآن بحث حول تغيير النظام الذى يجرى على أساسه الانتخاب .

ومنذ أواخر عام ١٩٤١ ؛ لعبت الأحزاب السياسية — ولا تزال تلعب — دورا بالغ الأهمية فى توجيه الحكم والحياة العامة ، وما زالت الأحزاب الجديدة حتى الوقت الحاضر تتأرجح بين اليمينية المتطرفة ، واليسارية المفرطة . وقد كانت الأحزاب الأولى التى أسست فى عام ١٩٤٢ واقعة تحت نفوذ التجار وملاك الأرض ، وكانت تستعمل صحف طهران لنشر مبادئها ، ولكنها كانت ضعيفة فى تنظيمها وفى برامجها . وكانت هذه الأحزاب — التى أسست فى الفترة الأولى تحمل أسماء تجذب الجمهور مثل : العدل ، والشعب ، والوطن ، والمواطنون — وقد أعلن الأخير برنامجا اجتماعيا — أما الأحزاب الأخرى التى كانت أكثر تحررا فإنها كانت تحمل أسماء أخرى منها الحزب الوطنى أو حزب إيران .

وأكثر الأحزاب أهمية فى المدة الواقعة بين ١٩٤٤ و ١٩٤٦ حزب « توده » « أو جماهير الشعب » وحزب « الإرادة الوطنية » ، وقد نظم حزب « توده » طائفة من الرجال المثقفين الذين سجن الكثير منهم فى عهد رضا شاه بتهمة الشيوعية ، وسعى هذا الحزب جاهدا ليجعل تنظيمه محكما ، فظفر بشهرة مسموعة ، وضم أعضاء من النقابات التجارية التى أسست حديثا ، ومثله ثمانية نواب فى الدورة البرلمانية التى امتدت من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٦ . وفى إقليم آذربيجان اختار نوع الحزب المجاهد اسم « الحزب الديمقراطى بآذربيجان » وقاد حركة انفصالية فصلت هذا الإقليم عن سائر البلاد منذ أواخر عام ١٩٤٥ إلى شتاء عام ١٩٤٦ .

وكان السيد ضياء الدين طباطبائى زعيما لحزب « الإرادة الوطنية » وهو الذى كان رئيسا لوزراء إيران فى خلال مدة قصيرة من عام ١٩٢١ ، وقد أقصى عن البلاد سنوات عديدة ؛ ثم عاد إلى إيران فى عام ١٩٤٣ ، وانتخب عضوا فى البرلمان ، وقد أعلن حزبه برنامجا مفصلا يتضمن إصلاحات اجتماعية واقتصادية ، ولكنه هوجم هو وأتباعه بواسطة المعارضين من حزب توده بينما تعرض هو شخصيا لهجوم الصحافة والإذاعة الروسيتين . وقد اختفى الزعيم وحزبه معا من فوق المسرح السياسى فى عام ١٩٤٦ .

وفى عام ١٩٤٦ رأس أحمد قوام — رئيس الوزارة — الحزب الديمقراطى الإيرانى الذى اكتسح الانتخابات فى عام ١٩٤٧ ، وبدا فى خلال بضعة أشهر أن المسرح السياسى معد بالضرورة لحزب الأغلبية الساحقة فى البرلمان ، ولكن الديمقراطيين الإيرانيين فقدوا الكثير من قوتهم فى أواخر عام ١٩٤٧ .

وهناك نسبة كبيرة من الإيرانيين من التجار وكبار الملاك ، والمثقفين ، والعمال الصناعيين والطلبة تبدى اهتمامها البالغ بالسياسة ، وهى على استعداد دائما للدخول فى مناقشات لا نهاية لها حول مستقبل إيران ، ولكن أغلب أعضاء الجمعيات الزراعية لا يعرفون إلا القليل عن المشاكل القائمة وسياسة الحكومة فى طهران ، وعدد قليل جداً منهم هم الذين يدلون بأصواتهم فى الانتخابات ، وهؤلاء أيضاً لا يكادون يعرفون شيئا عن المؤهلات الواجب توفرها فيمن ينتخب لعضوية المجلس النيابى .

الشاه :

فى عام ١٩٢٥ ؛ أعلنت الجمعية التأسيسية الخاصة رضا خان امبراطوراً لإيران . وقد اختار اللقب الفارسى القديم « بهلوى » اسما للأسرة الحاكمة الجديدة ، واتخذ — فى أثناء تتويجه فى أبريل من عام ١٩٢٦ — عبارة « رضا شاه بهلوى » اسما ولقبا له .

وقد نص الدستور على أن ولى العهد هو الابن الأول للملك الحاكم ؛

بشرط أن يولد من أم إيرانية الأصل ، فإذا لم يكن هناك ابن للملك ، فإنه يقترح خليفة له على أن يصدق البرلمان على هذا الاقتراح .

وقد ولد ابن رضا شاه الأول ، صاحب السمو الملكى شاهبور [1] محمد فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٩ ، وتلقى علومه فى سويسرا ، وأصبح يجيد الإنجليزية والفرنسية إجادة تامة ، وصار ولا يزال بارعا فى نواحى الرياضة ، ثم تزوج فى عام ١٩٣٩ الأميرة فوزية الأخت الكبرى للملك فاروق الأول ملك مصر [2]، وولدت ابنتهما الأولى المسماة « شاهناز » فى عام ١٩٤٠ ، واعتلى العرش بعد تنازل رضا شاه عن الملك ، وذلك فى ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ باسم « محمد رضا شاه بهلوى » .

وتشمل سلطات الملك — وهى السلطات المقررة له فى الدستور — تعيين وعزل الوزراء ، وقيادة القوات المسلحه ، وإعلان الحرب ، وإقرار السلم ، ومنح الرتب العسكرية ، كما أن له الحق أيضاً فى أن يدعو البرلمان إلى جلسة خاصة ، وتضرب النقود فى المملكة باسم الشاه ، وتنقش صورته على السكة ، وتطبع على أوراق العملة ، وطوابع البريد .

ووظيفة الملك كقائد أعلى للقوات المسلحة تجعله يتصل عن قرب بالقواد العسكريين ، وبالشؤون الحربية ، وإلى جانب سلطاته هذه ؛ فإنه يبذل جهدا فى الإشراف على أعمال الوزارة باتصاله الشخصى بالوزراء ، وبالموظفين الرسميين ، وقد يحتضن أحيانا بعض الحركات والإصلاحات . وقد أظهر — فعلا — اهتماما بالغا بالمشكلات الاجتماعية الرئيسية ، وقدم مبالغ كبيرة جدا من الأموال التى ورثها عن أبيه رضا شاه لإنشاء المستشفيات ، وتوسيع التعليم ، ولمشروعات الرى والمشروعات الأخرى المهمة .

---

(١) « شاهبور » كلمة فارسية مركبة معناها « الأمير » (المترجم) .
(٢) كان هذا وقت تأليف الكتاب (المترجم) .

رئيس الوزراء ومجلس الوزراء :

حينما يراد اختيار رئيس للوزارة يقترع فى مجلس النواب على الأسماء المرشحة لهـذا المنصب ، ويعين الشاه من يظفر بأكثر الأصوات رئيسا للوزارة، وبعد أن يختار رئيس الوزراء وزراءه ، يقدمهم للملك ليظفر بموافقته . ثم تضع الوزارة برنامجها ، وتقدمه للمجلس ، فإذا ظفر البرنامج بموافقة المجلس ظل رئيس الوزارة متمتعاً بالقوة والسلطة إلى أن يختار هو أن يستقيل أو يقترع البرلمـان على عدم الثقة به بأغلبية كبيرة .

وينبغى أن يكون الوزراء من المواطنين الإيرانيين ،وأن يكونوا مسلمين ، وألا يكون بينهم أحد من أمراء الأسرة المـالـكة ، وللبرلمـان الحق فى أن يحيل إلى المحـكمة العليا التهم التى توجه إلى من يسىء التصرف من أعضاء الوزارة .

ولا يتزعزع العمل كثيرا فى أفرع وزارات الحكومة بسبب التغيير المستمر للوزارات ؛ لأن كل وزارة يديرها وكيل ، ويشرف على الإدارات الـكبرى فى كل منها مديرون عامون ، كما يحتفظ كبار الموظفين بوظائفهم لعدد من السنين ، فيلمون إلمـاما تاما بالأعمال العادية فى وزاراتهم ، ويتبع أغلب الموظفين فى الوزارات المختلفة للخدمة المدنية فى الحكومة ، التى تمنحهم درجاتهم المعتادة ، ومكافآتهم المألوفة .

الوزراء بلا وزارة :

تضم كل وزارة فى العادة وزيرا أو أكثر بلا وزارة ، أو وزراء دولة ، وهى وظيفة مألوفة فى الوزارات الأوروبية ، ولـكنها غير موجودة فى الولايات المتحدة ، ووظيفة هؤلاء هى مساعدة رئيس الوزارة ، وتقديم المشورة له ، وإنجاز أعمال خاصة .

وزارة البلاط :

يتمتع وزير البلاط الامبراطورى بنفس المرتبة التى لأعضاء الوزارة ، ولـكنه لا يحضر اجتماعات الوزارة وليس مسئولا أمام البرلمان ، وتشرف

هذه الوزارة على الأموال الامبراطورية ، ممثلة فى جزء منها بالمبلغ الذى يعتمد للبلاط فى الميزانية سنويا ، وفى جزئها الآخر بأملاك البلاط الدائمة فى صورة أموال أو أراضى ، وتختص أقسام ميزانيتها بالحفلات والمراسم ، وصيانة القصور والحدائق ، كما تختص بالمراسلات والتقارير وصيانة معدات الصيد الامبراطورية .

ويوجد عدد من القصور الملكية فى داخل طهران وبالقرب منها ، وقد بنى كثير منها منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهذه القصور معروفة بحدائقها الرائعة ، فقصر كلستان أى « الروضة » فى طهران قصر أقدم فى بنائه من غيره وهو مشهور بحجرة العرش الكبيرة التى تستعمل للاستقبالات الرسمية ، وفى الجزء الآهل بالسكان من مدينة طهران توجد مساحات واسعة من الأراضى تضم القصور الملكية الأخرى ، وهى مبنية ، ومؤثثة بطريقة حديثة ، حيث يسكن الشاه وأعضاء الأسرة المالكة . وفى المنطقة الجبلية المسكونة التى تبعد حوالى ثمانية أميال شمالى طهران توجد منطقة تبلغ مساحتها مائة فدان تابعة للبلاط الإمبراطورى ، حيث توجد القصور الامبراطورية والمكاتب الخاصة بوزارة البلاط فى أثناء فصل الصيف ، ويقوم قصر سعد آباد على أعلى نقطة من هذه الأرض المغطاة بالأشجار ، وهو يطل على مدينة طهران ، وهو أشبه بصندوق كبير مملوء بالجواهر ، وكل حجرة من حجراته مزينة بطريقة خاصة قام بزخرفتها أمهر الفنانين فى البلاد .

وزارة الخارجية :

تضم وزارة الخارجية عددا من الإدارات الخاصة التى تختص بالأعمال الرتيبة (الروتينية) ، وبالمراسم (البروتوكول) والحفلات ، والحسابات ، والجوازات ، والمسائل الاقتصادية ، وما يتعلق بالأمم المتحدة ، وتنظيم المكتبة والسجلات ، كما توجد أيضا ست إدارات سياسية . تختص الإدارة الأولى بشؤون الأمم الإسلامية المجاورة لإيران ؛ وتعنى الثانية بالمسائل المتعلقة بروسيا السوفييتية وأوروبا الشرقية ، وتهتم الثالثة بشؤون الدول الأوروبية الأخرى ،

وتختص الرابعة بالمسائل المتعلقة بالولايات المتحدة والدول الأمريكية الأخرى ، وتعنى الخامسة بشؤون الدول العربية ، وتختص السادسة بالمسائل المتعلقة بالهند وباكستان وجنوب شرقى آسيا .

ولإيران قنصليات ومفوضيات وسفارات فى حوالى عشرين دولة أجنبية ، وتوجد سفارة إيرانية فى وشنجتون عاصمة الولايات المتحدة ومقر حكومتها ، بينما توجد قنصلية إيرانية عامة فى مدينة نيويورك .

وقد كانت إيران عضوا سابقا فى عصبة الأمم ، كما ساهمت فى إنشاء وتنظيم هيئة الأمم المتحدة ، وتوجد معاهدات واتفاقيات سارية المفعول بين إيران والدول الأخرى تتعلق بالتجارة والرسوم الجمركية ، والملاحة وحقوق المواطنين فيها وفى هذه الدول . . . الخ .

وتقوم صلات إيران بجاراتها على أساس معاهدة « سعد آباد » التى وقعتها كل من إيران وأفغانستان والعراق وتركيا فى طهران فى عام ١٩٣٧ .

وقد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بامتناع كل دولة عن التدخل فى شؤون الأخرى الداخلية ، وعلى احترام الحدود المشتركة بين هذه الدول ، والامتناع عن الاعتداء من جانب دولة على أخرى ، وأن تتشاور هذه الدول معا فى حالة حدوث نزاع عالمى يهدد مصالحها المشتركة .

وزارة الحربية :

وتضم وزارة الحربية الجيش والبحرية والقوات الجوية ، وهى مكلفة بالدفاع عن الوطن .

وتزيد قوة الجيش الإيرانى — فى الوقت الحاضر — على مائة ألف جندى ، وضعت فرقتان منه فى طهران ، بينما وضعت الفرق الأخرى فى مراكز مختلفة فى الأقاليم . والتجنيد إجبارى فى إيران ، ويستدعى الشباب للتجنيد حينما يبلغون الحادية والعشرين من عمرهم ، ويبقون سنتين فى الخدمة ، ويستثنى من ذلك الأشخاص الذين تشتد الحاجة إليهم فى إعالة أسرهم . وتقدم بعض

البرامج الدراسية الخاصة بالشباب لهؤلاء الجنود الجدد ، ويقضى تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعات مدداً أقصر فى الخدمة العسكرية ، وهم عادة يعطون التمرينات الخاصة بالضباط ، ويوجد ناد فخم للضباط فى طهران ، وقد أعد بطريقة تجعله يخلق شعوراً بالاتحاد والاعتزاز بين طائفة الضباط .

وقد كانت الوظيفة الأولى للجيش أن يعالج حالة الاضطراب الداخلية ، وقد وجه الجيش حملات تأديبية ضد القبائل البدوية منذ عهد قريب جداً ولكن الإيرانيين يتمنون أن تنتهى مثل هذه الحالة وأن تصبح من مخلفات الماضى . وتستطيع قوات الأمن أن تنهض جيداً بمهمة المحافظة على النظام فى الظروف العادية ، ولا تلعب قوات الفرسان دوراً حيويا كالذى كانت تلعبه — فى الجيوش الإيرانية — فى القرون القديمة الماضية . ويضم جزء من الجيش الإيرانى الحديث قوات ميكانيكية . وتصنع جميع الأسلحة الصغيرة — تقريباً — والملابس والمعدات الخفيفة للجيش فى المصانع والترسانات الحكومية .

ومنذ عام ١٩٤٢؛ تعمل بعثة أمريكية استشارية فى إعداد وتموين وتدريب أجزاء من الجيش الإيرانى . وقد كان يرأس هذه البعثة — أولا — ماجور جنرال روبرت و.جرو Major General Rodert W. Grow ثم رأسها منذ سبتمبر ١٩٤٨ ماجور جنرال فيرنون إيفانز Major General Vernon Evans

أما البحرية الإيرانية فتنحصر عملياتها فى الخليج الفارسى وبحر قزوين ، حيث توجد سفن قليلة ، ذات أحجام متوسطة تقوم بدوريات لمنع تهريب البضائع ، وتحول دون حدوث اشتباكات مسلحة .

وتضم القوات الجوية — فى الوقت الحاضر — أقل من ثلثمائة طائرة أغلبها طائرات تدريب ولكن الإيرانيين — فيما يبدو — يخرجون طيارين ممتازين ، ويلقى حماسهم للطيران داخل القوات الجوية أو خارجها تشجيعا من نادى الطيران الوطنى الإيرانى ، وهو ناد شبه رسمى له ميادينه ومعداته الخاصة به خارج طهران ، ويتبعه ناد ضخم يجرى بناؤه بالقرب من ميدان التدريب ، ويمتلك النادى حوالى عشرين طائرة من الطائرات ذات المقعدين المصنوعة

فى أمريكا ، ويشرف على تدريس برنامج خاص بالطيران المدنى وهو مفتوح للشباب من كلا الجنسين .

وزارة الماليـة :

تستخدم وزارة المالية عددا كبيراً من الموظفين ، وتشمل أعمالها الحيوية كثيراً من أوجه النشاط . وفى عام ١٩٤٧ ؛ صمم بناء ضخم من الخرسانة المسلحة والآجر ليسد جميع حاجات الوزارة ، لأن المساحة التى خصصت للمكاتب كانت قد أوشكت على أن تشغل تماما .

ويوجد بهذه الوزارة قسمان رئيسيان : القسم الخاص بالميزانية ، وهو مختص بمصلحة الجمارك ، والضرائب المباشرة ، وغير المباشرة ، والميزانية السنوية ، والحسابات والمراقبة والمبانى ، والتبادل الخارجى ، وإدارة سك النقود ، وممتلكات الحكومة ، والمحاكم الحكومية ، والدخل من امتيازات الشركات ، والبترول والمناجم ، ومدرسة للتدريب على أعمال الميزانية ، وهناك عدد قليل من الإدارات الكثيرة الخاصة بالقسم الاقتصادى تختص بالمشتريات ، والحسابات ، والتفتيش والمخازن ، والنقل ، ومخازن الحبوب ، والطباق ، وتعد ميزانية البلاد السنوية من واقع الإيرادات والمصروفات التى تقدمها جميع الوزارات ، وفى السنوات الأخيرة زادت الميزانية بانتظام بحيث وصلت إلى درجة تعادل فيها أكثر من أربعة أمثال الميزانية فى أية سنة سابقة للحرب العالمية الثانية مباشرة ، وكانت ميزانية عام ١٩٤٩ قد قدرت أن يكون الدخل ١٩٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار وأن يكون المنصرف ٢٩٠,٠٠٠,٠٠٠ ، وكانت مصادر الدخل المتوقعة لسنة ١٩٤٩ كالآتى : الدخل من العوائد الجمركية ٢٤٪ ، عوائد الطباق واحتكار الأفيون ٢٣,٢٪ ، عوائد شركة البترول الإنجليزية الإيرانيـة ١١,٨٪ ، الضرائب المباشرة ١٤,٩٪ ، الضرائب غير المباشرة ٧,٥٪ الأرباح من العمليات التجارية التى تقوم بها الحكومة ٧,٧٪ .

وأهم المصروفات المقترحة لعام ١٩٤٩ تدخل تحت العناوين التالية : وزارة الحربية ٢٢,٣٪ ، وزارة المالية ١٣,٥٪ ؛ وزارة التربية والتعليم ٨,٦٪ ،

وزارات الصحة والبريد والزراعة والعدل كل منها ٢٪ زيادة ، المبالغ المخصصة للمصرف الأهلى لسداد القرض الحكومى ٥٫٨٪ .

وقد خصص أكثر من ٣٠٪ من مجموع المصروفات لنفقات قوات الأمن فى البلاد ، بينما تدفع من الـ ٧٠٪ — من مجموع المصروفات — مرتبات الموظفين بما فيهم أفراد القوات المسلحة . وفى خلال السنوات الكثيرة الماضية كانت أوجه العجز المنصوص عليها فى الميزانية أكثر فى نهاية السنة المالية من أن توازن أو تسوى بالدخل المتوقع ، وقد استتبع العجز فى الميزانية ، اضطرار الدولة إلى الاقتراض من المصرف الأهلى الإيرانى ، بحيث أصبحت الحكومة — فى عام ١٩٤٩ — مدينة للمصرف بحوالى ١٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

وينبغى عند هذا الحد أن يذكر الأساس الذى يقوم عليه النظام المالى ، وأن تعطى قائمة للمصارف التى تدير عمليات الصرف داخل البلاد ، مع ملاحظة أن المصارف المملوكة للحكومة مستقلة فعلا عن وزارة المالية .

وقبل بداية القرن العشرين ؛ لم يكن فى إيران نظام منسق للإيرادات الحكومية ، وكان الدخل القومى يعد دائما ملكا شخصيا للملوك الذين كانوا يتصرفون بأنفسهم ويقدرون المبالغ اللازمة للانفاق على الجيش ، أو على أصدقائهم . وقد أدى نقص العملات الحاضرة إلى أن تأخذ الحكومة قروضا من الدول الأوروبية بشروط تجعلها تتنازل عن دخلها من الجمارك أو تضطرها إلى منح امتيازات للدول التى تمنح هذه القروض .

وحينما نفذ الدستور ؛ أيقن الزعماء أن البلاد فى حاجة إلى متخصصين من الدول الأجنبية ليساعدوا على إيجاد نظام ثابت للميزانية ، فاستخدم البلجيكيون والفرنسيون — أولا — وفى عام ١٩١١ استخدم أمريكى يدعى مورجان شوستر Morgan Shuster . وقد أكسبه ولاؤه وإخلاصه حب الإيرانيين . غير أن الضغط الأجنبى على الحكومة الإيرانية قد أجبره على مغادرة البلاد ، وسادت الفوضى حتى عهد رضا شاه ، ثم طلبت المشورة الأمريكية من جديد فجاء أ . س . ملسبو A. C. Millspaugh — فى عام ١٩٢٢ — على رأس بعثة ،

نجحت فى السنوات الخمس التالية فى إنشاء ميزانية متوازنة ، وفى تأكيد الأهمية العظيمة لجمع الضرائب العادلة ، وبعد سفر البعثة فى عام ١٩٢٧ اعتمدت الحكومة ميزانية متوازنة لمدة سنوات عديدة ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى أن تشرف بنفسها على التجارة والصناعة وكانت تحاول بذلك أن تقف فى وجه المشاكل التى نجمت عن الأزمة الاقتصادية العالمية بصفة عامة .

وفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ارتفعت نفقات المعيشة حتى بلغت ١٠٠٠٪ ، فمثلا كان ثمن البيضة فى عام ١٩٤٤ كافيا لشراء مائة بيضة قبل ذلك بخمسة عشر عاما وكانت الأحوال الداخلية أبعد عن أن تكون مرضية .

وقد رجع مستر ملسبو إلى إيران فى عام ١٩٤٣ بدعوة من الحكومة الإيرانية وطلب منها سلطات واسعة فمنحته الحكومة هذه السلطات ، وقدبذلت الهيئة التى تعمل معه من الأمريكيين — وكان عددهم يبلغ خمسين شخصا — جهدا شاقا لإصلاح النظام المالى بصفة عامة ، وفرضت ضريبة دخل تدريجية .

وقد تعثر برنامج بعثة ملسبو وتأخر بسبب ظروف الحرب الاضطرارية ، بحيث جعلت هذه الظروف من الصعب على الإيرانيين ، أن يلاحظوا أى تقدم أحرزته هذه البعثة ، وبدأ البرلمان يحد من السلطات الممنوحة لها ، وكان من نتيجة ذلك استقالة ملسبو ، ومغادرته للبلاد فى عام ١٩٤٥ .

وأهم مصرف بين المصارف الأجنبية الموجودة فى إيران المصرف الامبراطورى الإيرانى[1] Imperial Bank of Iran وهو مؤسسة إنجليزية أنشئت فى نهاية القرن الماضى وكانت عاملا قويا فى الحياة المالية والاقتصادية للبلاد ، وفى عام ١٩٤٩ غير مديرو المصرف اسمه إلى « المصرف البريطانى لإيران والشرق الأوسط » British Bank of Iran and Middle East وذلك على أثر مباحثات دارت بين المصرف والحكومة الإيرانية عقب انتهاء مدة الستين عاما وتمت الموافقة على وضع ٥٥٪ من جملة الودائع ، فى صورة

---

(١) توقف هذا المصرف عن العمل منذ بضع سنوات على أثر إقدام الدكتور مصدق على تأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية (المترجم) .

حساب حر فى المصرف الأهلى الإيرانى ، وقد نال المصرف السوفيتى الذى أنشئ منذ مدة طويلة فى إيران هذه الحقوق نفسها فيما يتعلق بالودائع .

وقد شجع الدستور الإيرانى على إنشاء مصرف للدولة ، ولكن لم يؤسس « بانك ملى إيران» أو «المصرف الأهلى الإيرانى» قبل عام ١٩٢٧ ، وقد نما هذا المصرف بسرعة فائقة ، وحدد رأس ماله المدفوع بمبلغ يزيد على ٩,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، وفى عام ١٩٣٢ أخذ من المصرف الامبراطورى حق إصدار أوراق العملة ، وفى عام ١٩٤٩ كان له ١٤٧ فرعا أو توكيلا فى مختلف أجزاء إيران كما كان له مندوبون فى عشرين دولة أوروبية تقريبا .

والأرقام التالية تبين العمليات التى اضطلع بها المصرف المذكور ، وهى موضحة بالدولار الأمريكى على أساس أن سعر الدولار ٣٢,٥ ريال إيرانى وهو السعر الرسمى للتبادل منذ عام ١٩٤٣ ؛ ففى عام ١٩٤٩ وصل مجموع الموجودات من الأوراق المالية المصرفية إلى ٧١٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار وكانت قيمة أوراق العملة التى أصدرها ٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، أى بزيادة تصل إلى سبعة أمثال ما كان موجودا فى عام ١٩٣٩ وذلك لظروف الحرب ، وما أدت إليه من تضخم فى الميزانية . وكان غطاء العملة من الأوراق وهو ١٠٠٪ من قيمتها ، وهو الغطاء الذى تتطلبه التنظيمات الحكومية ، يتمثل فى عام ١٩٤٩ فى صورة ٥٥,٣٩٪ ذهبا ، و ٢٢,٢٥٪ من العملات الأجنبية ، و ٤,٤١٪ من مجوهرات التاج ، و ١٧,٩٥٪ ديون للمصرف على الحكومة يتقاضاها من الزيادة التى تطرأ فى ثمن مجوهرات التاج .

وقد شجع المصرف الأهلى على إيداع حسابات للتوفير ، وهو شىء يعد جديداً بالنسبة إلى إيران ؛ ففى عام ١٩٤٠ كان فى المصرف ٥٥,١٥٣ حساب يبلغ مجموعها ١,١٦٥,٠٠٠ دولار ، وقد ارتفع عدد هذه الحسابات فى عام ١٩٤٦ إلى ١٢٨,٢٩٠ حساب ، وبلغ مجموع ما فيها ٢٠,٣١٧,٠٠٠ دولار ويبلغ عدد من لهم حسابات توفير فى المصرف فى مدينة طهران سدس عدد المدينة ، ويبلغ متوسط ما يوفره الفرد ٩٠ دولارا .

ويعد المركز الرئيسى المصرف — فى مدينة طهران — من أفخم الأبنية الجميلة فى المدينةفالبناء الرئيسى أحد الأبنية الحديثة التى تثير الإعجاب ، ويوجد داخل ساحاته الفسيحة ناد لموظفيه ، ومطعم فاخر ، ووسائل لتيسير الألعاب الرياضية من بينها ساحات للعب التنس ، وحوض للسباحة ، وساحات للاسكواش ، وساحة للمصارعة « زور خانه » ومستشفى وأحسن دار للطباعة فى البلاد . وتعد جواهر التاج الإيرانى الرائعة ميراثا وطنيا فخما جمعه ملوك البلاد منذ القرن الثامن عشر إلى الوقت الحاضر ، وهى معروضة عرضا جميلا فى حجرة حصينة مستقلة ، والواقع أن الوضع المالى المدعم ، والشهرة الممتازة التى يتمتع بهما المصرف الأهلى الإيرانى مدينتان لجهود مديره العام أبى الحسن ابتهاج .

ومن المؤسسات الأخرى المملوكة للحكومة « المصرف الزراعى الصناعى » الذى أسس فى عام ١٩٣٣ ، والمصرف العقارى المؤسس فى عام ١٩٣٩ ومصرف الجيش « بانك سبه » و مصرف « الصناعة والمعادن » .

ويقدم المصرف الزراعى الصناعى قروضا للزراع وأصحاب الأعمال ، أما المصرف العقارى فيمول مشروعات المبانى ويقدم قروضا تضمنها الأملاك ، أما « مصرف الجيش » فهو مؤسسة صغيرة نسبيا ، وقد أسس ليسهل الأعمال المصرفية والقروض لأفراد الجيش الإيرانى ، ولكنه يقوم الآن بهذه الأعمال للجمهور عامة .

وقد أسس « مصرف الصناعة والمعادن » — فى عام ١٦٤٦ — ليشرف على الصناعات والمصانع والمعادن التى تملكها الدولة ، ولكن أعماله صفيت فى يناير ١٩٥٠ ، وخصصت أرصدته لمشروع الإنشاء والتعمير .

وفضلا عن شركات التأمين المهمة المملوكة محليا فى إيران ، فإن كثيرا من شركات التأمين الأوروبية تدير فروعا لها فى طهران .

وزارة الداخلية :

تعد وزارة الداخلية مسئولة عن الإدارة الداخلية للبلاد ، وإيران مقسمة إلى عشر ولايات « استان » تطابق حدودها — تقريبا — حدود التقسيم القديم

للبلاد مثل : آذربيجان ، وخراسان ، وكيلان ، وفارس ،وخوزستان ، وسيستان (سجستان) ، ويشرف على كل إقليم حاكم يعين من قبل وزارة الداخلية ،كما أن هناك موظفين كبارا فى الأقاليم معينين من قبل هذه الوزارة ، وتختار المدن أعضاء المجالس البلدية ، وترسل جميع الضرائب التى تجمع من الولايات إلى طهران بجزء من الدخل الوطنى .

ويشعر كثير من الإيرانيين ان حكومتهم مركزة جدا فى جهة واحدة ، وينص الدستور على أن تكون الانتخابات لأعضاء المجالس المحلية بواسطة سكان الأقاليم والمناطق الموجودة فيها هذه المجالس ، لتكون المجالس مسئولة عن إصلاح الأحوال فى الإقليم ، غير أن هذا النص لم يوضع حتى الآن موضع التنفيذ ، ويبدو انه من المحتمل جدا أن ينتخب أعضاء هذه المجالس فى المستقبل القريب ، وأن يختار هؤلاء حكامهم وأن يخضع هذا لموافقة الوزارة ، وأن تصرف نسبة مئوية معينة من الضرائب التى تجمع فى كل إقليم فى المشروعات الخاصة به مباشرة .

وتقع مهمة المحافظة على النظام العام فى المدن والبلاد والقرى الكبيرة فى أيدى رجال الشرطة الذين يبلغ مجموعهم ٢٢,٠٠٠ رجل ، أما حفظ الأمن فى الطرق الجبلية والقرى الصغيرة فمتروك لقوات الأمن ويسمون « ژاندارمرى » وهم قوة مكونة من ٢٠,٠٠٠ رجل ، ومنذ عدة سنوات حينما كانت بعض الطرق المعينة عرضة لأن يغشاها بعض قطاع الطرق ،كان الحراس يتخذون مواقعهم فى أبراج مبنية بالحجارة ، يقيمون فيها بأعداد كثيرة لحراسة الطرق . وتكون كل جماعة منهم على مرمى البصر من الجماعة الأخرى . ومنذ عام ١٩٤٢ ؛ جاءت بعثة أمريكية لتدريب قوات الأمن ، وكان يرأسها أولا الجنرال هـ . نورمان شوارتس كوف (General H. Norman Schwarz Kopf) وهى الآن برئاسة الكولونيل جيمس ر . بيرس (Colonel James R. Pierce)

وقد أشارت هذه البعثة بإعادة تنظيم هذا الحرس وترقيته وفقا للأساليب الحديثة ، بحيث أصبح الاتصال والانتقال داخل البلاد آمنا جدا .

وزارة العدل :

وتختص وزارة العدل بتنفيذ القوانين الموجودة فى البلاد ، والنظام القضائى فى إيران يحذو حذو النظام القضائى فى فرنسا ، وهو عبارة عن مجموعة من المحاكم تتدرج من المحاكم الموجودة فى الأقاليم — من أقل مستوى — إلى المحكمة العليا ، التى يكون فيها الاستئناف النهائى للأحكام ، ولكن هذه المحكمة لا حق لها فى تقرير دستورية القوانين الحالية ، ويحكم القضاة فى جميع القضايا ما عدا عدد قليل منها يدعى فيها المحلفون الذين يعينون غالبا بصفة دائمة .

ومنذ عام ١٩٢٥ ؛ حدث تطور شامل لدى الرأى العام الإيرانى فى فكرة القانون ، فقبل ذلك الوقت ، كانت البلاد تخضع لمواد القانون الدينى المستمدة من القرآن ، وكانت تفصلها شروح العلماء من رجال الدين ، ويطبقها شيوخ المسلمين . وهذا النوع من القانون لم يكن غير متناسب لظروف الحياة فى العهد الحاضر فحسب بل ألقى مسئولية كبيرة على رجال الدين ، ووضع فى أيديهم سلطة كبيرة ، وكان من المدهش حقا أن تمحو مجموعة من القوانين الجديدة تراث قرون عديدة بمثل هذه السرعة .

وفى عام ١٩٢٥ ؛ وافق البرلمان على لائحة مفصلة للقانون التجارى ، وأعقب ذلك بالموافقة على لائحة القانون الجنائى فى عام ١٩٢٦ ، ولائحة القانون المدنى — فى عام ١٩٢٨ — ويقع فى تسعمائة مادة . وهذه القوانين الأساسية الثلاثة هى التى قام عليها النظام القضائى ، بينما توجد قوانين أخرى ما زال يتطلع إليها حتى يتم تطور إيران ، وقد ألغى قانون ١٩٢٨ الامتيازات الأجنبية التى كانت — حتى ذلك الوقت — تمنح الأجانب المقيمين فى إيران نوعا من الحصانة ضد القبض عليهم كما كانت تهبهم الحق فى أن يحاكموا بواسطة ممثلى بلادهم فى القنصليات ، كما حددت القوانين التى صدق عليها فى عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ السن القانونية للزواج ، ورفعت الرسم المفروض على الطلاق ، وبينت حقوق المرأة فى الملكية ، كما أبطلت القوانين التى أصدرت فى ١٩٢٨ و ١٩٣٥ الزى الإيرانى القديم ، وجعلت الزى الأوربى والقبعة إجباريين ، وقد ألغيت الرتب والألقاب وكل مظهر من مظاهر الأرستقراطية القديمة فى عام ١٩٣٥ .

وأخيرا دعيت الوزارة لتنفيذ قوانين من نوع يعد جديدا فى هذا الجزء من العالم ، مثل القوانين التى تحرم التخزين ، والتى تشرف على الإيجارات ، وهى خاصة بالحرب الأخيرة ، وقد نفذ القسم الأخير من هذه القوانين — على وجه الخصوص — بكل أمانة ودقة .

وهناك عادة خاصة بالإيرانيين هى عادة الالتجاء إلى المساجد « بست » ، وقد اختفت بعد تنفيذ اللوائح الخاصة بالقانون الجديد ، وهى أن يلتجئ الهارب إلى المسجد فلا يزعجه أحد ما دام محتميا بهذا الملجأ .

وتوجد مكاتب للتسجيل فى جميع المدن والقرى الكبيرة ، وقد أنشأتها الوزارة لتسجل فيها جميع الوثائق مثل : عقود الزواج ، وشهادات الميلاد ، وعقود الإيجار والملكية ، وحجج الأراضى فهذه جميعها ينبغى أن تسجل فى هذه المكاتب ، وهذا العمل ذو أهمية كبيرة فى إنشاء سجلات مستوفاة ودائمة لملكية الأرض ، لأن حدود الأراضى فى العصور السابقة كان من الصعب تحديدها مما كان يؤدى إلى كثير من المنازعات حول حق ملكيتها .

وزارة التربية والتعليم :

وتختص وزارة التربية والتعليم بالتعليم العام ، والأوقاف الدينية ، والفنون الجميلة .

واصطلاح « الأوقاف الدينية » ترجمة لكلمة عربية معناها « الهبات الممنوحة للتعليم الدينى أو للأغراض الخيرية » وقد تكون هذه هبات نقدية ، ولكنها فى أغلب الأحيان أراضى زراعية أو دكاكين فى الأسواق أو بساتين يخصص دخلها السنوى لعمل خيرى وتشتمل بعض المساجد القديمة على كتابات تشرح بالتفصيل الهبات المخصصة لصيانتها الدائمة والهبات الأخرى المخصصة للإنفاق على الحمامات العامة ، والمدارس الدينية والمستشفيات ، وكانت حجج هذه الهبات والأوقاف جميعها ، وطرق إنفاق الأموال تحفظ قديماً لدى الزعماء الدينيين المسلمين ، ولكن هذا العمل حول منذ سنوات عديدة إلى وزارة التربية والتعليم .

وتقوم إدارة الآثار — التى توجد مكاتبها فى المتحف الحديث الرائع فى طهران — بتسجيل أبنية إيران القديمة، وصيانتها، والإشراف عليها، كما تقوم بالإشراف على التنقيب عن الآثار فى جميع أنحاء البلاد.

ويساعد وزارة التربية والتعليم فى مشاريعها الكثيرة «المجلس الأعلى للتعليم» وهو مكون من عشرة أعضاء استشاريين ، وعشرة أعضاء مصوتين ، وهو يوافق على القوانين العامة والكتب المقررة ، ويسعى لإدخال الإصلاحات الجديدة والتوسع فى نظام التعليم ، ويعد قوة ثابتة فى وجه التيارات المتطرفة أو الرجعية .

ويرجع تاريخ التعليم فى إيران إلى عهد بعيد جدا ؛ فنى العصر الأكمينى كان الشباب لا يتعلمون الركوب والرماية بالقوس فحسب، بل كانوا يتعلمون أيضا قيمة الصدق، والتمييز بين الخير والشر . وبعد الفتح الإسلامى واعتناق الديانة الإسلامية، كان التعليم يقوم على أساس القرآن؛ كما كان التعليم فى أوروبا يقوم على أساس الإنجيل، فظل شيوخ المسلمين يعلمون قرونا عديدة فى مقابل مبلغ قليل من المال يؤخذ من الوالدين، وفى المدارس التى تسمى «المكاتب». يستظهر الأطفال القرآن عن طريق ترتيل آياته فى مجموعات، ويتعلمون قراءة الفارسية وكتابتها، ومبادىء علم الحساب، وكانت توجد — أيضا — عدة مدارس دينية كبيرة، وهى شىء أشبه بالجامعات الدينية الغربية، حيث يجتمع الطلاب الكبار حول الرجال الذين يعينون للتدريس لهم، ويدرسون موضوعات؛ كتفسير القرآن، والتعاليم الدينية، والفلسفة الدينية، ولم تكن هناك امتحانات رسمية، كما لم يكن هناك مكان مخصص للفتيات فى هذا النظام من التعليم، وقد أفسحت المدارس الدينية والمدارس العالية مجالا كبيرا للتعليم الدنيوى، غير أنها كانت تؤدى وظيفتها — خصوصا فى المدن الصغيرة والقرى — لتخريج رجال الدين . ويوجد الآن ٢,٣٩٧ مكتب تضم ٥١,٩٢٢ تلميذ، و ١٣٨ مدرسة دينية عالية يؤمها ١,٣٤١ طالب .

وقد أنشئت علاقات وثيقة مع عدد من الدول الأوروبية فى أوائل القرن السابع عشر؛ ومنذ ذلك الوقت، أخذت العناية بالأفكار الأجنبية، واللغات، وأسلوب الحياة تزداد فى إيران، وبلغت هذه العناية أوجها بحيث أدت — فى القرن التاسع عشر — إلى إنشاء مدارس تسير على نمط المدارس الغربية، وقد أسست إحدى هذه المداس وهى «دار الفنون» فى طهران فى عام ١٨٥٢. وكانت فى البداية تعمل على التخصص فى الموضوعات العسكرية، ولكن سرعان ما توسعت بعد ذلك فى الفنون الحرة، وأدت خدمات فعالة فى تعليم شباب الأسر النابهة.

وقد أنشئت أول وزارة للتربية والتعليم فى عام ١٨٥٥؛ ولكن وجود النظام الأساسى للتعليم فى الوقت الحاضر يرجع تاريخه إلى عام ١٨٩٧، حينما أنشئ «مجلس التعليم» فى الوقت الذى استقر الرأى فيه على اتخاذ النظام الفرنسى فى التعليم كنموذج يحتذى، ولا زال هذا النظام قائما، وهو يؤكد ضرورة إعطاء أكبر كمية ممكنة من المعلومات، وتوجه المدارس التى تديرها البعثة الأمريكية American presbyterian Mission اهتماما كبيرا إلى الأساليب الأمريكية فى التعليم، وقد فتحت أول مدرسة تابعة لهذه الإرسالية فى عام ١٨٣٦، فى مدينة رضائية، وفى أوائل القرن العشرين وجدت مدارس أمريكية وإنجليزية وألمانية وفرنسية وروسية فى أجزاء مختلفة من البلاد، وفى عام ١٩٤٠ أديرت هذه المدارس بواسطة الحكومة الإيرانية

والدراسة فى إيران تتطلب نفس عدد السنوات اللازمة للدراسة فى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعة فى بلادنا (أمريكا)، ولكن التقسيم قبل المرحلة الجامعية مختلف بعض الشىء؛ فالمدارس الابتدائية بالمجان، ويوجد منها ١,٧٧٩ مدرسة تضم ٨,٠٧٧ مدرسا و٢٦٣,٧٥٨ تلميذا، والدراسة فيها إجبارية، ويدخلها الأطفال فى سن السابعة، ويواصلون الدراسة فيها ست سنوات، وفى سنوات الدراسة الأولى يجلس الأطفال والبنات فى فصول واحدة، ولكنهم بعد ذلك يجلسون فى فصول منفصلة، ويدرس كل فريق فى مدرسة خاصة. وتخصص

أغلب حصص الدراسة فى البداية لدراسة اللغة الفارسية والعادات والأخلاق والألعاب الرياضية والحساب ،ثم تزداد مواد الدراسة بعد ذلك إلى ثلاث عشرة مادة وتكون موضوعاتها هى نفس الموضوعات التى تدرس فى المدارس الأمريكية ، ويستفيد التلميذ فى سنوات الدراسة الأولى من كتب المطالعة استفادة واسعة ، ويضم كتاب المطالعة « الجزء الثانى » — الآن — موادا قصيرة عن العناية أثناء السير فى الشوارع ، وحين ملء المصباح بالغاز ، وعند اللعب بالقرب من حافة الحوض الذى فى وسط فناء المنزل ، وقصصا عن الحيوانات ، ودروسا فى الجغرافية والحيوانات والنباتات ، ودروسا فى حفظ النظافة ، والمساعدات المنزلية ، وقصصا مبسطة مستمدة من التاريخ الفارسى والشعر الفارسى . ويشتمل كتاب المطالعة المخصص لسنوات الدراسة المتقدمة على مجموعة من الشعر أكثر من الموجودة فى كتب المطالعة الأمريكية .

ومدة الدراسة فى المدارس الثانوية ست سنوات وهى ليست إجبارية وليست بالمجان ، ويدخلها التلاميذ عادة فى سن الثالثة عشرة ، وفى نهاية السنة الثالثة من الدراسة يوجد امتحان عام ، وقرب انتهاء مرحلة الدراسة ، يمكن للطلبة أن يستعدوا لدراسات أوسع بالتخصص فى الأدب أو الرياضة أو العلوم التجارية ، أو العلوم الطبيعية ، وتدرس سبعة عشر موضوعا ، ويخصص لكل موضوع من ساعة إلى أربع ساعات أسبوعيا ، وتدرس اللغة العربية بتعمق — من بين اللغات الأجنبية — لأنها لغة القرآن ، أما اللغة الفرنسية التى كانت فى وقت من الأوقات اللغة الأجنبية الأكثر ذيوعا فقد حلت محلها — فى السنوات الأخيرة — اللغة الإنجليزية ، وتوجد ٤٥٥ مدرسة ثانوية تضم ١٫٧٤١ مدرسا ، و ٢٦٫٨٠٨ تلاميذ .

وقد أنشئت جامعة طهران فى عام ١٩٤٣ ، ويديرها مجلس الجامعة ، مستقلا عن وزارة التربية والتعليم ، وهى تضم الآن ست كليات أو مدارس عالية . والتعليم فيها مشترك وهى كليات : المعقول والمنقول (العلوم الدينية) ، والطب وطب الأسنان والصيدلة ، والطب البيطرى ، والحقوق والعلوم السياسية ، والعلوم

الاقتصادية ، والآداب والعلوم الطبيعية والرياضيات ، والهندسة ، وهناك مدرسة أخرى ملحقة بالجامعة هى مدرسة الفنون الجميلة وقد تلقى كثير من أساتذة هذه الكليات دراساتهم العليا فى الجامعات الأمريكية أو الأوروبية ، ومستوى التدريس وتحصيل العلم فيها مرتفع ارتفاعا مناسبا .

وتشرف وزارة التربية والتعليم على مدرسة التمريض ، ومدرسة الموسيقى التى يرجى منها الكثير ، كما توجد مدارس صناعية وتجارية فى مستوى المرحلة الثانوية ، وإحدى هذه المدارس مدرسة للصناعة ، تمرن التلاميذ على صناعة نسج السجاد .

ويعتبر إعداد المدرسين أهم نواحى أعمال وزارة التربية والتعليم ، وينبغى على مدرسى التعليم الابتدائى أن يدرسوا ثلاث سنوات فى مدرسة ثانوية يلتحقون بعدها بأحد معاهد التربية الابتدائية ليحصلوا بعد دراسة سنتين على شهادة تخول لهم حق التدريس فى المدارس الابتدائية ؛ فإذا أرادوا أن يدرسوا فى المدارس الثانوية ، فإن عليهم أن يلتحقوا بمعهد التربية للمعلمين ليحصلوا على شهادة أخرى فى التربية من هذا المعهد .

وبعد عام ١٩٢٦ ، أخذت الحكومة الإيرانية تختار كل عام مائة طالب تقريبا ، ثم ترسلهم إلى أوروبا أو الولايات المتحدة ، وقد أصبح هؤلاء روادا للتعليم — بعد عودتهم إلى إيران — واحتلوا الوظائف الحكومية المرموقة ، وكانت الحاجة ماسة إليهم بعد خبرتهم الفنية .

ومن الطريف أن نسجل أن الإيرانيين منحوا موهبة خاصة فى تعلم اللغات ، لأن الطلاب الإيرانيين فى الخارج كانت ألسنتهم تنطلق دائما بلغة البلاد التى يدرسون فيها بفصاحة تامة .

وكانت إحدى نواحى سياسة التربية والتعليم الأساسية فى خلال العشرين سنة الأخيرة تشجيع النشاط الجماعى ، ويتمتع الإيرانيون بشخصيات فردية قوية ، ولم تكن هناك تنظيمات يستطيع الطلاب والفتيات أن يمارسوا فيها نشاطهم أو يقوموا فيها بأعمال نافعة فعالة إلى أن أشرفت الحكومة على حركة

الكشافة ، وأحضرت رائدا من الولايات المتحدة لتمرين التلاميذ ، فلم يلبث أن تمتع بحب التلاميذ بدرجة كبيرة ، وكانت ملابس الكشافة هى نفس الملابس التى يرتديها الكشافة الأمريكيون ، وقد أعطيت عناية خاصة للنظافة ، والكشف ، والألعاب الرياضية ، وفقدت هذه الحركة كثيرا من قوتها بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ، ولكنها بدأت — الآن — فى استعادة قوتها من جديد ؛ وقد شجعت المدارس أيضا الرياضة ويسرت سبلها ، وهى تقيم فى كل عام مهرجانا رياضيا يشترك فيه أحسن الرياضيين من كل جزء من أجزاء البلاد ، وقد كان ملك إيران الحالى من كبار الرواد المتحمسين للحركة الكشفية قبل أن يلى العرش وهو شخصيا من أكبر الرعاة للرياضة كما أنه لاعب تنس ممتاز جدا ، وأفضل لعبة محببة لدى الناس وأوسعها انتشارا نوع من لعبة كرة القدم يسمى (Soccer)[1] وتعد فى المدارس ساحات اللعب ، وتزاول فيها الألعاب الجماعية . والمصارعة منتشرة ، ولكن الملاكمة أقل انتشارا ، ولا تلعب فى إيران كرة القدم ، والباسبول الأمريكية ، ولكن تلعب فيها كرة السلة بمهارة ، ومن الألعاب الرياضية الأخرى التى لا تشرف عليها المدارس مباشرة : التزحلق على الجليد ، والتنس ، والبنج بنج ، والتدحرج على العجلات .

وتوجد حلقات كثيرة لهذا النوع من التدحرج فى طهران ، تؤمها مجموعات كبيرة من الناس .

ومن السهل جدا أن تلاحظ أن نظام التعليم فى الوقت الحاضر فى إيران معد بطريقة تجعله أفضل للمدن والبلاد منه لمجتمعات القرى الصغيرة ، فمثلا المادة الموجودة فى كتب المطالعة المدرسية تعد قليلة الفائدة للأطفال القرويين ، وقد اعتقد المسئولون من رجال التعليم الإيرانيين أن المدارس الموجودة فى القرى يجب أن تكون وثيقة الصلة بحياة الناس ، وأن المدرسين الذين يقومون بالتدريس فيها يجب أن يكونوا من نفس الوسط الذى يدرسون فيه وأن برنامج الدراسة فى هذه المدارس يجب أن يهدف إلى تحسين وسائل الزراعة

---

(١) نوع من كرة القدم تضرب فيه الكرة بالرأس والجسم والقدمين (المترجم) .

والأحوال الصحية ؛ ولا توجد فى الوقت الحاضر إلا مدرسة واحدة لكل ثمانى أو عشر قرى حتى فى المناطق الآهلة بالسكان ، ولذلك فإن نسبة صغيرة من الأطفال القرويين هى التى تتمتع بمزايا التعليم .

وقد اقتنع التقدميون من الإيرانيين بأن حل مشاكل التعليم الريفى، وانتشار الجهل وانعدام الاتحاد بين المواطنين يتيسر بإيجاد نظام شامل للتعليم . وفى عام ١٩٤٣ أجاز البرلمان قانونا يفرض التعليم الإجبارى بالمجان لمدة معينة على كل طفل إيرانى ، وهذا القانون يتطلب جهودا كبيرة ، وإنشاء آلاف من أبنية المدارس الجديدة ، ولم تعتمد المبالغ التى تكفل وضع هذا القانون موضع التنفيذ حتى الآن ؛ ولكن المشكلة الرئيسية ليست مشكلة الاعتمادات اللازمة وإنما هى مشكلة إعداد المدرسين اللازمين .

وقد استطاعت المدارس الأمريكية التى تشرف عليها البعثة الأمريكية التى تشرف على مدارس الإرساليات الأجنبية تدريب آلاف من الإيرانيين على النظام ، والخدمة العامة ، والخلق . وقد افتتحت المدرسة الأولى فى رضائية (التى سميت بعد ذلك أورمية) فى عام ١٩٣٦ . ثم افتتحت مدارس أخرى على نطاق واسع فى المنطقة المجاورة لها ، يؤمها الآشوريون والأرمن بكثرة ، ثم أسس الأمريكيون — بالتدريج — مدارس للتلاميذ الأكبر سنا من البنين والبنات فى المدن الأخرى ، فأمها عدد كبير من الإيرانيين فى إقبال متزايد ، وقد شيدت مدرسة للبنين فى همدان فى عام ١٨٧٠ ، وأخرى للبنات بعد ذلك باثنتى عشرة سنة ، كما افتتحت مدرسة للبنين فى طهران فى عام ١٨٧٣ ، وأخرى للبنات فى العام التالى ، وافتتحت المدارس فى الوقت نفسه فى تبريز ، وأنشئت مدرسة كبيرة فى رشت ، ثم توزعت — فى عام ١٩٠٧ — فى مدارس مستقلة للبنين والبنات ، وقد افتتحت آخر مدرسة أمريكية فى مشهد فى عام ١٩٢٦ .

وبدأت المدارس بفصول قليلة للتعليم الابتدائى ، ثم توسعت بحيث أصبحت تشتمل على برنامج كامل لكل من البنين والبنات يمتد من مرحلة رياض الأطفال إلى مرحلة التعليم الجامعى ، وبلغ عدد البنين الذين يدرسون فى المدارس الأمريكية

— فى عام ١٩٢٣ — ١٧٠٨ تلميذ ، بينما كان عدد البنات ١٣٤٦ بنت ؛ أى أن عدد الجنسين كان يزيد على ثلاثة آلاف ، وقد تسلمت كلية ألبرز فى طهران — وهى التى كانت المدرسة الأمريكية العليا للبنين — براءة مؤقتة — فى عام ١٩٣٢ — من مجلس جامعة ولاية نيويورك ، وأصبحت هذه البراءة دائمة فى عام ١٩٣٢ ، وكان نشر هذا النظام هو الشغل الشاغل لناظر المدرسة صمويل مارتن جوردان (Samuel Martin Jordan) منذ تولى نظارتها فى عام ١٨٩٩ ، ثم فى أثناء مدة عمادته لها — حينما أصبحت كلية — إلى أن اعتزل الخدمة فى عام ١٩٤٠ ، وكان تقدير أهل إيران له وحسن إظهارهم لهذا التقدير نتيجة طبيعية لحبهم له . وقد عاد آرثر س بويس (Arthur C. Boyce) الذى اشترك مع الدكتور جوردان فى هذا المشروع من إيران أخيرا بعد خدمة استمرت سنين طوالا فى هذه البلاد .

كما اتسعت — فى الوقت نفسه — كلية البنات الأمريكية (Sage College)، وهى التى كانت فى الأصل مدرسة نوربخش للفتيات ، وقد استولت الحكومة الإيرانية على جميع المدارس الأجنبية فى عام ١٩٤٠ .

وزارة الزراعة :

تنقسم وزارة الزراعة إلى الأقسام الفنية الآتية :

١ — الديوان العام للتقارير والحسابات والتفتيش .

٢ — مكتب فنى لدراسة البنجر ، وقصب السكر ، والزهور ، والخضراوات ، والغابات ، والطب البيطرى ، وتناسل الحيوانات ، وإنشاء الخزانات ومشروعات الرى ، وللصناعات الزراعية .

٣ — مكتب فنى آخر للتجارب الزراعية ، ولفحص البذور والأبحاث .

٤ — إدارة المعاهد وهى تشمل: مدرسة زراعية ثانوية ، وكلية للزراعة فى كرج ، ومعهدا للمصل فى حصارك ، ومدرسة لتناسل الحيوان فى حيدر آباد أشرفت على تطعيم مجموعة كبيرة من الحيوانات فى جميع أنحاء البلاد ،

وإدارة للتأجير فى كرج ، ومشروع لإبادة الحشرات فى كرج .

وتدرس المدرسة الزراعية ، وكلية الزراعة فى كرج للطلاب برنامجا كاملا ، كما تهيء لهم تمرينا عمليا كافيا فى الحقل والبستان والحديقة ، ولكن أكثر طلبتها ينتمون إلى طهران والمدن الأخرى ، ولذلك فإن القليل منهم هم الذين يجدون لذة — بعد التخرج — فى العمل فى المجتمعات الزراعية الصغيرة .

والأعمال الأساسية للوزارة هى تحسين أنواع الحبوب والحشائش وطرق إنتاجها ، وتقديم النصائح الزراعية للمتخصصين والزراع ، وتوسيع رقعة الأراضى المروية ، وقد وجدت الإدارة الخاصة بهذه الأعمال فى صورة وزارة مستقلة لمدة سنوات قليلة فقط ، ولكنها صرفت جل اهتمامها فى الأبحاث النظرية والدراسات الإحصائية ، ووجهت عناية قليلة للاتصال المباشر بالبيئات الزراعية ، وتعد أعمالها المنشورة عن مصادر الثروة الزراعية فى كل قسم من أقسام البلاد الأسس الثابتة لنشاط عملى أكثر .

وفى عام ١٩٤٣ ؛ اتخذت خطوة هامة إلى الأمام وذلك بإنشاء إدارة للرى كقسم مستقل عن الوزارة وكانت ذات ميزانية مستقلة ، قدرت فى الأصل بأكثر من مليون دولار سنويا ، ومنذ عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٦ استخدمت الحكومة الإيرانية أمريكيا يدعى الأستاذ ل . م . ونسور (L. M. Winsor) وجعلته مستشارا لها فى مشروعات الرى ، وكانت له خبرة بأعمال الرى فى غربى الولايات المتحدة لمدة سنوات عديدة . وسوف تنفذ مشروعات مد المدن بالمياه النقية بعد أن تتيسر الاعتمادات اللازمة لذلك . وقد حفر بئر ارتوازى بالقرب من طهران ، كما قوبل إمكان حفر آبار أخرى فى أجزاء مختلفة من البلاد بحماس كبير .

وفى عام ١٩٤٥، تم مسح الأرض فى إيران بواسطة مؤسسة الشرق الأدنى (Near East Foundation) ، وهى مؤسسة أمريكية اضطلعت منذ الحرب العالمية الأولى بمشروعات المساعدات العامة ، والتعليم الريفى والتدريب الزراعى فى الدول التى تقع فى النصف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وقد نفذ

المشروع الإيرانى للمؤسسة برغبة شديدة ، ورعاية تامة من الحكومة الإيرانية ، وتم تنفيذه فى المدة ما بين ١٩٤٦و١٩٤٨ تحت الادارة المباشرة للدكتور ليل ج. هيدن Dr. Lyle J. Hayden والزارع إلينوى برد Illinois—bred ، والمدرب كورنيل ترينِد Cornell trained ، وأخذت هيئة موظفيها تعمل بمعاونة كل من وزارتى الزراعة والتربية والتعليم ، وكان هدفها رفع مستوى التعليم ، والصحة العامة ، وطرق الزراعة والإنتاج فى عدد من القرى المختارة تتخذ كمعمل للتجارب ، ثم تطبق نتائج هذه التجارب فى بقية أجزاء البلاد .

وزارة الصحة :

وزارة الصحة هى آخر الفروع الحكومية التى أصبحت وزارة مستقلة ، وأحرزت نجاحا كبيرا فى معالجة مشكلات الصحة العامة منذ عام ١٩٣٥ ، ولكن هناك أعمالا كثيرة أخرى ما زالت تحتاج إلى أداء . وإن انتشار الداء والمرض ليرجعان إلى قلة التغذية وانخفاض مستوى السكن والمعيشة ، وينبغى أن تقوى مصارعة المرض بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التى سوف تساعد على رفع المستوى العام للمعيشة .

ويندر أن توجد الكوليرا فى إيران ، وقد انتشر التيفوس فى السنوات الأخيرة ، ولكن قوانين الحجر الصحى الدقيقة — فى كل مناسبة — كانت تحصر هذه الحالات ، ويوجد فى البلاد نوع مؤذ من الجدرى بطريقة وبائية ، وكانت فى وقت من الأوقات تعد خطرا حقيقيا ، ولكن تطعيم الأطفال — فى المدارس — والبالغين قد أثبت أنه فعال جدا فى محاربة هذا المرض ، والأمراض التناسلية جميعها مألوفة جدا فى البلاد رغم أن أنواع المرض تبدو أقل أضرارا وإبادة من الأنواع الموجودة فى الدول الغربية .

والرمد الحبيبى منتشر على نطاق واسع ، كما أن الدمامل منتشرة أيضا ، هذا إلى جانب الدمامل المتقيحة التى تسببها لدغات الحشرات المرعبة الموجودة فى الرمال ، وهى تترك غالبا أثرا واضحا .

كما تنتشر الأمراض التى تتسبب عن الماء والطعام ، مثل حمى التيفود ،

والدوسنطاريا الأميبية ولكن أضرارها أقل بكثير مما كان يتوقع ، لأنه يبدو أن عند الناس مناعة — إلى حد ما — ضد إصاباتها .

والتدرن الرئوى يصيب كلا من الفلاحين وأهل المدن ، ولم يعرف إلا أخيرا أن الملاريا هى سبب الحميات التى تنهك قوى نسبة كبيرة من السكان ، وقد عرفت الملاريا بانتشارها على طول الشريط الساحلى الرطب لبحر قزوين غير أنه قد تأكد أخيرا أن الناموس الذى ينقل عدوى الملاريا يعيش أيضا فى القمم المرتفعة ذات الجو الجاف فى الهضبة الإيرانية .

ونسبة عدد الوفيات بين الأطفال كبيرة فى كل من القرى والمدن ، ومتوسط عدد أفراد الأسرة خمسة أشخاص ، وتفقد كل أسرة تقريبا واحدا من أطفالها على الأقل فى سن مبكرة ، وقد قررت المصادر الموثوق بها أن الحالة الصحية العامة بين السكان القرويين سيئة ، ولكن بعض الدارسين يعتقدون أن مثل هذه التقارير مبالغ فيها .

وتحاول إدارة الخدمات الطبية بالوزارة أن تقاوم المرض ، وتحول دون انتشاره ، وقد أفلحت الحملات الأخيرة التى قام بها رجال الصحة فى عربات مجهزة بآلات الرش فى تطهير كثير من المناطق من ناموسة الملاريا ، ولكن القضاء على الميكروبات الموجودة فى المياه مشكلة أكثر صعوبة ، لأن المدن والبلاد والقرى تفتقر جميعها إلى أنابيب للمياه ، ونظام للصرف .

وتشتمل مدينة برجند على أنابيب للمياه ، كما تشتمل مدينة مشهد على هذه الأنابيب فى جزء منها ، وهناك كثير من مجارى المياه يزمع إنشاؤها فى المدن الأخرى . وقد درست مشروعات كثيرة حديثة لإنشاء شبكة لأنابيب المياه فى طهران دراسة تفصيلية ، ومن المتوقع أن تبدأ الأعمال الإنشائية فى المستقبل القريب[1] وليس من المحتمل أن يتم إنشاء شبكة للصرف قريبا ؛ ويعد جو إيران الحار الجاف عاملا ملطفا يعين على منع انتشار العدوى .

(١) كان هذا وقت تأليف الكتاب ، وقد تم إنشاء هذه الشبكة الآن (المترجم) .

وتدير هيئة علمية ممتازة معهد باستير فى طهران ، وقد أسس فى عام ١٩٢١ ، وأدى خدمات عامة فعالة فى دراسة الأمراض المحلية ، وتحضير حقن وأمصال ضد الجدرى ، وحمى التيفويد ثم ضد التيفوس فى السنوات الأخيرة .

وقد أنشأت الحكومة المستشفيات منذ عام ١٩٣٠ ، وتشتمل طهران على عدة مستشفيات كبيرة جدا ، أكبرها وأحدثها مستشفى يسمى « مستشفى الألف سرير »[1] كما توجد أيضا مستشفيات خاصة بالسيدات فى طهران ، وتحتوى أغلب المدن الكبيرة على مستشفيات حكومية ؛ ومستشفى مشهد — على وجه الخصوص — حسن الإعداد والإدارة ، كما تشرف الحكومة على عيادات طبية حرة فى المدن ، وقد حاولت فتح مثل هذه العيادات فى القرى الزراعية ، ولكن قلة الممرضات ، وعدم رغبة الأطباء المهرة فى المعيشة فى القرى إلى جانب قلة الاعتمادات المالية ، قد عرقلت تنفيذ هذا المشروع . والواقع أن حيطان العيادات الطبية المبيضة فى القرى ، ومداخلها النظيفة الخالية من القذارة تعطى درسا عمليا فى الوقاية من أسباب المرض فى حياة الناس الشخصية والمنزلية ، ولا يتعصب القرويون ضد وسائل العلاج الحديثة ، ولذلك فهم يهرعون إلى العيادات الطبية ، وقد أنشأت الحكومة مصحة للتدرن الرئوى فى منطقة عالية عن طهران ، فى ساحات أحد القصور الملكية ومبانيه التى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر .

وتشرف الحكومة على المعهد الأقرباذينى الذى أنشئ حديثا ، وهو الذى يستورد الأدوية والمستحضرات الطبية ، ويتولى توزيعها على الجمهور بأسعار منخفضة ، ويشرف على الإنتاج المحلى لبعض المستحضرات الطبية .

ويشرف الأطباء الخصوصيون — الذين تلقوا تحصيلاتهم فى الخارج ، أو أخذوا درجاتهم العلمية من كلية الطب بجامعة طهران — على مستشفياتهم وعياداتهم الخاصة ، وبين هذه المستشفيات عدد من مستشفيات النساء والأطفال .

---

(١) يسمى هذا المستشفى بالفارسية « بيمارستان هزار تختخوابى » (المترجم) .

وقد أدت المستشفيات التى يملكها الأجانب ويقومون بإداراتها خدمات جليلة لأهل إيران ، فمنذ مدة طويلة أنشأ مجلس البعثة الأمريكية الذى يشرف على الإرساليات الأجنبية مستشفيات فى شمالى البلاد ، وقام بإدارتها ، ومرن فيها كلا من الأطباء والممرضات ، وحاول فى الوقت نفسه أن يستأصل من نفوس الناس الاعتقاد السائد بأن التمريض ليس عملا محترما ، ثم طلبت الحكومة الإيرانية من المستشفيات الأمريكية أن تؤسس أولى مدارس التمريض التى تتولى الحكومة الإشراف عليها وإعانتها : وتفتح المستشفيات الأمريكية أبوابها فى كرمانشاه ، وهمدان ،ومشهد ،وتبريز ولكن المستشفى الكبير فى طهران مغلق بسبب قلة الأشخاص اللازمين له ، وتشرف بعثة إنجليزية على مستشفى فى إصفهان ، وتنهض بالأعمال الطبية فى شيراز وكرمان ، وتقوم روسيا السوفييتية — الآن — بإنشاء مستشفى صغير فى تبريز ، وآخر أكبر فى طهران وهو مجهز بعناية فائقة ولكن أسعاره أغلى بكثير من أسعار المستشفيات الحكومية أو مستشفيات الارساليات الأجنبية الأخرى .

وتشغيل الأطفال منظم بواسطة قانون ، ولكنه منتشر فعلا ، خصوصا فى صناعة نسج السجاد ، حيث تفيد الأيدى الصغيرة فى ربط العقد ، كما أن الضغط الاقتصادى فى الحياة القروية يجبر الأطفال على المساهمة فى حمل نصيبهم من أعباء الحياة ، وذلك بزراعة الحبوب أو رعى الأغنام ، ونظرا لأن هذا النوع من العمل يعد مضرا للنمو الصحى للأطفال ، فإن وزارة العمل التى أنشئت حديثا تفكر فى وضع التشريعات اللازمة لذلك ، وتنفيذها بدقة .

وقد أدى إدمان تدخين الأفيون منذ عدد كبير من السنين إلى تقويض صحة كثير من الإيرانيين بينما يسر للمدمنين هربا سهلا من العناء المميت . كما أدى استعماله المستمر إلى القضاء على النشاط ، والرغبة فى العمل ، هذا فضلا عن أن ثمن الأفيون قد أرهق دخل الأفراد المحدود ، بحيث أصبح استعماله من وجهة النظر الاقتصادية يهدد بكارثة ، وليس هناك من شك فى أن القضاء على هذا الإدمان سوف يصبح أمرا صعبا للغاية ، ولكن ينبغى على الحكومة الإيرانية

أن تثبت أنها أكثر جدية فى تحريم زراعة الخشخاش، ومنع تدخين الأفيون، كما أن جمعية محاربة تدخين الأفيون التى كانت نشيطة منذ عدة سنوات يجب أن تضاعف نشاطها فى هذا العمل فى المستقبل القريب[١] .

وزارة الاقتصاد الوطنى :

فى يونيه من عام ١٩٤٧ ؛ قرر مجلس الوزراء إنشاء وزارة للاقتصاد الوطنى تضم كل إدارات وزارة التجارة والصناعة والمناجم وأقسامها التى أنشئت منذ زمن طويل، وصدق البرلمان على المشروع بعد ذلك .

وقد خصصت اعتمادات عامة لإرساء قواعد السياسة الاقتصادية للحكومة، وهى كالآتى : الإشراف على التجارة الخارجية ومراقبتها، والإشراف على الصناعات والمناجم المملوكة ملكا خاصا، وتنفيذ مشروع السنوات السبع للإصلاح الاقتصادى وتعمير البلاد، والإشراف على مراقبات النقد الداخلية، وتحسين الزراعة، وطرق المواصلات، كما أن الفنون والحرف تتبع هذه الوزارة، وقد بذلت الوزارة جهدا أكيدا فى اجتذاب الرجال ذوى التجربة الواسعة، والخبرة الفنية المعروفة لتولى عددا من المناصب الرفيعة ذات المسئولية .

وتشرف إدارة المناجم على استغلال هذه المناجم المؤجرة للشركات المحلية، وتقوم بمعاينة الموارد المعدنية فى البلاد، وتعد خرائط عن مواقع المناجم والتكوينات الجيولوجية .

ونشاط إدارة الفنون والحرف له أهمية خاصة، فقد بذلت محاولات لإحياء بعض الصناعات اليدوية القديمة وتحسين كمية إنتاج الحرف الحالية ونوعها، وتشرف الإدارة على مدرسة عليا فى طهران ومدارس فرعية فى مشهد، وتبريز، وإصفهان، وشيراز، وشاهى، وهى تشرف أيضا على مدرسة الفنون الجميلة فى طهران التى كانت فى وقت من الأوقات تحت إدارة أحد كبار نقاشى الصور الصغيرة (المنمنمات)، كما توجد مدرسة للصباغة، ومدرسة حرف يدوية للبنات، يدرب فيها الطلبة على نقش الصور الصغيرة، ورسم السجاد ونسجه، وصناعة الفخار

(١) حرمت الحكومة الإيرانية أخيرا زراعة الأفيون وتعاطيه والاتجار فيه . (المترجم)

والآجر ، ونحت الخشب ، ونسج القماش الحريرى المشجر ، وأشغال الفضة والترصيع ، وطبع النقوش على الأقمشة بواسطة النماذج الخشبية ، وتهدف هذه المدرسة إلى إقامة مستوى عال للمهارة الفنية ، وأن تعيد للرسم ذوقه الذاتى الجميل كما كان فى الماضى ، وهو الطابع الذى فقد أغلبه فى أواخر القرن التاسع عشر نتيجة لظهور المنتجات الآلية الأوروبية وهى أقل مرتبة وروعة .

وزارة المواصلات :

أهم الأجهزة التى تديرها وزارة المواصلات : السكك الحديدية للحكومة الإيرانية التى يشرف عليها شباب ذوو خبرة فى شؤون السكك الحديدية ، وقد تعاون هؤلاء بإخلاص فى أثناء الحرب مع القوات الإنجليزية الروسية الأمريكية المتحالفة ، وكانت كل قوة من هذه القوات تشرف على جزء من الخطوط الحديدية ، وقد تعلمت الهيئة الإيرانية الكثير من النظم الغربية خلال اتصالها المستمر بهذه القوات . وكانت الإدارة تصدر مجلة أسبوعية شاملة تناقش بدقة المشاكل التى تتصل بالعمل ، كما كانت تحاط أولا بأول بمدى التطور فى تأسيس الخطوط الحديدية وترقية نظمها وذلك عن طريق إرسال كبار موظفيها إلى الخارج للقيام بدراسات واسعة عميقة ، وبعد نهاية الحرب ؛ أصبحت هيئة السكك الحديدية للحكومة الإيرانية تمتلك القاطرات ، وعربات الشحن ، والأدوات الميكانيكية ، والمعدات من جميع الأنواع ، وقد اشترت الحكومة الإيرانية هذه الأشياء من الجيش الأمريكى .

ومشاكل إدارة خطوط السكك الحديدية فى إيران كثيرة وصعبة ، فمثلا كل الدعامات ينبغى أن تأتى من الساحل القزوينى مخترقة الجبال العالية ، ويجب أن توجد ماكينات سحب المياه — فى كل منطقة فيها مياه — وأن تكون فى حالة جيدة تسمح لها بالعمل ، كما أن القضبان تستورد من الخارج ، ولما كان الخط الحديدى كله انفراديا ، فإن جداول سير القطارات يجب أن تصمم بدقة ، وأن يحافظ على المواعيد . وليس مقدار البضائع ، وعدد المسافرين كبيرين فى الوقت الحاضر للموازنة بين الإيرادات والمصروفات .

والوزارة مسئولة عن توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، وإدارتها وتوسيع الطرق والممرات الجبلية وتنظيفها ، وقد تم تشييد كل من الخطوط الحديدية ، والطرق عن طريق العقود المبرمة مع الشركات الخاصة ، ولكن صيانة الطرق وإدارتها فى جميع أنحاء البلاد موكولتان للموظفين الحكوميين ، وجميع الطرق الرئيسية والطرق الفرعية مرصوفة بالحصباء على قاعدة من الحجارة المسحوقة ، والأدوات المستعملة فى تحطيم الأحجار هى الآلات أو الأيدى وتساعد أعمال تنظيف الطرق — التى تقوم بها جماعات العمال المجلوبين من القرى فى نوبات مختلفة على طول هذه الطرق — على تيسير حركة المرور ، وتقليل الخسائر ، لأنها تضع طبقة جديدة من الحصباء على سطح هذه الطرق ، وإذا حفظت الطرق التى من هذا النوع بهذه الطريقة فإنها تستطيع أن تتحمل سيارات النقل الثقيلة ، وسيارات الركاب التى تستطيع قطعها فى وقت مناسب .

وقبل الحرب ؛ كانت للوزارة وصلات قصيرة مرصوفة من الممرات الجبلية ، وكان للمجالس البلدية طرقها الخاصة المرصوفة ، وقد رصفت القوات المتحالفة أميالا من الطرق فى أثناء الحرب ، وأبرمت الحكومة عقوداً لرصف الممرات الجبلية المهمة ، وليس من المحتمل أن تستعمل الخرسانة فى رصف الممرات الجبلية لأن الأسفلت متيسر فعلا ، ويمكن أن يوضع على القاعدة المتينة الموجودة ، فى حين أن الاسمنت ليس نادرا فحسب بل يتطلب قاعدة خاصة ، هذا فضلا عن تكاليف الآلات الباهظة وكميات المياه الكبيرة اللازمة فى مثل هذه الحالة .

وزارة البريد والمسرة والبرق :

تخضع نظم البريد والبرق (التلغراف) والمسرة (التليفون) فى إيران لإدارة الوزارة المباشرة ، وتشرف الوزارة على المدارس الخاصة بهذا النوع من التعليم التى تخرج العمال والفنيين اللازمين لهذه الأعمال .

وقد أدخل أول نظام للبريد — تقليدا للنظم الموجودة فى البلاد الأوروبية — فى عام ١٨٦٥ ؛ وأصبحت إيران عضوا فى اتحاد البريد العالمى فى عام ١٨٧٧ ،

وينقل البريد داخل البلاد عامة بالسيارات وعربات النقل، كما يوجد بريد جوى داخلى بين طهران والخليج الفارسى ، وأجور النقل الداخلية على البريد — حتى بالطائرة — أقل بكثير منها فى الولايات المتحدة .

وقد أنشئ أول خط للبرق فى إيران فى عام ١٨٥٩ ، وفى ذلك الوقت كانت الحكومة البريطانية ميالة جدا إلى إنشاء اتصال برقى على طول الطرق من أوروبا إلى الهند عن طريق الشرق الأدنى ؛ وفى عام ١٨٦٤ وما بعده منحت شركة البرق الهندو — أوروبية (Indo — European Telegraph Company) الحق فى إنشاء خطوط للبرق عبر ايران بشرط أن تعمل داخليا كما تعمل خارجيا ، وقد دخلت هذه الخطوط ايران من الغرب وتفرعت فى نقطة فى وسط الهضبة ، فخرج فرع منها ليتصل بالشبكة الرئيسية عند بوشهر على الخليج الفارسى ، ويواصل الخط الآخر سيره فوق سطح الأرض عبر بلوخستان إلى الهند ، وقد أنشأت ايران خطوطا اضافية ملكا لها بعد ذلك بكثير ، وأخيرا وافقت بريطانيا العظمى — فى عام ١٩٣٢ — على تسليم خطوط الشركة الهندية الأوروبية للحكومة الايرانية ، ويوجد فى الوقت الحاضر حوالى ٢٥,٠٠٠ ميل من أسلاك البرق ، تعمل فى داخل البلاد .

وقد أقيمت محطتان للاذاعة فى تبريز وطهران ، عدا محطات الارسال التى يملكها الجيش الإيرانى ويديرها ، والمحطة التى تملكها الحكومة فى طهران مقامة فى مبنى حديث للغاية ، وهى مجهزة تجهيزا جيدا ، وتدبير المراسلات التجارية مع الدول الأجنبية عن طريق الاتصال المباشر بواسطة أسلاك للإرسال والاستقبال مقامة فى أوروبا والولايات المتحدة ، والقوة الموصلة مناسبة لإقامة اتصال دائم فى الظروف الجوية المختلفة .

ويذيع راديو طهران أيضا برامج عامة على الموجة القصيرة وموجات الإذاعة المتوسطة ، وتبدأ الإذاعة كل يوم فى حوالى السادسة صباحا ببرنامج غير عادى يجمع بين التمرينات الرياضية الغربية وبين دقات الطبول وغناء الأشعار الحماسية التى تناسب حلقات المصارعة ، وتستمر المحطة فى الإذاعة

بعد الظهر حتى العاشرة مساء تقريبا ، والبرامج المثالية فيها هى الموسيقى والأغانى الغربية والإيرانية المسجلة ، وبرامج الأطفال ، وقراءات من الأدب والشعر ، ونشرات الأخبار بالإنجليزية والفرنسية ، والروسية والعربية إلى جانب النشرة الفارسية ، والأحاديث عن الحوادث الجارية ، والموضوعات التى تشغل الرأى العام ، وتعجب الذوق العام .

وتوجد أجهزة للاستقبال قليلة نسبيا ، تقدر بثلاثين ألفا ، مستعملة الآن فى إيران ، ويرجع السبب فى هذا — أصلا — إلى ارتفاع أثمان أغلب الأجهزة المستوردة ، وإن كان هناك ميل حقيقى عام إلى الإستماع إلى برامج الراديو . وتتابع الصحافة الإيرانية الأخبار التى تذيعها وكالات الأنباء الأجنبية حتى يستطيع القارئ العادى أن يتابع الأحداث العالمية ، ويسمع راديو طهران فى جميع أنحاء البلاد ، بينما تسمع محطات مصر ، وتركيا والهند وأوروبا بوضوح فى داخل إيران ، ومنذ مارس ١٩٤٩ ؛ يذيع صوت أمريكا كل يوم برامج بالفارسية موجهة إلى إيران .

وتدار شبكة التليفونات بواسطة شركة خاصة بأمتياز خاص من الحكومة ، ويوجد حوالى ١٥,٠٠٠ تليفون منها ٦,٠٠٠ فى سنترال طهران الأوتوماتيكى . وتدار الخطوط بين المدن بعناية ، كما أن أسعارها منخفضة .

وزارة العمل :

فى ١٨ مايو ١٩٤٦ ؛ أقر مجلس الوزراء قانونا شاملا للعمل يهدف إلى مواجهة المطالب الملحة التى تقتضيها الظروف الحديثة ، ولم تكن فى إيران أية لائحة للعمل قبل أن يوضع هذا القانون موضع التنفيذ ، ولم تكن هناك شروط ملائمة لتمثيل إيران فى منظمات العمل الدولية ، وكان هذا القانون ضروريا جدا لأن قوانين العمل فى إيران كانت مخالفة للقواعد الموجودة فى الدول الأخرى ، وقد نظمت المواد السبع والأربعون الواردة فى هذا القانون ساعات العمل ، والأجور ، والإجازات ، ودفع الأجور فى الإجازات ، والعمل بواسطة النساء والأطفال ، ونصت على العقود التى تبرم بين صاحب العمل والموظفين ،

والتأمين على صحة العمال، وعلى إدارة لتشغيل العاطلين ، واتحادات للعمال ، ومكاتب للصلح وتسوية المشاكل وديا ، وجمعيات للادخار ، كما نصت على التأمين الاجتماعى .

وفى ١٠ أغسطس ١٩٤٦ ؛ أنشئت وزارة للعمل بقرار من مجلس الوزراء ، ووكل إليها تطبيق قانون العمل . وتتكون هذه الوزارة — التى وافق البرلمان على إنشائها فى دورته الخامسة عشرة — من قسم إدارى وثلاثة أقسام فنية تشمل العمل ، والنشر والدعاية ، والإصلاحات والإنشاء . وينقسم الجزء المهم الخاص بالعمل إلى مكاتب مستقلة تعالج الموضوعات التى حددها قانون العمل ، ومكتب خاص بالعلاقات الدولية الخاصة بالعمل . وقد اشترك ممثلو إيران — فعلا — فى مؤتمرات العمل الدولية .

وكانت إحدى الخطوات الأولى التى اتخذتها الوزارة الجديدة إصدار قانون يقضى بزيادة أنصبة الفلاحين الذين يعملون فى الحقول التى يملكها الآخرون على أن تكون بمعدل ١٥٪ ابتداء من محصول عام ١٩٤٦ .

الفصل التاسع

الشعب

السكان :

يقدر إحصاء قامت به الحكومة — حديثا — عدد سكان إيران بـ ١٦,٥٥٠,٠٠٠ نسمة[١] منهم حوالى مليونين من القبائل الرحل أو نصف المستوطنة ، ويوجد حوالى ثلاثة ملايين فقط يسكنون المدن التى يزيد عدد سكان كل منها على عشرين ألف ساكن ، ويبلغ عدد سكان طهران العاصمة ٧٥٠,٠٠٠ نسمة[٢] بينما يبلغ عدد سكان تبريز ومشهد وإصفهان حوالى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة[٣] ، أما باقى السكان فمن الفلاحين ، وهم يسكنون فى ٤١,٠٠٠ قرية يبلغ عدد منازل كل منها خمسة عشر منزلا أو أكثر .

ومتوسط كثافة السكان فى إيران عشرين نسمة لكل ميل مربع : بينما يصل المتوسط فى الولايات المتحدة إلى خمسة وأربعين شخصا للميل المربع ، ويبلغ متوسط كثافة السكان فى صحارى إيران الكبيرة والجزء الجنوبى الشرقى أقل من عشرة أشخاص فى الميل المربع ، ويصل هذا العدد فى القسم الشمالى الغربى ، وعلى طول الساحل القزوينى ، إلى مائة نسمة للميل المربع . وقد تعرض سكان البلاد لانقراض شديد فى القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنهم الآن فى ازدياد مطرد وقد كانت هناك حركة هجرة كبيرة من القرى إلى المراكز الصناعية الجديدة ، وقد تضاعف عدد سكان طهران فى خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة .

(١) كان هذا وقت تأليف الكتاب أما الآن فقد قدر الإحصاء الذى أجرى فى العام الماضى السكان بأكثر من سبعة وعشرين مليونا .(المترجم)

(٢) يقدر عدد سكان طهران وفقا للإحصاء الأخير بما يقرب من مليونين نسمة(المترجم)

(٣) يزيد عدد سكان هذه المدن فى الإحصاء الأخير عن هذا الرقم كثيرا . (المترجم)

وينحدر سكان إيران من جماعة الآريين القدماء الذين وفدوا إلى إيران منذ القدم، فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد، ولا يعرف إلا القليل عن سكان إيران قبل الآريين، وهم الذين يذكرون باسم القزوينيين أو القوقازيين، ولكن ليس هناك من شك فى أنهم تزاوجوا مع الآريين واندمجوا فيهم، وقد دخل كثير من القبائل العربية البلاد خلال القرن السابع بعد الميلاد، واستقرت فى الشمال الشرقى وفى شرقى البلاد، كما أن القبائل التركية أو التورانية هاجرت إلى إيران فى أعداد كبيرة فى المده من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، وقد جعلت القبائل الرحل المسائل التى تتعلق بالجنس واللغة معقدة، فبعضهم يمكن أن نرجح أنهم كانوا يقيمون فى إيران منذ عدة قرون؛ معتمدين على ما يدل عليه التكوين الطبيعى لرؤوسهم (من الناحية الأنثروبولوجية). والآخرون قد جاءوا إلى البلاد فى خلال العهد الاسلامى، ولا يزال البعض يهاجرون أو ينتقلون من جهة فى البلاد إلى جهة أخرى، وبعض هذه الجماعات يتكلم لغات يبدو أنها مقتبسة لأنها لا تتفق مع جنسها الأصلى.

ويتكلم جميع سكان المدن والجماعات الزراعية اللغة الفارسية: وعددهم يتراوح بين نصف مجموع السكان وثلثيهم. ويتكلم خمس السكان لغة تركية تسمى «الآذرية»، وهم يسكنون الإقليم الشمالى الغربى من آذربيجان، وينتشرون بعد ذلك نحو الجنوب فى صورة مثلث كبير، وهى لغة ذات قواعد يسيرة، تضم كثيرا من الكلمات الفارسية، وقد تلقن عدد كبير من هؤلاء اللغة التى أعقبت الغزو المغولى أو وجدت بعد ذلك فى عصور متأخرة، ويبدو من الصعب أن تضع خطا يفصل بين العناصر التركية، والعناصر الإيرانية التى تتكلم الآن اللغة الآذرية، غير أنه من المحقق أن العنصر التركى يتألف من الأتراك الإيرانيين الذين انحدروا من آسيا الوسطى، وترتبط بينهم وبين الأتراك العثمانيين القاطنين فى الجمهورية التركية الحديثة قرابة يسيرة من ناحية الجنس.

ولذلك فإن سكان إيران يمثلون مجموعة الطوائف التى هاجرت إلى هذه البلاد، وبقايا الغزوات المتلاحقة، ولكن بينهم — فى الوقت نفسه — من

التجانس أكثر مما بين السكان فى البلاد الأخرى التى تساوى مساحتها مساحة إيران ، كما يوجد أيضا أساس للاتحاد الوطنى . والوعى القومى فى المجتمع الإيرانى المتماسك المترابط بفضل اتباع المذهب الشيعى ، وهذا الشعور له تأثير كبير فى الأدب الفارسى ، وفى الحضارة والعادات والتقاليد ، وفى أسلوب الحياة فى إيران .

و ٩٨٪ من السكان مسلمون ، و ٩٣٪ من هذا العدد شيعة ، و ٧٪ من السنيين ، وينتشر المذهب السنى بقوة بين الأكراد ، وتوجد جماعات من الأقليات قليلة نسبيا ؛ وقد كان الإيرانيون دائما متسامحين ، فلم يظهروا نحو الأقليات من الأجناس أو الأديان إلا تعصبا وتمييزا قليلين إذا ما قيسا بالأمم الأخرى ، ويوجد فى الشمال الغربى من إيران ٥٠,٠٠٠ أرمنى ، وهم — أيضا — تجار أغنياء فى المدن الكبيرة ، كما يوجد ٣٠,٠٠٠ من النصارى النسطوريين ، ويقطن اليهود فى المدن الكبيرة ، وفى بعض الجماعات الزراعية القديمة ، كما توجد فى إيران — أيضا — آلاف قليلة من البروتستانت والكاثوليك ، وتوجد مستعمرات من البارسيين ، وهم الإيرانيون الذين ما زالوا يدينون بالدين الزردشى ؛ وهم يقيمون فى يزد وكرمان ، وفى مجموعات قليلة فى طهران وإصفهان وشيراز ، وهم مشهورون كأصحاب بساتين وتجار .

والإيرانيون سمر ، ذوو شعر بنى غامق ، أو أسود ، وعيون بنية غامقة ، وهم ذوو طول متوسط وبنية متوسطة ، ويتدرج لون البشرة بين البياض الناصع والسمرة ، ولونهم العام شبيه بلون الإيطاليين أو اليونانيين .

القبائل البدوية

أهم الجماعات القبلية المشهورة فى إيران : الكرد ، واللور ، والبختيارية ، والقشقائية ، والشاهسوانية ، والعرب ، والبلوجية . وقد مالت بعض القبائل ومن بينهم الكرد والعرب إلى الحياة الزراعية المستقرة ، ولكن البدو الحقيقيين ما زالوا يلتزمون حياة الرعى ، ويقيمون اقتصادياتهم على القطعان الكبيرة من الغنم والماعز ، ويتكلم الكرد واللور والبختيارية لهجات يبدو أنها مشتقة من

الفارسية القديمة ، أو من أية لغة هندو — أوروبية قديمة أخرى ، ولا يزال العرب القاطنون إلى الشمال من رأس الخليج الفارسى يتكلمون اللغة العربية ، ويتكلم القشقائيون فى الجنوب الغربى ، وجزء من طائفة الخمسة — من جيران القشقائيين — والشاهسوانيون لهجة من اللغة التركية ، بينما يتكلم البلوجيون فى جنوب شرقى إيران لهجة من اللغة الفارسية . ويعد هؤلاء البدو ومجموعات أخرى أقل منهم عددا العنصر الوحيد الجدير بالتصوير من بين سكان إيران ، وهم يمثلون أروع نموذج لقوة الأجسام والشجاعة ، وهم دائما يغذون الجيش الإيرانى بأقوى رجاله ، ويعدون عموده الفقرى ، وقد انحدرت كثير من الأسر الحاكمة من رجال القبائل المحاربين .

وفى فصل المطر ، تتحرك القبائل البدوية إلى السهول المنخفضة الدافئة بالقرب من حدود العراق ، أو على سواحل الخليج الفارسى ، لتزرع الحبوب وفى الربيع ، يهاجر أفرادها مرة أخرى إلى السهول المرتفعة حيث تستطيع ماشيتهم أن تجد مرعى طيبا طوال فصل الصف ، ويتركون خلفهم بعض أفراد القبيلة لحصد المحصول . وقد تمتد الهجرات الموسمية إلى مسافة تزيد على مائتى ميل وقد تستغرق أسابيع ، ويمكن أن يحدد معدل التحرك بنسبة التحرك البطىء لقطعان الغنم والماعز التى يسوقها الرجال والصبية أمامهم ، بينما تركب النساء والأطفال فوق الرحال فى وضع قلق على ظهور الحمير والجمال ، وتنصب الخيام كل ليلة على طول جوانب الطريق ، ويستطيع الزائرون لإيران رؤية هذه القبائل فى وقت هجراتها فقط ، لأن مراكز إقامتها فى الصيف والشتاء بعيدة عن الممرات الجبلية التى يمر منها الزائرون .

وتكون عدة مجموعات أو عشائر من عائلة واحدة قبيلة صغيرة أو قبيلة كبيرة ، ويؤدى هذا بدوره إلى إيجاد مقاطعة مستقلة أحيانا مثل « البختيارية » التى تضم جماعات « هفت لنك[١] » و « جهار لنك[٢] » الكبيرة ، وللقبائل قانون خاص بها ، وهى تحكم حكما مطلقا بواسطة زعمائها المنتخبين أو الذين يرثون

(١) « هفت لنك » كلمتان فارسيتان معناها : « العشائر السبع » . (المترجم)
(٢) « جهار لنك » كلمتان فارسيتان معناها : « العشائر الأربع » . (المترجم)

الزعامة بالوراثة ، ويسمى كل منهم « خان[1] » ، وكثير منهم رجال ذوو ثقافة ممتازة ، فبعض زعماء القبائل فى الوقت الحاضر قد تلقوا تحصيلاتهم فى أوروبا ، بينما درس بعضهم الآخر فى كلية ألبرز بطهران ، وهم يمتلكون عادة منازل فى المدن أو فى أراضى القبيلة ، ولكنهم يمضون كثيرا من أوقاتهم فى الخيام بين الجماعات القبلية .

ويقضى أفراد القبائل حياتهم العائلية فى الخيام السوداء المصنوعة من شعر الماعز الذى تغزله نساء القبيلة ، وتقوم حيطانها الجانبية العمودية ، وسقفها المنحدر قليلا على قوائم سميكة ، ويمكن أن تنصب الخيمة أو تطوى فى وقت قصير حتى يسهل نقلها من مكان إلى آخر ، ويكون أثاث الخيام بسيطا للغاية ؛ فتفرش الأرض عادة بالسجاد الذى تنسجه النساء ، أو بواسطة فرش سميكة من اللباد ، وتكوم البطانيات بجوار إحدى الجوانب ، بينما توضع بجوار الجوانب الأخرى الأوانى النحاسية والقرب المملوءة بالسوائل ، والجرار الخزفية ، والجوالات المملوءة بالحبوب ، كما يوضع عادة صندوق خشبي للملابس .

وتعد قطعان الماشية عماد الحياة القبلية ؛ فهى التى تمنح اللبن ، والزبد ، والجبن ، وتستخدم أصوافها للمنسوجات القبلية بينما تباع الحيوانات وأصوافها فى المدن ، وتشتمل أراضى القبيلة — التى تشغلها فى الصيف غالبا — على البساتين والحدائق المملوءة بأشجار البندق التى تضيف جزءا آخر إلى الدخل النقدى للقبيلة . وتحرق جذور شجر البلوط للحصول على الفحم النباتى الذى يباع فى المدن ، وتستعمل القبائل العملة النقدية فى شراء الأشياء التى لا تنتجها القبيلة مثل السكر والشاى والمنسوجات القطنية والأسلحة والذخائر ، والجواهر التى تخلب أفئدة النساء وهى تشتمل عادة على الخواتم ، والنقود الفضية والذهبية القديمة ، وتمثل جميع الثروة التى تتجمع لدى أفراد الأسرة . ومن الممتلكات الأخرى القيمة فى القبيلة قطعان الخيل ، والبنادق ، ويجيد الرجال إصابة الهدف ، وهم فخورون جدا بأسلحتهم .

---

(١) « خان » بمعنى رئيس القبيلة أو الوالى . (المترجم)

ويقوم الرجال بالصيد : ورعى قطعان الماشية والخيول ، وتجمع النساء الوقود ، ويحملن جرار الماء ، ويقمن بالطبخ ، والحياكة ، والنسج ، ويعد تعدد الزوجات قليلا نسبيا فى القبائل ، كما أن النساء غير محجبات ، وتتركز الحياة الاجتماعية فى القبيلة حول خيمة الضيافة التى يقيمها زعيم القبيلة ؛ وهناك تؤدى الرقصات القبلية على نغمات الناى والطبل المثيرة ، وتغنى الأغانى ، وتروى القصص ، والأخبار ، وتتبادل الأحاديث والإشاعات ، ويدعى الأصدقاء والأجانب إلى رحاب الضيافة السخية فى خيمة الضيوف ، وتعين حدود القبيلة بعناية تامة ، وقد أوشكت المنازعات الداخلية فى القبيلة والحروب بين القبائل على الانتهاء فى السنوات الأخيرة .

وقد تقوم القبائل أحيانا ببعض أعمال قطع الطريق فى الممرات الجبلية ، ولكن هذه الأشياء تعد نوعا من التسلية أكثر منها عملا ثابتا رتيبا .

والمعروف عن القبائل يعد قليلا نسبيا ، وقد كانت العناية قديما تنحصر فى تحديد الأسماء الصحيحة لكل قبيلة ، أو بطن من قبيلة أو عشيرة ، وفى تقدير عددها . ولكن هذه المحاولات نفسها لم تكن ناجحة تماما ، لأن تقدير مجموع أفراد القبائل بمليونين ليس إلا تقديرا تقريبيا ، وقد بذلت عناية ضئيلة لدراسة معتقدات القبائل الدينية وقصصها الشعبية ، وخرافاتها ، وأغانيها ، وتفاصيل أساليبها فى الحياة ، وهى العادات الآخذة فى التطور أو الاختفاء ، كما يختفى كل قديم فى إيران ويعطى مكانه للجديد ، ورغم هذا فإن مجموعة صغيرة من أغانى هذه القبائل وقصصها قد جمعت وطبعت فى طهران ، كما أن المتحف الأوتوغرافى فى طهران يشتمل على عدد من الحجرات المخصصة للحضارة القبلية ، وقد نصبت فيها الخيام ، ووضع فيها الأثاث بصورة معبرة ؛ وهى تضم تماثيل للرجال والنساء بملابسهم العادية ، وبملابسهم الثمينة الزاهية التى تلبس فى الأفراح وفى أيام الأعياد .

وبين الجماعات القبلية ، والسكان المستقرين نوع من الشك المتبادل ، وقد حاولت الحكومة المركزية فى العهود القديمة ، كسر شوكة القبائل المسلحة

بتحويل جماعات بأكملها إلى الأراضى البعيدة من المواطن التى ألفت الإقامة فيها ، كما تخمد ثورات القبائل فى الوقت الحاضر بعنف ، وتبذل محاولات لإسكان البدو فى القرى التى بنيت حديثا .

ومسألة الحياة القبلية ذات أهمية حيوية بالنسبة لإيران الحديثة ؛ لأنه لا يستطيع شعب أن يتحد اتحاداً حقيقياً ، ما دام ثمنه يعيش على انفراد عن باقى الشعب ، هذا من ناحية ، كما أنه لا يبدو أن إسكان القبائل فى القرى يعد حلا مناسباً لهذه المسألة من ناحية أخرى ؛ لأن البدو لن يكونوا مستريحين سعداء منتجين ، وهم يعيشون هذا النوع الغريب عن طبيعتهم ، من الحياة فى القرى ، والواقع أن السبب الرئيسى للحياة البدوية إنما هو النقص الشديد فى الأراضى الزراعية الصالحة ، ولن توجد الأراضى الكافية لمعيشة البدو إلا بعد أن تعالج هذه الحالة بإيجاد مشروعات للرى ، وتوجد اقتراحات فى الوقت الحاضر تدعو إلى منح القبائل نوعا من التمثيل فى البرلمان ، وإيجاد إدارة حكومية خاصة تهتم بالمسائل القبلية ؛ كما يبدو منطقيا — أيضاً — وجوب تقديم نوع من المساعدات للبدو لتحسين ما شيتهم من حيث الكم والكيف لرفع المستوى العام للمعيشة فى بلاد يحتاج الناس فيها إلى مزيد من اللبن واللحم والصوف .

القرى والحياة القروية :

توجد الجماعات الزراعية العديدة فى إيران حيثما وجد الماء الذى يستعمل فى أغراض الشرب والرى ، وأينما وجدت الأرض الصالحة لزراعة الحبوب ، وتتجمع القرى حول موارد المياه فى الأقاليم التى تكون هذه الموارد بعيدة فيها ، ثم تأخذ هذه القرى فى الاتساع والرواج ، أما فى الأجزاء التى توجد فيها مجارى وينابيع وقنوات تخترق الجبال ، فإن المزارع الصغيرة تتناثر على مسافات تتراوح بين ميلين أو ثلاثة أميال فقط ، وتزين صفحة المنظر العام ؛ ويستطيع المسافر فى الطرق الرئيسية أن يرى الكثير من مثل هذه القرى ، ولكن العدد الأكبر منها يختفى فى الوديان الجبلية البعيدة ، كما يستطيع أن يرى القرى الخربة والمهجورة ، ويرى آثار الانهيار الاقتصادى ، الذى أوقف فى السنوات العشر الأخيرة فقط .

وتوجد على سواحل بحر قزوين منازل متباعدة مقامة فى وسط الحقول ، أما فى جميع أجزاء البلاد الأخرى ، فيعيش الفلاحون فى مستعمرات مكتظة مزدحمة ، ويعملون فى الحقول التى قد تقع على مسافة كبيرة من القرى ، وكانت جميع القرى مصانة من عصابات قطاع الطريق بأسوار عالية من اللبن تخترقها بوابة واحدة ؛ وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد قريب ، غير أن هذه الأسوار ليست ضرورية فى الوقت الحاضر ؛ فقلما ترى قائمة فى حالة جيدة . وتوجد فى كل قرية شبكة غير منظمة من الأزقة الضيقة التى ترصف أحيانا بالحصباء ، ويوجد عادة شارع رئيسى ، تجرى فى محاذاته قناة الماء التى تعد الشيء الذى لا غنى عنه لحياة القرية ، كما يوجد عادة ميدان فسيح فى كل قرية ، وهو عبارة عن مساحة مفتوحة مستديرة استدارة غير منتظمة ، تظللها أشجار ضخمة ، ويقع فى مواجهتها مسجد القرية ، أو قبة قبر أحد الأولياء المحليين ، وتوجد — فى حافة القرية دائما — الأرض التى تذرو الجماعة فيها محصول الحبوب .

وتقع على جوانب الأزقة الضيقة حيطان عالية من الطين تخترقها أبواب مزدوجة تؤدى إلى فناء كل منزل ، ويشتمل الفناء المثالى للمنزل على بعض الأشجار والأزهار ، وحوض يملأ بين الحين والحين من القناة التى تمر عبر القرية ، وهو يمد السكان بالماء اللازم فى جميع أغراض المعيشة ما عدا ماء الشرب . وتبنى بيوت القرية باللبن ، ويختلف طراز البناء باختلاف الأقاليم ؛ ففى المناطق التى يكثر فيها الخشب تصنع أسقف البيوت من دعامات خشبية متعارضة ومن حصر من القش وتكون مسطحة عادة ، وتسوى بعد كل مطر بواسطة أسطوانة حجرية توضع على سطح المنزل لاستعمالها فى هذا الغرض ، وتهيئ الأسقف المسطحة مكانا رطبا تستطيع الأسرة أن تنام فيه فى أثناء أشهر الصيف ، وفى أجزاء أخرى من البلاد ؛ تسقف المنازل بواسطة عقود مقببة أو قباب من اللبن ينشئها البناءون المحليون ، ويتخذون فى بنائها الطريقة القديمة فيبنونها ، دون عماد تستند إليه .

وتشغل المنازل عادة جانبا صغيرا من الفناء ، ويشتمل كل منها على ثلاث حجرات أو أربع ، ولكن المنازل الكبيرة تشغل جانبين أو ثلاثة من الفناء ،

وتتجه المنازل نحو الجنوب حتى يمكن لأشعة الشمس الدافئة أن تصل إلى الحجرات مباشرة فى فصل الشتاء ، وتوجد سدة على الأبواب لتحجب أشعة الشمس الحارة فى فصل الصيف ، حتى تظل الحجرات متمتعة بالظل طوال النهار فى أثناء أشهر الحرارة . وتشتمل أحسن المنازل على حجرة استقبال ، أو حجرة للجلوس يمكن أن تعرض فيها جميع شؤون الأسرة المهمة ، ويغطى السجاد — المنسوج محليا — الأرض ، وتوضع الألحفة والحشيات والوسادات بعناية فى تجويف فى الحائط ؛ ويوضع مصباح غازى فى مشكاة أخرى ، وتوجد دائما مرآة معلقة على الحائط ؛ كما توضع لوحات فيها صفحات كتبت عليها موضوعات دينية ، أو صور ملونة من المجلات الإيرانية والأوروبية ؛ ولا توجد كراسى أو مناضد أو أى أمتعة أخرى من أمتعة الأسرة ، وفى أوقات الطعام تفرش قطعة من القماش على الأرض ، ويجتمع رجال الأسرة حول الطعام الذى يوضع فى أطباق أو على صينية نحاسية كبيرة ، وفى وقت النوم تبسط الحشيات والمفارش ، ويأخذ كل واحد مكانه فى ساعة مبكرة .

وتشتمل المنازل الكبيرة على حجرة مقببة فى أسفل الجزء الرئيسى من البناء يظل هواؤها رطبا محببا حتى فى أواسط الصيف ، ويوجد فى فناء المنزل تنور مبنى من الآجر تخبز فيه نساء القرية أرغفة الخبز بالطريقة الإيرانية الخاصة — ويتم فيها الطبخ فى الأوانى النحاسية فوق مواقد بها فحم حجرى ، وفى ركن من الفناء توجد ترتيبات صحية يسيرة ، وهى تشبه ما يرتب خارج البيوت فى البلاد الأخرى ، وإذا كان لدى الأسرة ثوران أو حمار فإن هذه الحيوانات توضع فى جزء مستقل من الفناء ؛ وفى بعض الأقاليم يخصص الطابق الأول جميعه للحيوانات المستعملة فى الزراعة ، ويكون الطابق الثانى مخصصا لحياة الأسرة .

وتشتمل كل قرية على حمام ، ويضم بناء الحمام — الذى ينشأ بأموال مالكه — مجموعة من الحجرات تكون غالبا تحت الأرض ، وتبرز فتحاتها الزجاجية المتلألئة فوق سطح الأرض ، ويشرف على الحمام رجل يكلف بنظافته ، وبملاحظة توفير الماء الساخن فيه فى أثناء ساعات محددة كل أسبوع ،

ويستطيع القرويون أن يستحموا فى الساعات التى يفضلونها ، ويحاول كل منهم أن يعين خادم الحمام بالهبات من القمح أو القش أو الوقود أو الفواكه .

كما تشتمل كل قرية عادة على طاحون ، ويقوم محرك مائى فيها بإدارة حجر كبير فوق حجر ثابت ، ويطحن الطحان القمح والشعير للجماعة فى مقابل الحصول على جزء من الدقيق من كل قروى ؛ والمخازن والمدارس أقل ذيوعا فى القرى من الحمامات والمطاحن ؛ وقد يوجد دكان صغير فى كل سبع قرى أو ثمانى قرى وتنحصر مواد تجارته فى : السكر ، والشاى ، والطباق ، والأرز ، والتوابل ، والخيط ، والإبر ، والمسامير ، والملح ، وأدوات الصباغة ، والمنسوجات القطنية ، والكبريت ، والبترول ، وزجاجات المصابيح ، وما شابهها من الأشياء ، ولا توجد المدارس الابتدائية أو المكاتب إلا فى كل قرية من بين خمس وعشرين ، أو ثلاثين قرية ؛ والمشاكل الأساسية التى تعترض نشر نظام التعليم العام فى القرى هى :

(أولا) إن متوسط عدد الأسر فى القرية قليل ، مما يجعل مساعدة الأطفال فى زراعة الحقول ضرورة اقتصادية .

(ثانيا) إن منهج الدراسة العام فى المدارس المدنية قليل الصلة بالحياة فى الجماعات الزراعية . وتقوم بعض المنازل فى ضواحى القرى الكبيرة وسط البساتين والحدائق التى تشتمل على شجر الجوز ، ثم تبدأ الأرض الزراعية خلف أسوار القرية مباشرة ، ويحتفظ القرويون بأغنامهم وماعزهم الخاصة ، ويضمونها فى الصيف فى صورة قطيع للقرية كلها ، يرسلونه إلى الجبال للرعى فى حراسة شباب القرية ، وأغلب الغنم له ذيول تتفاوت فى السمن بحيث يبدو منظرها مضحكا إذا شوهدت لأول مرة ، وقد روى مسافر قديم إلى إيران قصة جديرة بالتصديق إذ يقول : « إن الأغنام ضخمة ضخامة عجيبة ، تجر وراءها ذيولا يبلغ وزن كل منها ثلاثين رطلا من الدهن ؛ وقد تكون فى كثير من الأحيان عوائق للأغنام ؛ فإذا لم تخصص عربات صغيرة لحملها : فإن الأغنام قد تتدحرج على الأرض وتجرح نفسها كلما مرت على حجر حاد أو مكان خشن من الأرض » .

والغذاء الرئيسى لأهل القرية هو الخبز وقد كان ثمن الرطل منه — فى عام ١٩٤٧ — ٣,٥ سنت[1] ؛ أو الأرز ، تبعا للجزء الذى توجد فيه هذه القرى من البلاد ، واللبن الرائب « ماست » والجبن والزبد المصفى (السمن) ، وينضم إلى غذائهم البسيط أحيانا البيض وصغار الدجاج وقليل من لحم الغنم ، والبصل ، والخيار ، والفجل ، والبطيخ ، والفواكه ، والبندق ، والشاى ، وإذا مخض اللبن الرائب بشىء من الزبد فإنه يكون شرابا وطنيا يسمى « دوغ » (اللبن الحامض) وقد تستدعى بعض المناسبات إعداد أطعمة أكثر تنميقا على نسق الأطعمة التى تعد — عادة — لدى سكان المدن .

وقد يلبس الفلاحون بعض نماذج معدلة من الزى الأوروبى ، ولكن الزى الوطنى يتكون من قميص من القطن ، وسراويل سوداء قاتمة أو زرقاء من القطن ، وسترة زرقاء طويلة من القطن ، وهو زى يلبس بينهم عامة ، وتلبس النساء سراويل سوداء — تضيق عند كعوبهن — وقميصا ، ويلففن أجسامهن بملاءة من قماش قطنى ، وتغطى هذه الملاءة الرأس فتصير غطاء للرأس وحجابا فى وقت واحد ، رغم أن نساء القرية لم يكن محجبات تماما كما كانت نساء المدن ، ويوجد تقسيم طبيعى للعمل ، فالرجال يزرعون فى الحقول ، بينما تعنى النساء بشئون المنازل ونسج السجاد ، ويرتب الزواج بين رؤساء الأسر ، وتعد حفلات الزواج من أبهج المناسبات فى حياة القرية ، ويقدم العريس المهر نقدا أو جنسا ، وتقوم أسرة العروس بإعداد الألحفة والملابس ومعدات المنزل الأخرى البسيطة .

وإن الفضائل الطبيعية والأخلاق التى يتمتع بها سكان القرى لجديرة بالامتداح إلى حد كبير ، فلديهم ذكاء فطرى حاد ، وميل طبيعى إلى الفكاهة ، وشغف عظيم بالعالم الذى حولهم ؛ وهم كرماء إلى حد كبير ، ميالون إلى الصداقة والمعاشرة وهم يضعون مواردهم اليسيرة تحت تصرف ضيوفهم المكرمين ؛ وحياة القرية منظمة جدا ، ومعظم المشاجرات بين الأفراد تنحصر فى المناقشات الحامية ، بينما تحل المسائل المهمة بواسطة عمدة القرية ، ولا توجد إلا سرقات قليلة داخل

(١) ٥ر٣ سنت تساوى فى ذلك الوقت سبعة مليمات بالعملة المصرية . (المترجم)

القرى ، كما لا توجد أية رذيلة من الرذائل التى توجد فى الحياة المدنية . ويبدو أن العامل الهدام فى حياة القرية هو الإدمان على تدخين الأفيون ، وقد كان الأفيون وسيلة للتخلص من المجهود اليومى الشاق ، غير أنه كان يعد أكثر أهمية — فى نظرهم — لتسكين آلام المرض ؛ لأن العلاج الطبى — من أى نوع كان — لم يكن متيسرا لهم .

وليس للقرويين إلا اتصال محدود بالعالم الخارجى عنهم ، حينما يسافر الرجال إلى المدن الكبيرة بأحمال القش والوقود ، والفواكه والخضر ، أو حينما تذهب الأسرة — فى أحيان قليلة — إلى المدينة لتشترى ما يلزمها من الأسواق .

وقد وضعت فصائل صغيرة من قوات الأمن التابعة للحكومة فى قرى معينة ، وهى تقوم بأعمال العسس وحفظ النظام وتضمن جمع الضرائب ، ولكن القروى العادى عامة يشعر أنه لا يستفيد كثيرا من الحكومة فى طهران .

ولا يوجد تمييز — فى الحياة القروية — بين ساعات العمل وساعات الراحة والتسلية ، ولا يوجد أى تنظيم للاستفادة من أوقات الفراغ كما يوجد فى الدول الغربية ، والحقيقة أنه يوجد وقت قليل للفراغ ، اللهم إلا إذا استثنينا فصل الشتاء . وتعد الأحاديث أهم وسيلة للتسلية والاستجمام ، وذلك حينما تجتمع طائفة من الرجال لاحتساء الشاى ، فيتحدثون عن الأحوال الجوية ويتبادلون الأخبار والأفكار ، وتساعد هذه الاجتماعات على تخليد القصص ، والأغنيات والأهازيج الموجودة فى الإقليم ، وبقاء حب الشعر — الذى يعد إحدى الخصائص المميزة للشعب الإيرانى — حيا فى نفوس الناس .

البلاد والمدن والحياة المدنية :

أغلب المدن الإيرانية من النوع الذى يبلغ متوسط عدد السكان فيه ٤٠,٠٠٠ ساكن ، وتقع المدينة على بعد حوالى ثمانين ميلا على طول الطرق الرئيسية ، وقد اختير أغلب مواقع هذه المدن فى هذه الأماكن لأنها كانت فى الأصل نقط تقاطع طرق التجارة الرئيسية المهمة ؛ وكان بعضها يستعمل نقط

تجمع وتوزيع للأقاليم الزراعية ، وقد اكتسبت كل من قم ومشهد أهميتها لأن كلا منهما تضم مزارا مقدسا يحج إليه عدد كبير من الزوار ؛ وقد اشتهر عدد كبير من هذه المدن لأن كلا منها كانت عاصمة للبلاد خصوصا فى العصور الإسلامية حينما كانت العاصمة تنقل من جهة إلى أخرى ، ومن هذه المدن : إصفهان ، ومراغة ، وتبريز ، وسلطانية ، وقزوين ، ومشهد ، وشيراز ، وطهران؛ وكانت بعض المدن مثل كرمان ويزد ودامغان مقراً لأهم الحكام المحليين .

وتعد كل مدينة شاهد صدق على برنامج الرقى والتحضر الذى تم تنفيذه فى عهد رضا شاه ، فقد شقت الطرق الواسعة المستقيمة فى الأحياء المزدحمة فى المدة من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٠ ، فساعدت هذه الشوارع على التخلص من التجمع الشديد فى المدن ، وهيأت مكانا لإنشاء الأبنية الحديثة ، غير أن الشوارع الجديدة أذهبت بعض جمال المدينة القديم فى قليل من الحالات ففى شيراز ، هدم السوق المقبب الجميل ، وخرب أحد القصور القديمة .

وتوجد فى جميع المدن مدارس ابتدائية وثانوية مشيدة حديثاً ، وهى مناسبة تماما لمواجهة الحاجات المحلية ، وتشتمل كثير من المدن على أبنية جميلة هى أبنية أفرع المصرف الأهلى الإيرانى ، ومن بين الأبنية الأخرى : المستشفيات وغيرها من المبانى الحكومية ، وتصطف الحوانيت فى الأبنية الجديدة ، وتهدف إلى اجتذاب النشاط التجارى بعيداً عن الأسواق القديمة ، وتوجد فى الأطراف مخازن بيع العلف التى أنشئت حديثاً ، ومحطة القوى الكهربائية ، ومحطة تخزين البترول ، والمصانع .

وتشتمل كل مدينة — مهما كانت مساحتها — على فندق أو أكثر ، وتكون الفنادق عادة صغيرة فيها معدات ، وأثاث يسير ، وحجراتها نظيفة ، والطعام فيها بسيط ولكنه جيد ، كما يوجد مكان على الأقل مجهز بالأدوات اللازمة لإصلاح كل من سيارات الركاب وسيارات نقل البضائع ، ويكون فى الوقت نفسه محطة للركاب . وفى بعض المدن ؛ توجد مبانى لنزول المسافرين هى خليط من الخانات القديمة التى كانت تنزل فيها القوافل ، ومكان لإصلاح السيارات

بالطرق الفنية الحديثة ؛ ورغم أن الحوانيت تصطف على طول الشوارع فإن جزءاً كبيراً من بيع القطاعى ، وجميع البيع بالجملة يتم تقريباً فى السوق ، وتتكون السوق أساساً من شارع واحد طويل ، يتراوح عرضه بين خمسة عشر وخمسة وعشرين قدما ، ويكون مغطى إلى نهايته بالقباب المبنية من الآجر حتى تتسنى للتجار وأصحاب الحيوانيت الوقاية التامة من حرارة الشمس وأمطار الشتاء ، وهو مرصع على جانبيه بالحوانيت الصغيرة ، التى يبلغ عرضها عادة خمسة عشر قدما ، ويبلغ طولها عشرين قدما . وتوجد على مسافات معينة بوابات واسعة تؤدى إلى أبنية تشبه الخانات المخصصة لمبيت القوافل ، ويوجد فى كل بناء منها فناء تحيط به — من جميع جوانبه — مكاتب ومخازن ، وتكون هذه المكاتب والمخازن فى الأسواق الأكثر جمالا مغطاة بقباب من الآجر . وهذه المبانى هى مقر تجار الجملة ، وتكون هذه الساحات عادة مكدسة بأكوام من السجاد والجلود ، وجلود الحيوانات ، وبالات القطن والمنسوجات ، وصناديق التوابل والبضائع الأخرى . ويقع مدخل السوق فى الميدان الرئيسى للمدينة ، وقد تواصل السوق امتدادها إلى مسافة ميل إلى أن تنتهى فى الجزء المزدحم بالسكان من المدينة ، وتسير السوق — غالباً — فى طريق ملتو ، وتشتمل الأسواق الكبرى على أفرع ثانوية موازية للشارع الرئيسى ، وفى الزوايا اليمنى له . وتملأ الحوانيت بكل من البضائع المحلية والمستوردة ، وتتم المبيعات بالمساومة أكثر مما تتم بأسعار محددة ، ومع هذا فإن كلا من التاجر وصاحب الحانوت يكون ملماً بالسعر الجارى لكل صنف ، ولكن استعمال طريقة المساومة يعد أمراً مستحباً للغاية عند كل من الطرفين .

والحمامات العامة فى المدن أكثر جمالا ورونقا من الحمامات الموجودة فى القرى ؛ فبعضها قد أنشئ حديثا ، ولكن الكثير منها شيد منذ أكثر من مائة سنة ، وتنخفض الحمامات القديمة عن مستوى سطح الأرض مسافة ثلاثين قدما حتى يتيسر للماء النقى النظيف أن يصل من القنوات التى تحت الأرض — أو من الآبار — إلى خزانات هذه الحمامات مباشرة . وترصف

أرض الحمامات بالقرميد الملون ، ويبطن أسفل الحيطان ، بالرخام أو المرمر ، ويطلى أعلى الحيطان وأسقف القباب بالملاط ، وتزين بالصور الملونة ، وتوجد — عادة — بين مجموعة الحجرات المعدة لمراحل التنظيف المختلفة قاعة فسيحة تستخدم كمكان عام للاستراحة وتبادل الأحاديث ، وهناك جمل قليلة من تقرير — عن حمام — كتب فى القرن الثامن عشر تعطى وصفا دقيقا له هى : « وتوجد فى داخل ردهة الباب مباشرة قاعة كبرى مسقوفة ، أو حجرة كبيرة جدا يخلع الناس فيها ملابسهم ، ويتركون ملابسهم بعد خلعها ، وفى وسط هذا المكان يوجد صهريج كبير من الماء البارد ، يخزن الماء فيه بواسطة عدة أنابيب من الماء ، وقد صممت جميع حجرات الحمام بحيث تكون مريحة ، وبحيث يستطيع كل واحد أن ينال ما يناسبه من درجات الحرارة ، لأن البعض يفضل الحمام الساخن ، بينما يفضل البعض الآخر الحمام الفاتر ، ويميل فريق ثالث إلى الحمام البارد ، وجميع الأرصفة من المرمر ويصب عليها ماء أكثر سخونة ، بينما تظل النار التى تحت سطح الأرض محتفظة بحرارتها بقدر المستطاع ، وهم يتمددون فى النهاية على هذه الأرضيات الرخامية ، حينما يشعرون أنهم مكثوا فى الحمام وقتا كافيا ؛ وحينذاك يأتى الحلاقون وتكون مهمتهم أن يدلكوا كل عضو ، وكل مفصل فى الجسم من الأمام والخلف ومن كل ناحية برشاقة وخفة ، بحيث يبدو لطيفا أن تراهم وهم يؤدون هذا العمل ، وهم فى نفس الوقت لا يتركون عضلة ولا عصبا ولا مفصلا سطحيا إلا حركوه ودلكوه » .

وتكاد البيوت فى المراكز السكنية المزدحمة تشبه فى تصميمها وإنشائها البيوت المقامة فى القرى ، أما البيوت التى يمتلكها الأغنياء فهى أكثر اتساعا ، كما أنها مبنية بالآجر ولكن الفناء المكشوف ، واتجاه المنزل نحو الجنوب ، ووجود ردهة أمام الباب ، مازالت العناصر الرئيسية فى التصميم ، وتوجد أفضل المنازل عادة فى ضواحى المدينة فى وسط الحدائق الواسعة ، كما توجد بعض العمارات الكبيرة الحديثة ذات الشقق الكثيرة فى مدينة طهران فى الوقت الحاضر .

ويعد لباس سكان المدن نتيجة للخطوات التى اتخذت لجعل البلاد عصرية . وقد صدر قانون فى عام ١٩٢٩ ينص على إحلال الزى فى الصورة الأوروبية ، محل الزى الفارسى القديم ، وبعد عام ١٩٣٥ ؛ أصبحت القبعات الأوروبية هى زى الرأس المختار . ويصنع اللباس على الطريقة الأوروبية ، والمعاطف والقبعات — من اللباد — فى الحوانيت الصغيرة بأعداد وفيرة . وكانت النساء يلبسن فى المدن قبل حكم رضا شاه ملاءات من قماش أسود تسمى « جادر » كانت تغطى الجسم جميعه ، وكانت تسحب فوق الرأس ؛ وتتخذ كالبرقع فتغطى جميع الوجه ما عدا العينين ، وكانت النساء اللاتى ينتمين إلى الطبقة الراقية يلبسن قبعة سوداء تبرز فوق عيونهن ، وقد ألغى الحجاب بعد عام ١٩٣٦ ، وبقيت الرأس دون غطاء ، أو أخذت تتوج بقبعة من النوع الأوروبى .

ومنذ عام ١٩٤٢ ؛ وجد ميل نحو ملاءة من القماش القطنى الملون تلتف حول الجسم وتحمل فوق الرأس ، ولكن هذه الملاءة لا تستعمل كحجاب ، ويوجد كثير من الخياطين والحوانيت التى تبيع ملابس النساء فى المدن ، مما يشعر بحاجة ماسة إلى مجلة للأزياء مثل Vogue وغيرها من المجلات المشابهة .

وتتمتع نساء الفرس بدرجة من الحرية والمساواة ، مازالت غير معترف بها لشقيقاتهن فى أغلب البلاد الإسلامية الأخرى ، وقد صدر قانون فى عام ١٩٣١ ، جعل الزواج على أساس مدنى أكثر منه على أساس دينى ؛ كما صدر قانون آخر فى عام ١٩٣٥ ، حدد السن الأدنى للزواج بخمس عشرة سنة بالنسبة للفتيات ، وبثمانية عشر عاما بالنسبة للشباب ، وهناك قوانين أخرى ما زالت تجعل للمرأة حق السيطرة على أملاكها الخاصة ؛ وما زال تعدد الزوجات — المذكور فى القرآن — موجودا فى إيران ، ولكنه يحارب فى العصر الحديث بوضع العراقيل فى سبيله فمثلا : لا يجوز للرجل أن يتزوج بامرأة ثانية قبل علم الزوجتين ورضائهما معا . والواقع عمليا أن تعدد الزواج آخذ فى التضاؤل ، وهذا يرجع إلى أسباب اقتصادية من ناحية ، كما يرجع إلى تغير حالة الناس من ناحية أخرى .

ويحظى الأطفال بحب والديهم بدرجة كبيرة تفوق حب أى شخص آخر ، ويفضل الذكور بصفة خاصة ، ولكن ليس بدرجة كبيرة جدا ، كما كانت فى العهود القديمة ، حينما كان ميلاد الأنثى يعد مناسبة للعزاء أكثر منه فرصة للتهنئة ، وقد نشأت هذه الحالة نتيجة لوضع المرأة المنحط ، اجتماعيا واقتصاديا رغم أن الإسلام قد أعطاها وضعا أعلى كثيرا من ذى قبل ؛ لأن الذكر كان أكثر أهمية بالنسبة للأسرة إذ أنه كان يتولى — فى وقت ما — إعالتها ، ولا زالت النساء يعوذن أطفالهن من العين الشريرة والضعف والمرض بالطقوس الخرافية والسحر ، ويصبح الأولاد مستقلين ، معتمدين على أنفسهم فى سن مبكرة جدا ، فيصيرون قادرين تماما على إدارة حانوت ، أو الاشتغال فى تجارة ، أو رعى قطيع من الأغنام فى الجبال المرتفعة .

وقبل الحرب ؛كان متوسط النفقات فى أسرة متوسطة يتوزع فى ميزانيتها كالآتى : الطعام ٥٦٪ ، والسكن ١٠٪ ، والوقود والإضاءة ٩,٦٪ ، والملابس ١٩,٤٪ والمصاريف المتنوعة ٥٪ .

أما الـ ٥٦٪ التى كانت مخصصة للطعام فكانت تصرف فى الصورة الآتية : الخبز ١٦,٥٪ ، والسكر ٨٪ والشاى ٢,٥٪ ، والزبد وزيت الطبخ ٥,٥٪ ، ولحم الضأن ٧,٥٪ ، ولحم صغار الدجاج ٤,٠٪ ، والأرز ٤٪ ، والخضراوات ١٪ ، والفواكه ٢,٥٪ ، والطباق ٢,٥٪ ، والجبن ١٪ ، والدقيق ٠,٥٪ ، والأشياء الأخرى ١,٥٪[1] .

وكانت نفقات المعيشة فى إيران منذ عشر سنوات منخفضة جدا[2] ، غير أن الصدمة التى أصابت الحرب العالمية الثانية البلاد بها قد أدت إلى تضخم هائل فى الأسعار ؛ ارتفع إلى درجة يصعب تصديقها ، وإذا اتخذنا سنة ١٩٣٦ أساسا ، فإن تكاليف الحياة إذا وضعت فى جدول تكون فى الصورة التالية : الأشياء

(١) يبلغ مجموع هذه الأشياء ٥٧٪ لا ٥٦٪ ومن المحتمل أن نسبة أحدها ليست صحيحة (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف عشر سنوات قبل تأليف الكتاب فى سنة ١٩٤٨ أى سنة ١٩٣٨ (المترجم) .

التى تساوى ١٠٠ فى عام ١٩٣٦ تساوى ١٤٢ فى عام ١٩٣٩ ، و ١٦١ فى عام ١٩٤٠ ، و ٢٤٣ فى عام ١٩٤١ ، و٤٧٦ فى عام ١٩٤٢ ، و ١٠٠٣ فى عام ١٩٤٣ ، و ١٠٣٠ فى عام ١٩٤٤ ، و ٨٨٢ فى عام ١٩٤٥ ، و ٨٠٠ فى عام ١٩٤٦ وأوائل ١٩٤٧ .

وهذه الأرقام تشير إلى نوع من المقارنة الطريفة بينها وبين أرقام نفقات المعيشة فى الولايات المتحدة ؛ ففى الولايات المتحدة ، كان يقابل هذه الأرقام : ٩٩ فى عام ١٩٣٦ ، و ١٠٠ فى سنة ١٩٤٠ ، و ١١٦ فى عام ١٩٤٢ ، و ١٢٥ فى عام ١٩٤٣ ، و١٣٩ فى عام ١٩٤٦ و ١٥٣ فى أوائل عام ١٩٤٧ .

وغذاء أهل المدن أكثر تنوعا إلى حد كبير من غذاء القرويين ، والأرز هو العنصر الرئيسى فى كثير من الوجبات ؛ وهو يطبخ فى إيران بحيث لا يكون نديا ولا لزجا بل منتشرا جافا ، ويكون فى مجموعه لذيذا ، والوصفة التالية التى تبين طريقة طبخ الأرز عند الفرس قد تكون ذات فائدة عامة ، وهى كالآتى :

غط رطلا من الأرز بالماء وضع ثلاث ملاعق كبيرة من الملح ، واغمسها فيه فى الليلة السابقة لطبخه .

صف الماء ، وضع الأرز فى وعاء متوسط الحجم به ماء يغلى ، وضعه فوق نار حامية ؛ وينبغى أن يكون الماء ملح المذاق بعد وضع الأرز ، وتستطيع أن تضع ملحا أكثر إذا لزم الأمر ، ودع الماء يغلى بشدة ؛ حتى تطفو حبات الأرز إلى السطح ، وفى ذلك الوقت يكون الأرز قد طبخ غالبا ، غير أنه لا يكون قد نضج تماما .

صف الأرز بمصفاة ، واغسله بماء ساخن نقى ، وضعه فى وعاء فوق نار ليست حامية ، وأضف إليه كوبين من الماء ، وثلاثة أرباع كوب من السمن ، ثم غطه ، ودعه يطبخ لمدة عشر دقائق على الأقل حتى تتكون قشرة فى قاع الإناء ، وحتى تتكاثف قطرات الماء على السطح الداخلى لغطاء الوعاء .

ارفع الإناء من فوق النار ، واثقب ثلاثة ثقوب فى الأرز بواسطة سكين ، وانثر فيه ثلاثة أرباع كوب من السمن ، وضع الإناء فى تنور منخفض الحرارة ،

ويفضل أن تكون الحرارة فى الإناء أكثر منها فى أسفله ، ويمكن أن يظل الإناء فى الفرن إلى الوقت المناسب لتقديم الأرز ، أى من خمس عشرة إلى ثلاثين دقيقة .

ويكفى هذا القدر طعاما لعدد يتراوح بين أربعة وستة أشخاص ،

وحينما يطبخ الأرز باللحم والخضر ، والتوابل يسمى « بلو » ويمكن أن تخلط أطعمة أخرى بالأرز المطبوخ ، أو أن يضاف إليه قدر من الصلصات ، ويقدم نوع منها عادة مع صغار الدجاج المحمر ، ويشتمل على اللوز والفستق وقشر البرتقال والبلح ، ويحتوى طبق آخر من الأرز على قطع من السمك المقلى المقدد ، خليط من قطع البقدونس ، والكرات والشمر والكزبرة ، وهناك نوع من الصلصة الشهية المزة مصنوع من قطع كبيرة من البط ، وعصير الرمان ، ولب الجوز المطحون .

والكباب — وهو قطع من لحم الحمل المحمر على السفود — من أنواع الطعام المحببة ، لدى الإيرانيين ، كما يوجد حساء محبب يسمى «آش» يشتمل على السبانخ وأفرع نبات البنجر الخضراء ، والحمص ، والفول والعدس ، كما يحتوى غالبا على اللبن الرائب (ماست) ، كما يعد البيض المقلى اللذيذ بحيث يشتمل على البقول والخضراوات .

وإصرار الإيرانيين على تناول الأشياء الحلوة أقل كثيراً من الإصرار الموجود فى بلادنا (الولايات المتحدة) ، ولكنهم يأكلون كميات كبيرة من الفواكه فى مواسمها الخاصة . والشمام والبطيخ الإيرانيان مشهوران منذ قرون عديدة ويوجد منهما عشرون نوعا على الأقل ؛ من بينها البطيخ العادى المألوف ، وإذا أقبل موسم الشمام فإن كل إنسان يبدأ فى أكله ، كما يثبت ذلك تقرير قديم ؛ فقد جاء فيه ما يلى : إنهم يأكلون فى ذلك الوقت ما وزنه عشرة أرطال أو اثنا عشر رطلا يومياً ، لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع متواصلة ، ويكون سبب أكله فائدته للصحة أكثر من استساغته فى الأذواق ؛ لأنهم يعدونه منقيا للدم وملوناً له ، وبعد ظهور بشائر الشمام يتوالى ظهور الأصناف المختلفة كل يوم ؛

غير أن ما يظهر من هذه الفاكهة فى النهاية أحسن مما يظهر منها أولا ، ويكون آخره ظهوراً ذا لون أبيض ، تستطيع أن تقسم أنه ليس إلا قطعة من السكر الخالص .

وتشتهر إصفهان — خاصة — بشمامها ، ويزرع فى منطقة صغيرة شمالى المدينة كثير من أنواعه اللذيذة ، وتكون لطيفة سهلة الانكسار بحيث إذا عدا فارس بجواده بجوار ثمرات الشمام فإنها تنشق وتتقطع فى المزرعة .

وفى أثناء القرن السابع عشر ؛ كان الشمام يرسل طول الطريق من إيران إلى بلاط حكام الهند فى أكره (Agra) فكان الرجال يحملون حباته ، فيحمل كل منهم سلتين فى كل منها حبة من الشمام ، تعلقان فى عريش خشبى يحمل على الكتفين ، ويسيرون ثمانين يوما حتى يصلوا إلى هدفهم المقصود ، وكان الشمام ذو القشر الجامد يخزن فى كهوف تحت سطح الأرض ، فيحفظ جيداً طوال أشهر الشتاء .

وما زالت أنواع الشربات محببة جداً ، ولو أنها أقل استعمالا الآن مما كانت الحال عليه سابقا . وكلمة « شربت »[١] الدالة على هذا النوع من المشروبات كلمة فارسية انتقلت إلى اللغة الإنجليزية انتقالا مباشراً ؛ وكانت المشروبات تعد فى صورة مشروبات مثلجة أو فى صورة مادة التركيب الأصلية مذابة فى ماء مثلج لذيذ ؛ وتصنع المشروبات غالباً من جميع الفواكه المحببة كعصير الرمان والليمون والموالح والبرتقال التى تجلب إلى الأسواق . وهناك شراب محبب — يصنع من زهرة البنفسج والخل — وعصير الرمان ، وعصير آخر يشتمل على الماء والسكر وعصير الليمون الحامض وقليل من عصير الثوم . كما يوجد شراب معروف خاص بالجو الحار ؛ وهو يصنع من الماء والخل والسكر وشرائح الخيار ، وفى العصور القديمة ؛ كانت هذه المشروبات تقدم فى سلاطين صينية ضخمة وترشف من ملاعق كبيرة ذات أياد منقوشة ، وكان صنع هذه الملاعق هو الحرفة التى تخصص فيها ناحتو الخشب فى مدينة آباده ، ولا تزال

---

(١) هذه الكلمة ليست فارسية أصلية كما يبدو من عبارة المؤلف ، فهى مأخوذة عن العربية (المترجم)

هذه الصناعة موجودة فيها إلى الوقت الحاضر ، وتوجد فى المدن الكبيرة آلات ميكانيكية لصناعة الثلج ؛ بينما توجد فى أغلب أجزاء البلاد ثلاجات محلية ، أهم مميزاتها حائط من الطين ارتفاعها عشر ياردات على الأقل ؛ وتقام فى اتجاه شرقى غربى وتفتح فى الجانب الشمالى من الحائط عدة فتحات مربعة . وتكون البرودة — عادة — كافية لتجميد بوصة أو اثنتين فقط فى أثناء الليل ، ويكثر الثلج المتجمع كل يوم ، ويضاف المزيد من الماء كل يوم ، بينما تمنع الحائط المرتفعة أشعة الشمس من أن تذيب الثلج فى أثناء النهار ، وبعد أسبوع أو نحو ذلك يصبح سمك كل قطعة من الثلج خمسة أقدام أو ستة ، فتنقل إلى مخزن خاص تحت سقف معزول جيداً بالألياف والغاب . ويستعمل الثلج فى وقت الصيف عامة ، وهو يجمع ثم يخزنه السكان فى القرى الجبلية العالية ؛ وحينما يقبل الصيف ، يحمل الثلج على الحمير إلى أقرب مدينة .

وسكان المدن يحظون عادة بتعليم أفضل ، وبمستوى اجتماعى أرقى من القرويين . وهم نتاج استمرار الحضارة فى البلاد خلال قرون طويلة ، وقد انتشر التجمل فى المجتمع إلى درجة كبيرة كما يبدو مما كتبه زائر لإيران فى القرن السابع عشر ، إذ يقول : « إن الفرس أكثر شعوب الشرق تحضراً ، وأكثر شعوب العالم تكريماً وترحيباً » .

وكتب مسافر آخر يقول : « إن تحيات الصداقة والمؤانسة لا تروج فى مكان أكثر من رواجها بين الفرس ، لأن العوام — الذين يبدون أجلافا شكسين فى البلاد الأخرى — يشاهدون فى إيران ودودين ، ذوى لطف فهم ليسوا أجلافا أو مشاكسين » .

وفى الحقيقة أن تقاليد الفرس فى الأدب والكرم ترجع إلى عهد قديم جداً ، فنحن نقرأ فى « العهد القديم » عن التسامح الذى أظهره الفرس نحو الأجناس والأديان الأخرى ، بينما سجل التاريخ أمثلة عن تصرفهم الكريم مع أعدائهم المهزومين ، فى وقت كانت القسوة الوحشية مألوفة فى العالم القديم . وقد نشأت عبارات التأدب الكثيرة من نص دينى قديم ، وهى غالبا تتنوع

تنوعاً لا حد له ، ولا يمكن طرح هذه التقاليد — التى تلقنها الناس فى الحديث — جانباً بسهولة ، ولذلك فإن الناس فى الوقت الحاضر — حتى الذين يقودون الثورة على الماضى ويخالفون تقاليده — يبدأون حديثهم بعبارات مثل « أعرض ملاحظة متواضعة » أو « يرى هـذا العبد أن » وقد تغيرت عبارة أنت وأنا « فى الفارسية » بعبارة هى : « هذا العبد وجنابكم » ورغم هذا ؛ فإن الأسلوب أقل تنميقاً منه فى السنوات السابقة القديمة ؛ فلكى يقال مثلا : « إن الرجل كان ميتاً » اعتاد المتحدث أن يقول : « لقد منح جزءاً من الحياة التى كان يملكها ، وإلا فقد كان من المحتمل أن يعيش سنوات كثيرة ، ولكن نظراً لما كان يكنه لك من حب فقد ضم هذه السنوات إلى السنوات التى سوف تعيشها » .

وهناك طريقة تقليدية لإظهار الاحترام والتأدب فى الفارسية ؛ هى استعمال ألقاب التعظيم والتشريف ؛ فإذا استعمل الشاه هذه الألقاب فى خطابه للقواد والنبلاء ، فإنه غالبا يستعملها بدل الأسماء الشخصية والألقاب المألوفة مثل « قوام السلطنة » و « ذكاء الملك » و « فخر الدولة » وهناك ألقاب أخرى — غير التى يستعملها الشاه — رائجة فى الاستعمال ، وقد صنف كتاب فى القرن السابع عشر يرتب الألقاب الخاصة بكل طبقة من الرجال ابتداء من الملك إلى صانع الأحذية . ومنذ سنوات قليلة صدر قانون يحرم منح هذه الألقاب واستعمالها ، ولكن أعضاء الوزارة والشيوخ من الأجيال السابقة مازالوا يعرفون بألقابهم .

ويصل النشاط الاجتماعى والجماعى إلى أقصى درجات انتشاره فى طهران . وتشتمل المدن الكبيرة التى يبلغ عددها خمس عشرة مدينة — تقريبا — على دور للعرض ، وتوجد فى طهران عشر دور للعرض فضلا عن كثير من المسارح ، وتشتق كثير من الروايات من « شاهنامه » الفردوسى ، ويكون بعضها الآخر تأليفا حديثا مبتكرا ، أو ترجمة ، أو اقتباسا من المؤلفات الغربية ؛ كما أن البرامج الموسيقية مألوفة فى طهران ، وتوجد فى المدينة فرقة سمفونية صغيرة لا تقوم بأداء القطع الكلاسيكية التى للمؤلفين الغربيين فحسب ؛ بل تؤدى القطع الإيرانية أيضا ، وهى القطع التى تقوم على الموسيقى الشعبية للبلاد ،

وهناك حفلات موسيقية تقيمها فرقة معهد الموسيقى ، أو بعض معاهد الموسيقى الأخرى .

وهناك أنواع معينة من التسلية كانت أكثر شهرة فى العصور القديمة ، وهى مازالت توجد فى الأحياء السكنية العتيقة فى طهران ، وفى المدن الأخرى ، فما زال الساحر يعقد حلقاته ، ومازال المنجم يستهوى رواده ، وهناك الحاوى الذى يقدم استعراضات ويعطى فيها — بطريقة عجيبة جدا — درسا علميا عن حياة أنواع الحيات والثعابين المختلفة ، وأسلوب معيشتها .

وكان الدراويش فى ملابسهم الخاصة ، يشاهدون كثيرا إلى عهد قريب — منذ خمس عشرة سنة — ؛ ثم قررت السلطات الحاكمة أنه لا محل لهم فى الحياة الحديثة ، فمنعتهم من دخول المدن ، ولكنهم بدأوا الآن يظهرون من جديد . وكلمة درويش كلمة فارسية معناها «متواضع» أو «فقير» أو «الشخص الذى يعيش على الصدقات» . ويشبه الدراويش فى الحقيقة الرهبان المسيحيين ، وهم مقسمون إلى فرق دينية كثيرة ، لكل فرقة منها معتقداتها ، وقوانينها . ويعيش الدراويش فى إيران حياة هائمة أكثر من حياة الدراويش فى الأقطار الإسلامية الأخرى ، وهناك أقلية منهم من الرجال المتدينين جدا الذين أخذوا عهودا على أن يعيشوا فى فقر وعفة ، ولكن الأغلبية منهم يعيش أفرادها على التحايل ، وعلى سرعة تصديق العوام لهم . ويتكون زيهم العادى من عباءة طويلة ملفقة من رقع ذات ألوان كثيرة فى الأقمشة (دلق) ، تحزم من وسطها بحزام من الحبل ، تتدلى منه حبات مسبحة خشبية ، ويضعون على أكتافهم جلد نمر أرقط أو جلد ذئب مبطن ، وعلى رؤوسهم طاقية موشاة بآيات قرآنية ، ويتدلى شعرهم المجدل على أكتافهم ، وتكون أقدامهم عارية غالبا ، ويعلقون على كتفهم بوقا ، ويحملون سلاحا لحماية أنفسهم من الحيوانات المفترسة ، وكانوا يحملون عادة بلطة من الصلب — من النوع الذى يستعمل فى الحروب — أو هراوة خشبية مرصعة بالمسامير ، وسلطانية كبيرة للشحاذة مصنوعة من قرعة مجوفة مزينة بالنقوش الجميلة .

وعندما يدخل الدراويش قرية أو مدينة ينفخون فى أبواقهم نفخة قوية ويصيحون « يا حق ، يا حق » ثم يظهرون كل ما عندهم — مما تخصصوا فيه — للفت الأنظار والحصول على الهبات من الطعام والمال ؛ ويدّعى بعضهم أن لديهم خبرة طبية ؛ ويبيعون « حبات السرور » وهى مكونة من الحشائش الممزوجة بتراب من أرض المزارات المقدسة . كما يبيعون أيضا الأحجبة والطلسمات ، وهى عبارة عن قطع من الورق تشتمل على آيات دينية تساعد على إبعاد العين الشريرة ، وتمنع المرض والأذى ، كما يقرأون الطوالع مستعملين حيلا مختلفة ، أشهرها نرد واحـد من النحاس ، يمكن أن يكون أربعة تربط معا فى سهم من المعدن — بحيث تكون منفصلة عن بعضها البعض — لتعطى أربعة أرقام متحدة كل رقم منها له تفسير خاص ، كما يقص الدراويش قصصا على الجموع المحتشدة حولهم . والشعر الفارسى هو ميدان تخصصهم وهم لذلك يحفظون أحيانا مئات الأبيات من الشاهنامه كما يحفظون مختارات من أشعار حافظ وسعدى .

ونادى المصارعة « زورخانه » مؤسسة إيرانية قديمة ، وقد استمر هذا النوع من الرياضة فى الازدهار فى كل من طهران والأقاليم ، ويشبه نظام هذا النادى نظام جمعية للتربية البدنية ؛ وينحدر أعضاؤه من كل مهنة ومستوى اجتماعى ؛ ومن المعتقد أن نادى المصارعة نشأ منذ عهد قديم ، حينما كانت إيران محتلة بالأجانب ، وكان شباب البلاد يدربون فى الخفاء انتظارا لليوم الذى يصيرون فيه قادرين على طرد الغزاة . ويشتمل كل ناد للمصارعة على حفرة مربعة طول ضلعها عشرون قدما ، وعمقها ثلاثة أقدام ، وعلى رصيف مرتفع للضاربين على الطبول ، وعلى ساحة للنظارة ، ويدخل اثنا عشر رجلا — لابسين سراويل قصيرة بهيجة موشاة تصل إلى ركبهم — الحفر ، ويستعدون لمصاحبة دقات الطبول المثيرة ، وغناء أشعار من الشاهنامه ويقومون بتمرينات جماعية ، ويلعبون بالدبابيس الهندية الكبيرة الثقيلة جدا ، ويقفزون إلى ارتفاع شاهق فى الهواء ويدورون ، والأساس العسكرى الذى يقوم عليه نظام نادى المصارعة تثبته التمرينات التى تؤدى بالدروع الخشبية ، والأقواس الحديدية ذات الحلقات

المصنوعة من الحديد بدل الأوتار ، وتعد مباريات المصارعة التى تجرى على الطريقتين الإيرانية والأوروبية نهاية كل اجتماع وغايته .

ومحلات إعداد الشاى والمقاهى هى الأماكن العامة المحببة التى يجتمع فيها الرجال لاحتساء الشاى ، وتبادل أحاديث المودة ، ولعب النرد ، وتدخين النرجيلة . والشاى هو المشروب الإيرانى المحبب ، وهو يقدم فى أكواب زجاجية ومعه كثير من السكر ، رغم أن الشارب يضع قطعة من السكر بين أسنانه ويمتص الشاى من خلالها ، ويبدو أن عادة شرب الشاى قد انتقلت إلى إيران من روسيا — حديثا نوعا ما — لأن الإيرانيين كانوا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يشربون قدرا كبيرا من القهوة التى لم تكن معروفة للغرب إلى أن اكتشفها المسافرون الأوروبيون فى تركيا وإيران ، وفى عام ١٦٥٢ م بدأ مستر د . ادوارد (Mr. D. Edwards) — الذى كان تاجرا يتعامل مع تركيا — يلقب نفسه برجل القهوة ، وبدأ يستورد حبات البن إلى انجلترا ، حيث أصبح شرب القهوة عادة مستحدثة مألوفة ، وقد كتب إنجليزى زار المقاهى فى إصفهان فى عام ١٦٢٧ — يقول : « القهوة مشروب أسود كالهباب ، وهى أشبه بالمرق وتراهم يشربونها ساخنة بقدر ما تتحملها أفواههم فى فناجيل صينية صغيرة ، وهى ذات رائحة قوية ، كما أنها مرة بعض الشىء ، وهى تعد من مسحوق حبات البن ، الذى يغلى فى الماء ، وإذا شربت ساخنة فانها تريح الذهن ، وتساعد المعدة الكسولة ، وتعاون على الهضم ، وتطرد الخمول والنوم ؛ وهى تبدو غير مستساغة فى الذوق فى البداية . ولكنها تصبح ممتعة لذيذة بالتعود » .

وتحل المقاهى فى طهران محل أماكن الشاى فى غيرها من البلاد ، وهى تقع فى حدائق غناء ، تزدحم بعد الظهر بالمجموعات العائلية التى تجلس لتشرب القهوة والشاى ، والمشروبات المثلجة ، واللبن المثلوج (Ice cream) والفطائر ، وتوجد المطاعم بطبيعة الحال فى كل مدينة ، ولكن الأسر الإيرانية تفضل الأكل فى منازلها .

ومن أهم تسليات الأسر المألوفة القيام برحلة إلى الريف فى أيام الإجازات ، والإجازة الأسبوعية للمسلمين يوم الجمعة ، وفيه تحمل الأسر غذاء مناسبا

للرحلات ، وتذهب — بالقطار أو السيارة أو سيرا على الاقدام — إلى حديقة ظليلة بالقرب من حدود المدينة ، وهناك عطلات رسمية عامة يبلغ عددها خمس عشرة عطلة ، جميعها ذات طابع دينى ماعدا العطلات التى تكون بمناسبة ابتداء السنة الجديدة ، وعيد ميلاد الشاه ، والعيد السنوى للدستور .

ويقع النوروز — الذى هو بداية السنة الجديدة — فى ٢١ مارس ، وهو أول أيام الربيع وبداية الاعتدال الشمسى فى الربيع ، وقد احتفل الإيرانيون بحلول الربيع منذ عدة قرون . كما تدل على ذلك صفوف من النقوش المنحوتة فى برسبوليس ، فهى تشير إلى جماعات من الشعوب من جميع أنحاء الدولة الأكمينية القوية تحضر الخراج للملك الإيرانى فى مثل هذه المناسبة .

وتبدأ الاستعدادات للنوروز قبل حلوله بكثير ؛ فقبل العيد بخمسة عشر يوما تنبت كل أسرة فى سلطانية قليلة الغور حبوبا من القمح أو العدس حتى تنتج عنها — فى الوقت المناسب — عدة أغصان يصل ارتفاعها إلى عدة بوصات ، لتكون شاهدا على مجىء الربيع ، وتتحول القرى الصغيرة فى عيد النوروز إلى مناظر بهيجة ؛ ويتجول الرجل الذى يحمل البخور (يحرق النار) فى الشوارع مصحوبا بجماعة من العمال المقنعين يلبسون قبعات طويلة وعباءات ذات ألوان مختلفة ، وقد ربطت بها أجراس صغيرة ؛ وقد تضم الجماعة بهلوانا يمشى على الحبل ، ومصارعا ، وقردا مدربا ، ودبا يجيد الرقص ، ويضرب واحد منهم لوحين من الخشب ، وينشد :

قد جاء مشعل النار ، وهو يجىء مرة فى العام
أنا مشعل النار وأنا يتيم ، أنا فقير يوما واحدا كل عام
لقد خرجت الأحشاء والأمعاء ، وقد جاء كل من لم يكن هنا

ويقام عيد خاص فى آخر يوم من أيام الأربعاء فى العام المنصرم ، ويسمى هذا اليوم « جهار شنبه صورى[1] » ، وقد جرت العادة أن تجهز كل أسرة فى مساء ذلك اليوم حزما من الخشب الجاف أو الأعشاب الصحراوية ، وأن

(١) « جهار شنبه صورى » معناها يوم الأربعاء الصورى أو الأخير . (المترجم)

تشعل نارا للزينة ، ويقفز كل فرد فى المنزل فوق شعلة النار بينما يخاطبون النار بهذين البيتين :

خذى الصفرة منى ، وأنا آخذ حمرتك
وخذى البرودة منى ، وأنا آخذ منك الدفء

ولا ينبغى أن يتنفس فوق النار ، وتنشر مخلفاتها فى مفترق الطرق ، ولا شك أن هذه العادة ليست إلا إحياء للشعائر التى كانت مستعملة منذ أقدم العصور .

ويمنح الخدم فى المنازل وصغار موظفى الدولة مرتب شهر إضافى بمناسبة النوروز ، وينظف المنزل جيداً ، فيصبح فى أبهى صورة ، ويلبس كل إنسان ملابس جديدة . وينبغى أن تضاء كل حجرة فى المنزل فى ليلة رأس السنة الجديدة ، وأن تعد منضدة خاصة ، توضع فى الجزء الأوسط منها مرآة وشمعدان ، وتوضع حولها نسخة من القرآن وقطعة كبيرة من الخبز ، وسلطانية من الماء تطفو فوقها ورقة خضراء ، وكوب من ماء الورد ، وحبات من البندق ، وفاكهة ، وحلوى ، وبيض ملون ، وكتكوت ، وسمك ، وطبق كبير أو صينية عليها « هفت سين » وهى سبعة أشياء يبدأ اسم كل منها بحرف « س » الفارسى مثل : سبند[1] ، وسيب[2] ، وسير[3] ، وسركه[4] ، وسمن[5] ، وسبزى[6] ، وسماق[7] .

وحينما يقترب وقت الاعتدال الشمسى يجتمع جميع أفراد الأسرة حول المنضدة لينتظروا اللحظة التى يبدأ فيها للعام الجديد ، ويقال إنها تعلم بتحرك الورقة على سطح الماء أو بدوران بيضة توضع فوق المرآة ، وفى المدن الكبيرة

المترجم : معنى هذه الكلمات كالآتى :

(١) « سبند » كلمة فارسية معناها « بخور » أو « نبات صحراوى (نبات السذاب) » .
(٢) « سيب » « » « » « تفاح »
(٣) « سير » « » « » « ثوم »
(٤) « سركه » « » « » « خل »
(٥) « سمن » « » « » « ياسمين »
(٦) « سبزى » « » « » « خضرة »
(٧) « سماق » : السماق .

يطلق مدفع كبير ليعلن بدء السنة الجديدة ولا يجرى الآن جميع هذه المراسيم والاحتفالات الخاصة بالنوروز فى المدن ، ولكن الأشياء التى ستذكر فيما يلى هى التى تراعيها كل أسرة :

تبدأ السنة الجديدة بإجازة رسمية لمدة خمسة أيام تخصص للزيارات الاجتماعية ، وفى اليومين الأولين أو الثلاثة أيام الأولى يبقى أكبر أفراد الأسرة سنا فى المنزل ليستقبل الزائرين من الأصدقاء والأقارب ؛ وتنفق مبالغ كبيرة فى إكرام الضيوف ، ثم تؤدى زيارات ردا على الزيارات الأولى ، ويكون جو هذه الأيام جوا من الابتهاج والفرح .

وفى اليوم الثالث عشر من السنة الجديدة — وهو يعد يوما منحوسا — تلقى أصص النباتات الخضراء التى زرعت فى المنازل فى الشوارع — وفى الماء الجارى إذا أمكن — ويخرج كل فرد إلى المناطق الخلوية ؛ ليقوم بنزهة فى الحقول الخضراء النضرة ، وتحمل كل أسرة معها نوعا من أنواع الطعام المنمق بقدر ما تسمح به مواردها ، وتمضى طول اليوم خارج المنزل . ويعتقد الناس أنهم بهذه الطريقة لا يحتفلون بالربيع فحسب ، بل يحملون الحظ السيء المقترن باليوم الثالث عشر بعيدا عن منازلهم ، ويتركونه فى الخلاء حيث لا يستطيع أن يسبب أى أذى ، وتنشد الفتيات الصغيرات فى هذا اليوم أشعار الحظ الحسن ، وهى :

إن قضاء اليوم الثالث عشر فى الخلاء فأل جميل .
فقبل مجىء العام التالى
سيجلب لى زوجا عزيزا
وطفلا جميلا أحمله بين ذراعى

وتشرف على أوجه النشاط الاجتماعى نواد وجمعيات من مختلف الأنواع ؛ ففى طهران توجد نواد للسيدات ، وجمعيات أدبية ونواد رياضية ومجموعات موسيقية ، كما — يوجد — أيضا — عدد من التنظيمات الخيرية مثل « جمعية الأسد والشمس الحمراء[١] » وهى الجمعية الإيرانية المشابهة لجمعية « الصليب الأحمر » .

---

(١) اسم هذه الجمعية بالفارسية « جمعيت شيروخورشيد سرخ » . (المترجم)

والميل العام إلى الأدب قوى ، وقد كتبت بعض الآثار الجميلة فى القصة القصيرة والرواية — وهى نوع لم يمارس إلا نادرا — فى الكتابة الفارسية حتى الآن .

وتتبع الكتابة فى الوقت الحاضر اتجاهين جديدين : الأول الابتعاد عن الأسلوب المنمق التصويرى الذى كان مستعملا فى الآثار القديمة ؛ والثانى إقامة الدليل على التطور الجديد للغة الفارسية بتحويلها إلى فارسية نقية .

وفى عام ١٩٣٧ ؛ قام المجمع اللغوى الإيرانى بدراسة لغة البلاد ، فوجد أن كلمات عربية كثيرة قد استقرت فى اللغة الفارسية خلال القرون الماضية ، بحيث أصبحت هذه اللغة تضم — فعلا — كلمات عربية أكثر مما تشتمل على كلمات فارسية ، فقد وجد الكتاب أنهم يستطيعون أن يؤثروا فى عدد أكبر من الناس إذا كتبوا باللغة العربية ، وكانت هناك — أيضاً — الحقيقة القائمة ، وهى أن معرفة اللغة العربية وسيلة لإظهار اللوذعية وسعة الاطلاع .

ولا تشتمل الآثار التاريخية وغيرها من الكتب التى وضعت فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين (الرابع والخامس الهجريين) إلا على ٥٪ من الكلمات العربية ، بينما كان المؤلفون واسعى الاطلاع فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ، فكانوا يستعملون كلمات عربية تصل إلى ٩٠٪ . وقد أشار المجمع اللغوى إلى أن اللغة ضعيفة فى الاصطلاحات الفنية ، وأنها تقتبس كلمات أوروبية فيما يتعلق بموضوعات مثل : الميكانيكا والطيران ، والهندسة والكيمياء وعلم النبات وعلم الصحة وعلم الطب وتبقيها كما هى دون تغيير . وقد أكد المجمع اللغوى أنه توجد كلمات فارسية فصيحة تقابل جميع الكلمات العربية على نطاق شامل تقريباً . وقرر أن يواجه جميع هذه المشاكل بنشر كتيبات دورية تضم قوائم بالكلمات الفارسية الفصيحة لتحل محل الكلمات العربية ، وتشتمل على اصطلاحات فنية تعتمد على أصول فارسية صحيحة ، وقد تحقق تقدم مطرد فى تنفيذ هذا البرنامج ، وأصبح للكتابة النثرية أسلوب سهل واضح ، كما صار للشعر — الذى لم تغزه اللغة العربية غزواً تاما — أسلوب يشبهه فى الوضوح والسهولة .

وتطبع فى إيران مائتا جريدة ومجلة على الأقل . وتعد طهران مركزاً لنشرها ، حيث يوجد البرلمان والمصرف الأهلى الإيرانى ، وتوجد وسائل حديثة معدة جيداً لطبع الصحف وتلقى الأنباء ، وتحصل الصحف والدوريات على رخصاتها من إدارة بوزارة التربية والتعليم ، وتستطيع هذه الإدارة — أيضا — أن تلغى هذه الرخصات ، كما أن الحكومة قد تصرفت أحيانا تصرفا مباشراً فى إيقاف بعض الصحف ، ولا يبدو أن القوانين الحالية تكفل حماية كافية فى حالات القذف والافتراء .

وهناك جريدة يومية مسائية تصل صفحاتها إلى ست عشرة صفحة[(١)] ، ولكن أغلب الصحف تقع فى أربع صفحات من حجم أصغر من مستوى حجم الصحف الأمريكية ، ويعد كثير من الصحف أدوات تعبر عن الآراء الشخصية — السياسية أو الاجتماعية — لأصحابها أو لمحرريها ، وتكون — عادة — قصيرة الأجل سريعة الزوال ، وتخصص الصحافة الإيرانية أغلب صفحاتها لنشر الأنباء الخارجية أكثر مما تفعل الصحافة الأمريكية ، وتكون هذه الأنباء — غالبا — ترجمة للأخبار التى تذيعها محطات الإذاعة فى الدول الأجنبية ، كما أن العرض السياسى للحوادث الجارية يكتب بإسهاب ، بينما تخصص مساحة قليلة للأخبار المتصلة بالأفراد ، أو للقصص الإنسانية الممتعة ، ولم تغز طريقة التبويب الحديثة الصحف الإيرانية اليومية بعد .

وانتشار الصحف ليس أمراً محقق الربح فى إيران ، بل هو نوع من المغامرة الباهظة ، لأن نسبة توزيع أغلب الصحف أصغر من أن تغل دخلا كبيراً ، كما أن عدد الإعلانات يعد قليلا نسبيا ، وترتب مواد الطبع باليد لأن آلات اللينوتيب الإيرانية لم تبدأ عملها بعد ، كما أن جميع أدوات الطباعة يجب أن تستورد من الخارج[(٢)] .

---

(١) أغلب الظن أنه يقصد جريدة « اطلاعات » وهى تطبع الآن فى عشرين صفحة ، وهناك جريدة « كيهان » وهى تطبع فى ست عشرة صفحة ، وجريدة « بست تهران » وهى تطبع فى اثنتى عشرة صفحة . (المترجم)

(٢) يعد هذا تعريفا بالصحافة الإيرانية فى سنة ١٩٥٠ ، وقد تقدمت الصحافة الإيرانية فى تبويبها وطباعتها ، والأعداد التى توزعها بعض الصحف والمجلات تقدما ملحوظا لاتنطبق عليه هذه المعلومات . (المترجم)

وتسمى وكالة الأنباء الرسمية التابعة للحكومة « پارس » ؛ وهى تنشر الأخبار عن الصحافة الأجنبية ، وتذيع الأنباء المحلية فى الخارج على نطاق واسع عن طريق الموجة المتوسطة براديو طهران .

وقد أنشئ اتحاد للصحافة الإيرانية فى يونيه من عام ١٩٤٦ م ، ارتبط بعد ذلك باتحاد الصحافة الأجنبية فى إيران ، ثم اشترك — منذ ذلك الوقت — فى التنظيم الدولى للصحفيين .

ويوجد عدد يتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين نشرة من النشرات الدورية تنشر فى إيران بانتظام ، وهى: الجرائد الرسمية لأفرع الحكومة المختلفة ، والدوريات الأدبية ، والجرائد العلمية ، والمجلات الزراعية ، ومجلات السينما ، ومجلات الأطفال ، ومجلتان للنساء ، ومجلات تشتمل على موضوعات محببة إلى الذوق العام ، ومن هذه المجموعة مجلة « خواندنيها » (مطالعات) التى تعد أوسع المجلات انتشاراً وتوزيعا ، وهى مجلة أسبوعية على غرار مجلة (Reader's Digest) وهى تعيد طبع مقالات نشرت فى الصحف والدوريات المحلية والأجنبية ، وتخصص جزءاً كبيراً من صفحاتها للترجمات التى تنقلها عن المجلات الأمريكية .

* * *

الدين الرسمى فى إيران :

يعتنق ٢٢١،٠٠٠،٠٠٠ [1] الإسلام بأركانه الأساسية الخمسة ؛ والإسلام — كما ورد فى القرآن — قد أنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعنى الخضوع لإرادة الله ، وأركانه الخمسة هى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلوات الدينية الخمس كل يوم ، والصوم من شروق الشمس إلى غروبها فى أثناء شهر رمضان [2] ، وأداء الزكاة المفروضة ، والحج إلى بيت الله فى مكة .

---

(١) هذا إحصاء قديم وتدل الإحصاءات الحديثة على أن عدد المسلمين فى العالم يزيد على ستمائة مليون نسمة . (المترجم)

(٢) عبارة المؤلف ليست دقيقة لأن الصوم يكون من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كما يوضحه قوله تعالى: « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل » سورة البقرة آية ١٨٧ (المترجم) .

وقد ورد الحديث عن تاريخ ظهور الإسلام وحالة هذا الدين فى إيران فى قسم آخر ، وينبغى أن تركز العناية — الآن — على أصل الشيعة ، ونموهم ، ومعتقداتهم ، لأن ٩١٪ من سكان إيران ينتمون إلى هذا المذهب الذى له أتباع — أيضا — فى سورية والعراق وأفغانستان والهند .

وقد توفى أبناء محمد فى أثناء الطفولة ، وكانت ابنته فاطمة — التى تزوجت عليا — هى الابنة الوحيدة التى أنجبت له وارثين من الذكور ، وكان ابنا علىّ منها يسميان الحسن والحسين .

وبعد وفاة الرسول ؛ ظهرت فجأة مسألة خليفة الرسول ، والزعيم الدينى لهذا الدين الجديد ، وقد وقع الاختيار على أبى بكر الذى ولى الخلافة فى السنتين التاليتين — من ٦٣٢ إلى ٦٣٤ م (١١ — ١٣ هـ) — ثم خلفه عمر الذى قتل فى عام ٦٤٢ م (٢٣ هـ) ، ثم خلفه عثمان الصهر الآخر المسن لمحمد . وثار السخط على عثمان فى كثير من أنحاء الدولة ، وبدأ أحد صحابة محمد المحترمين ، وغيره من أصحاب النفوذ يدعون لعلى وحقوق أسرته فى الخلافة وتولى الزعامة الدينية . وفى عام ٦٥٦ م (٣٦ هـ) قتل عثمان ؛ وتولى على الخلافة ، فرفض معاوية — والى سورية وابن عم عثمان — الولاء له ، فاشتعلت الحرب بينهما . وفى عام ٦٦١ م (٤٠ هـ) قتل على بيد أحد أفراد طائفة أخرى معادية ؛ وبعد موته ، اختار الشيعة — أو المشايعون لأسرة على — ابنه الحسن خليفة له ، ورغم هذا فإن معاوية تولى السلطة ونقل العاصمة من المدينة فى بلاد العرب إلى دمشق ، وقد عرفت أسرته باسم « الأمويين » ؛ وقبل وفاته عين ابنه يزيد خلفا له ، ولكن الحسين الأخ الأصغر للحسن اضطر إلى المطالبة بحقه المشروع فى الخلافة ، ولكنه حوصر هو وطائفة صغيرة من أتباعه المخلصين فى سهل كربلاء بالعراق ، وبعد مدة عشرة أيام ، قتلوا جميعا .

وفى عام ٧٤٩ م (١٣٢ هـ) أخلى الأمويون المسرح للعباسيين الذين تتصل أسرتهم بعم محمد (العباس) ، وقد أقام الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وتمتعوا بسلطة زمنية وروحية — كزعماء للمذهب السنى — حتى أسقط المغول دولتهم فى عام ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) .

وقد واصل المذهب الشيعى قوته فى إيران حينما رعته الدويلات المحلية المتعاقبة ، مثل : الصفاريين ، والسامانيين ، والبويهيين ، عن عقيدة من ناحية ، ولأنه يساعد على فصل إيران عن العالم العربى من ناحية أخرى — رغم أن دولا شيعية أخرى قامت فى مصر وشمالى إفريقية — . ومن الأسباب التى جعلت المذهب الشيعى يلتجىء إلى الإيرانيين الاعتقاد التقليدى بأن الحسين تزوج إحدى بنات يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين .

وأبناء على هم أحق النـاس بالخلافة وإمارة المؤمنين تبعا لرأى الشيعة ؛ وهم ينحصرون فى سلسلة الإثنى عشر إماما ، وقد عد كل إمام من هؤلاء متمتعا بالعصمة الإلهية ، وأنه يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، وأن كل واحد منهم قد عين خلفه ، كما مات كل منهم بسبب الاضطهاد والقسوة ، وقد اختفى الإمام الثانى عشر — المعروف بالإمام الغائب — فى كهف وهو لا يزال شابا ، ويعتقد أنه سيعود فى النهاية فى صورة « المهدى » حينما تقترب الدنيا من نهايتها .

وقد ثارت الانقسامات بين أتباع المذهب الشيعى حول مسألة سلسلة الأئمة ؛ فالشيعة الزيدية فى بلاد العرب يدينون بالولاء للأئمة الخمسة الأول ، بينما يعترف القرامطة والإسماعيلية بإمامة السبعة الأول ، وكان الإسماعيلية طائفة قوية فى إيران ، وكان يقودهم الحسن بن الصباح ، وقد عرفوا فى العالم الغربى باسم « السفاحين »[١] (Assasins) ، وقد ضـاع نفوذهم نهائيا على يد المغول الفاتحين .

ويعتقد الشيعة الإيرانيون فى إمامة جميع أعضاء سلسلة الإمامة ، ويعرف مذهبهم باسم « المذهب الجعفرى » نسبة إلى الإمام السادس (جعفر الصادق) الذى نسق الفرائض والتعاليم الدينية التى وردت فى القرآن وشرحها ، وقد أصبح المذهب الشيعى ، يتمتع بقوته فى إيران على يد ملوك الصفويين

---

(١) المراجع : فى رأى أنهم عرفوا لدى الأوروبيين باسم (Assasins) وهى تحوير الـكلمة العربية « حشاشين » لأنهم كانوا يستعملون الحشيش .

الذين أعلن جدهم الشيخ صفى الدين أنه ينتسب إلى الإمام السابع[١]، وبذلك أصبح المذهب الرسمى لإيران منذ عام ١٥٠٠ م، وقد نص الدستور الحديث على أن المذهب الجعفرى هو المذهب الرسمى للبلاد، ونص على أن المادة التى أعلن فيها العهد[٢] يجب أن تظل سارية المفعول إلى ظهور المهدى «إمام الزمان».

ويختلف الشيعة والسنة فى الناحية السياسة أكثر من اختلافهم فى المعتقدات، لأن الأحزاب أو الحكومات المتعارضة تستفيد من الانقسام فى ترويج سلطانها الزمنى، والشيعة — بطبيعة الحال — يعتقدون فى حماس فى ضرورة وجود الخلافة فى أسرة محمد، وهم لا يعترفون — كما يفعل أهل السنة — بهذا الحق لأصحاب محمد، وهم يعتقدون أن محمدا اعترف بعلى كخليفة له، وبارك أسماء على والحسن والحسين، ويعد الزعماء الدينيون للشيعة ملهمين من الإمام الغائب، وهم يكتسبون لذلك سلطة أعظم بكثير مما لرجال الدين السنيين.

ويقدس الأئمة لأنهم شهداء، ويقوم الشيعة بزيارات لا لمكة فحسب، بل لقبر على — أيضا — فى النجف، وقبر الحسين فى كربلاء، وهما معا فى العراق، وقبرى على الرضا الإمام الثامن فى مشهد، وأخته فاطمة فى قم، وهناك — أيضا — مزارات أقل أهمية للأئمة المحليين ويسمى كل منهم «إمامزاده» أى «ابن الإمام»، وهى منتشرة فى جميع أنحاء إيران.

والإجازات الدينية العامة الملاحظة فى إيران هى العيد السنوى لميلاد على، وبعثة الرسول محمد، وميلاد الإمام الثانى عشر، وضرب على، ووفاة على، وعيد الفطر — وهو عيد الانتهاء من صوم رمضان، وعيد القربان أو يوم التضحية، وعيد الغدير — أو تعيين على خليفة لمحمد — وتاسوعاء وعاشوراء أو يوما استشهاد الحسين، واستشهاد الحسن، وميلاد محمد.

---

(١) المقصود هنا بالإمام السابع موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وهو أخو اسماعيل الإمام السابع عند الاسماعيلية، وهو فى رأيهم أحق منه بالإمامة وهذا هو الذى أدى إلى انقسام الشيعة إلى اسماعيلية وإمامية (اثنى عشرية) وعبارة المؤلف فى هذه المسألة ليست دقيقة. (المترجم)

(٢) تنص هذه المادة على أن تحكم أسرة رضا بهلوى إلى أن يظهر الإمام الغائب. (المترجم)

ولا توجد حكومة دينية ذات نظام خاص فى الإسلام ، غير أن هناك ألقابا معينة أو دلالات خاصة لتمييز أعضاء خاصين من الجماعة الإسلامية فى إيران ، فمن يكون من نسل النبى محمد يستعمل لقب « سيد » كجزء من اسمه ، والرحلات الدينية للحج أقل ملاحظة الآن — مما كانت عليه — قديما ، ولكن الرجل الذى يزور مكة يمكن أن يعرف بلقب « حاج » والرجل الذى يزور قبر الحسين فى كربلاء ، والشخص الذى يزور قبر الإمام على الرضا فى مشهد ، يعرف بلقب « مشهدى » أو « مشدى » .

ويلقب رجل الدين المسلم الذى له ثقافة محدودة فى العلوم الدينية بلقب « ملا » ، بينما يلقب من يدرس فى مدرسة عالية مثل « جامعة سبهسالار الدينية [1] » فى طهران بلقب « مجتهد » ، وهناك عدد قليل جدا من كبار الزعماء الدينيين المقيمين إما فى إيران ، أو فى مزارات الشيعة فى العراق يحمل كل من أفراده لقب « آية الله » للتشريف ، وقد يجتمع المجتهدون العلماء فى طهران فى « هيئة للعلماء » تصدر الفتاوى الخاصة بالمسائل الدينية ، بينما تختص المحكمة الشرعية فى طهران بالمجادلات الدينية البحتة .

وإمام الجمعة فى طهران فى الوقت الحاضر دكتور فى الحقوق من جامعة فرنسية ، وهو أحد أعضاء أسرة « إمام جمعه طهرانى » المعروفة [2] وهو مختص بإقامة الصلاة والخطبة يوم الجمعة — فى المسجد — نيابة عن الملك .

وتصدر ثلاث صحف دينية فى طهران ، وللمركز الدولى للدعاية الإسلامية فرع فى طهران ، وهو ينشر جريدة أسبوعية ، كما ينشر تقويما سنويا .

---

(١) تسمى هذه الجامعة بالفارسية « دانشكاه روحانى » . (المترجم)

(٢) اسم إمام الجمعة هو « سيد جسن إمامى » وهو موجود فى هذا المنصب إلى الوقت الحاضر . (المترجم)

مستقبل إيران

الفصل العاشر

المشروعات والآمال المرتقبة

حينما بدأ عام ١٩٥٠ م ، كانت الشخصية الموجهة فوق المسرح الإيرانى هى شخصية محمد رضا بهلوى ، وهو لا يزال شابا ، غير أن له خبرة فى الحكم تبلغ ثمانى سنوات ، وقد صرح الشاه برغباته الصادقة فى الإصلاح ، وبتصميمه الأكيد على تنفيذ الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ، وكان قد ازداد قوة — أخيرا — بمنحه حق حل السلطة التشريعية ، فكان فى وضع يستطيع أن يطلب فيه عملا إنشائيا ، فأعلن فى افتتاح دورتى مجلس النواب والشيوخ الجديدتين — فى شهر فبراير — ضرورة تطهير الحياة العامة من الأشخاص الفاسدين والأعمال المشينة ، وكان مثل هذا التطهير ذا قيمة كبيرة ، غير أنه كان من الأمور الأكثر أهمية أن يعد العامة لمساندة الإصلاحات الأساسية المرسومة فى « مشروع السنوات السبع للإصلاح والتعمير » .

ومن المتوقع أن تقابل الإصلاحات الجديدة بكل من المعارضة والتأييد فى الوقت الحاضر ، ويعتقد — بصفة عامة — أن تأتى المعارضة من بضع مئات من ملاك الأراضى الأغنياء وعائلات التجار الذين يكونون الطبقة التى تسمى « الطبقة المسيطرة فى إيران » ، وهى الطبقة التى تتوقع أن تحد هذه الاصلاحات من قوتها وهيبتها ، وقد كانت هذه الطائفة — ذات نفوذ فى البرلمان ، ولكنها قد جردت من نفوذها — بعض الشىء — فى الوقت الحاضر ، لأن شخصياتها العامة تتركز فى مجلس الشيوخ الجديد ، بينما اشتهر مجلس النواب الجديد بالعناصر التقدمية .

وقد تأتى بعض المعارضة من عدد قليل من الزعماء الدينيين ذوى الآفاق الضيقة — وهم أصحاب نفوذ ، غير أنهم يخشون من النزعات الحديثة على مبادىء

الإسلام وتعاليمه — ومن الأحرار الصادقين الذين يعارضون تشكيل الحكومة وأساليبها أكثر مما يعارضون أهدافها النهائية ، كما أن هناك معارضة مؤكدة من بقايا حزب توده ، وأفرادها مشغولون فى الوقت الحاضر بالقيام بدعاية سرية ضد الحكومة والملك وبرنامج الإصلاح الجديد .

والعناصر التى سوف تساند الإصلاح أصعب تحديدا ، رغم أنهم يتضمنون — قطعا — طبقة الشباب المثقف جيدا ، والطبقة المتوسطة المحدودة الدخل ، وكثيرا من الأشخاص حتى من أعضاء الطبقة التى تسمى بالطبقة المسيطرة وهذه العناصر وما يشبهها — كالزراع — سوف يدعون للعمل معا بطريقة غير مألوفة بالنسبة لتجاربهم ، وللقيام ببعض التضحيات الشخصية فى سبيل الصالح العام . وهناك بعض الدلالات على أن شعورا جديدا بالخدمة العامة ، وبالمسئولية الشخصية ، قد ينتشر فى إيران .

ويتقدم الشاه وأسرته الركب ، ويرشدون إلى الطريق مع الهيئة الامبراطورية للخدمات الاجتماعية ؛ وهى هيئة شكلت لإنفاق إيرادات ممتلكات التاج الإيرانى فى تنفيذ برنامج صحى عام . وهذه القيادة قد تلاها إنشاء « المؤسسة الإيرانية للنهوض بالصحة والتعليم فى إيران » وقد أنشئت هذه المؤسسة على يد أسرة تجارية غنية فى شيراز ، وقدمت — فعلا — هبة قدرها ١,٥٠٠,٠٠٠ دولار . وقد أنشأت المؤسسة — تقريبا — شبكة حديثة للمياه فى شيراز ، وسوف تبنى قريبا مستشفى هناك ، ولديها مشروعات أخرى على بساط البحث والإعداد .

ويوجه — الآن — اهتمام كبير إلى مشروع السنوات السبع للإصلاح والتعمير الذى ذكر قبل ذلك ؛ ففى أكتوبر ١٩٤٨ م استخدمت الحكومة الإيرانية أعضاء شركة المستشارين لما وراء البحار Overseas Consultants Inc. ، وهى هيئة مكونة من إحدى عشرة مؤسسة كبرى من المؤسسات الهندسية الأمريكية ليتموا الأبحاث التى بدأتها شركة موريسون نودسن الدولية Morrison Knudsen — International Company ، وفى أغسطس ١٩٤٩ ، أتم المختصون

فيها أبحاثهم ونشرت الهيئة تقريرا فى خمسة مجلدات ، عن الطرق التى ينبغى اتباعها فى تنفيذ المشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، وقد أقر البرلمان إنشاء تنظيم للمشروعات مكون من مجلس أعلى وهيئة للإدارة ، ومدير مشرف . وأصبح لزاما على هذا التنظيم أن يشرف على تنفيذ هذه المشروعات التى قدرت تكاليفها بمبلغ ٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، أما شركة المستشارين لما وراء البحار — التى كان لها مكتب فى طهران — فكانت تمد بالخبراء لتقديم المشورة ، وللعمل مباشرة لتنظيم المشروعات ، وقد وصفت هذه الشركة البرنامج بأنه « أضخم برنامج صناعى فى قطر واحد فى التاريخ ، وأنه مشروع سيعيد بناء اقتصاد إيران جميعه ، من الأساس إلى القمة » .

وستخصص نسبة ٢٨,٥٪ من مجموع النفقات — تبعا للتقديرات الحالية — للإصلاحات الاجتماعية والإصلاحات الخاصة بالمجالس البلدية ، و ٢٥٪ للتوسع الزراعى و ٢٤٪ لتحسين وسائل النقل ، و ١٥٪ لترقية الصناعة والمناجم ، و ٤٪ لإنشاء وتشغيل شركة إيرانية للبترول ، و ٣,٥٪ لترقية وسائل النقل وتوسيعها .

وقد ذيلت الميزانية العامة لسنة ١٩٤٩ ، بميزانية خاصة للتعمير ، قدرها ٤٢,٨٠٠,٠٠٠ دولار ، وهى تضم بين مصادرها ٧٠٪ من ضريبة امتياز البترول لتلك السنة . وستخصص جميع الإيرادات المتحصلة من امتياز البترول — ابتداء من عام ١٩٥٠ — ومن العمليات التى تديرها شركة البترول الأنجلو إيرانية لتمويل هذا المشروع ، وسوف تقترض مبالغ أخرى من المصرف الأهلى الإيرانى ، ومن المرجو أن تؤخذ قروض تصل إلى ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار من المصرف الدولى للإنشاء والتعمير ، ومن الشركات التجارية الأجنبية ، وهناك بعض مشروعات خاصة تحت التنفيذ من المشروعات التى ووفق عليها ، وينبغى أن تنفذ قريبا ، وهى تعالج المشاكل الحالية مثل : مشكلة البطالة الشديدة ، وارتفاع نفقات المعيشة ، ونقص محصول القمح ، وتدهور التجارة الخارجية ، بينما يتوقع أن يؤدى المشروع فى المستقبل البعيد جداً إلى رفع المستويات العامة

للمعيشة عن طريق زيادة الإنتاج وبنـاء المساكن ، وتحسين الصحة العـامة ، ونشر التعليم .

والأمن الداخلي واستقرار الحكم والبناء والاقتصادى السليم هى الأسس الرئيسية للتقدم المطرد فى إيران ؛ ففيما يتصل بالأمن ،كانت الأحوال فى أوائل عام ١٩٥٠ أحسن بكثير مما كانت منذ عدة سنوات ، وقد أعيد تنظيم القوات المسلحة على نطاق واسع ، ووضعت تحت قيادة ضباط شبان وتحت إشراف أدق أنشيء بواسطة تحويل قوات الأمن إلى قيادة الجيش .

وقد أقيمت العلاقات بين القبائل والحكومة ، وبين القبائل والجيش على أساس من الاحترام المتبادل ، وكانت قبل ذلك من مصادر الاحتكاك والتشاحن ، وسوف يختبر استقرار الحكومة قريباً ، والأسئلة التى تثور هنا هى : هل سيعمل مجلس الشيوخ الجديد على ضمان الاتزان فى مجلس النواب وهو أكثر تعجلا وعنفا ؟ . . وهل سيتوسع المجلسان فى معاونة الحكومات التى يعهد إليها بالإصلاحات ؟ . . . وهناك تهديد للاستقرار المالى فى البلاد يتمثل فى استنزاف مصادر العملات الأجنبية فى الوقت الحاضر ، وهو أمر متوقع فى المستقبل ، وفى أثناء الحرب ؛كان شراء القوات المتحالفة المختلفة للريالات الإيرانية قد كون لإيران أرصدة كبيرة من العملات الأجنبية ، وتستطيع إيران أن تستمر فى الاعتماد على مبلغ لا يقل عن ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار سنويا ، من مدفوعات شركة البترول الأنجلو — إيرانية ، ومن مشترياتها للريالات الإيرانية .

وأكبر بالوعة تستنزف الموارد المتجمعة هى منطقة الدولار : فقد كان لإيران — فى عام ١٩٤٩ م — ميزان تجارى سنوى متأرجح مع الولايات المتحدة ، يبلغ حوالى ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار تقريبا ، وهى ما تزال مدينة — جزئيا — بسبب شرائها المعدات الإضافية والمواد من قيادة الخليج الفارسى (Persian Gulf Command) كما أن عليها دينا قدره ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار هو قيمة مشترياتها الحديثة من المعدات العسكرية الأمريكية الإضافية . ويعد

الإنفاق على حوالى ستمائة طالب إيرانى — فى الوقت نفسه — فى الولايات المتحدة ناحية كبيرة من النواحى التى يصرف فيها الدولار الأمريكى ، ولما كان مشروع السنوات السبع يحتاج إلى مصاريف باهظة من العملة الأجنبية ، فإنه يجب أن تثبت إيران أن مثل هذه المصادر قد ادخرت بعناية .

ومن المتوقع أن تصير علاقات إيران بالدول الأجنبية الموجهة ذات أهمية بالغة لتلك البلاد ، فقد تؤدى إلى تعجيل تنفيذ مشروع السنوات السبع للإصلاح والتعمير أو تعويقه ، وتتبع كل من الولايات المتحدة وبريطانيا سياسة تهدف إلى تقوية سيادة إيران على أراضيها ، وتشجيع التقدم الاقتصادى والاجتماعى فيها .

وتمثل الولايات المتحدة سفارة فى طهران تضم عدداً كبيراً من الموظفين الرسميين ؛ من بينهم هيئة للعلاقات السياسية ، وأخرى للعلاقات الزراعية ، وبعثة عسكرية صغيرة لتدريب الجيش الإيرانى وقوات الأمن « زاندرمرى » .

وقد باعت الولايات المتحدة معدات حربية لإيران ، وهى تنوى تزويدها بمعدات حربية أخرى طبقا لمشروع المساعدات الحربية (Military Aid Plan) أو المساعدات الأمريكية بناء على طلبات القروض الدولية التى تتقدم بها إيران لتنفيذ مشروع السنوات السبع للإنشاء والتعمير ، وقد عبر الشاه عن هذه الرغبة فى أثناء زيارته لوشنجطون فى قوله : « نحن نأمل فى الحصول على مساعدة أمريكية فنية ومادية ، كما نأمل — فى ظل الأمن الداخلى الشامل — أن نحبب المستثمرين الأمريكيين فى إيران ، ونعتقد أن إيران تعد حقلا طيبا لتنفيذ المشروعات العظيمة التى تضمنتها النقطة الرابعة (Point 4) كما يبدو من الخطاب الافتتاحى للرئيس ترومان » .

ولا تستطيع إنجلترا أن تساهم فى معاونة إيران؛ لأنها مبتلاة بأزمات اقتصادية مستمرة ، تجعلها فى وضع لا يسمح لها بتقديم المعونة إلا نادراً ، رغم أن المصالح الإنجليزية التى أنشئت منذ وقت طويل فى تلك البلاد — مثل المصرف الإنجليزى فى إيران والشرق الأوسط ، وشركة البترول الأنجلو — إيرانية — لا تزال بالغة الأهمية بالنسبة للطرفين .

وفى صيف عام ١٩٤٩م؛ دارت مباحثات بين الحكومة الإيرانية والمسئولين فى شركة البترول الأنجلو — إيرانية لمحاولة عقد اتفاقية تزيد الإيرادات التى تحصل عليها إيران من امتياز البترول إلى حوالى ضعف ما تحصل عليه الآن سنويا ، وقد فشلت الدورة البرلمانية الخامسة عشرة فى التأثير فى الموقف ولكن الاتفاقية نفسها أو صورة معدلة منها سوف تعدها الدورة البرلمانية السادسة عشرة[1] ، وسوف يؤدى التصديق عليها إلى تخصيص المبالغ التى يمكن الحصول عليها لمشروع الإنشاء والتعمير .

ومن الواضح ؛ أن العلاقات بين إيران وروسيا السوفييتية سوف تستمر معقدة ، قلقة غير مطمئنة ، وقد تتسع الاحتكاكات البسيطة إلى حالات أخرى من نوع خاص ، وقد وجهت الحكومة الإيرانية — فى يوليه ١٩٤٨م — مذكرة إلى الحكومة الروسية تسألها عما إذا كانت ترغب فى إغلاق القنصليات الروسية العشر التى أنشئت فى إيران فى زمن الحرب ، أو أن تبقيها مفتوحة على أن تسمح لايران بفتح عدد من القنصليات مماثل لهذا العدد فى روسيا ، ولم تتلق إيران ردا على هذه المذكرة ، ولا على مذكرة أخرى أرسلتها ، فطلبت من الحكومة الروسية — فى مارس ١٩٤٩ م — أن تغلق جميع القنصليات ماعدا القنصلية التى كانت مفتوحة فى إيران قبل الحرب ، وقد وجد هذا الطلب ردا سريعا أشارت فيه الحكومة الروسية إلى تصرفات الحكومة الإيرانية المنافية للصداقة ، والتى اتسمت بالعداء فى عدد من الحالات ، وذكرت أن جميع القنصليات الروسية فى إيران سوف تغلق ، وطلبت من الحكومة الإيرانية أن تغلق قنصليتها الوحيدة فى باكو .

وتحاول الحكومة الإيرانية منذ أوائل عام ١٩٤٧م أن تسترد من روسيا ١١,٠٠٠,٠٠٠ جرام من الذهب ، و٩,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات و١١,٠٠٠,٠٠٠ من الريالات ، ورغم أن هذه المبالغ مستحقة لإيران بمقتضى شروط الاتفاقية

---

(١) كتب المؤلف ما يتعلق بهذه المسألة حتى عام ١٩٥٠ وهو زمن تأليف الكتاب ، وقد حدث بعد ذلك تأميم شركة البترول بواسطة حكومة مصدق والأحداث المعروفة التى أعقبت ذلك ، والتى أدت إلى الوضع الحالى فى إيران . (المترجم)

المالية التى عقدت بين الدولتين فى عام ١٩٤٢ م ، فإن الحكومة الروسية استمرت فى الامتناع عن الدفع . وحدثت اشتباكات مسلحة على طول الحدود بين الدولتين فى فترات مختلفة خلال عام ١٩٤٩ م ، اشترك فيها جماعة من الجنود الايرانيين والروس على السواء ، وقد حدثت هذه الاشتباكات — وفقا لما تقوله الحكومة الإيرانية . حينما عبر الجنود الروس الحدود ، أما وجهة النظر الروسية فى هذه الحوادث فهى غير معروفة لأن الروس تجنبوا الإشارة إلى وقوعها فى صحافتهم وإذاعتهم .

وحوالى أواخر عام ١٩٤٩ م ، بدا أن حدة التوتر آخذة فى الزوال ، فقد باعت الحكومة الروسية لإيران ١٠٠,٠٠٠ طن مما تحتاج إليه من القمح ، وتقدمت المباحثات لعقد اتفاقية تجارية بين البلدين ، وكانت التجارة بينهما فى حالة توقف منذ عدة شهور .

وتعد الحوادث التى ذكرت — فيما سبق — وحدها دالة على تصرفات الحكومة الروسية نحو إيران ، ومن الواضح أن الغرض الأساسى للروس هو إغراء — أو إجبار — إيران على إنشاء حكومة موالية للاتحاد السوفيتى ، ومن مظاهر هذا الاتجاه أن الروس يحاولون تشجيع الفوضى وعدم الاستقرار فى إيران حتى يتمكن زعماء حزب توده الهاربون — الذين أنكروا قبل ذلك وجود أية علاقة بين حزبهم وبين الاتحاد السوفييتى — من الانضمام حينذاك إلى نظام الكومنفورم (Cominform Line) وأن يصروا على عدم اشتراك الإيرانيين فى حرب ضد الروس ، وأن يستعملوا أساليب الدعاية السرية لمحاولة إثارة الشعب الإيرانى ضد حكومته .

وتهاجم محطات الإذاعة الروسية فى موسكو ، وفى منطقة آذربيجان الروسية الحكومة الإيرانية ، والشاه ، والخطط الأمريكية والإنجليزية الموجهة ضد إيران ؛ وتوجه نداءات ملتهبة إلى العناصر المختلفة فى الشعب الإيرانى ؛ أما فيما يتعلق بالأشياء المتصلة بالمستقبل القريب لإيران بصفة خاصة ، فإن الصحافة والإذاعة الروسيتين توجهان هجوما عنيفا لمشروع السنوات السبع للإنشاء

والتعمير وتصوراته فى صورة مشروع ذى هدف بعيد ترمى به الولايات المتحدة الرأسمالية إلى تسخير إيران وخفض مستوى المعيشة فيها .

وفى مارس ١٩٥٠ م ، نشرت صحافة الكومنفورم فى بخارست — مثل جريدتى « نحو سلام دائم » (For a Lasting Peace) ، و « نحو ديمقراطية شعبية » (For a Peoples Democracy) — هذا البيان : « إن الولايات المتحدة قد أعدت العناصر المعادية لإيران من العسكريين ، والمدنيين تحت ستار ترقية البلاد وإعادة بنائها ، وإن المشروع الذى يسمى « مشروع السنوات السبع » ليهدف إلى إنشاء الطرق والمطارات والموانئ للأغراض الحزبية ، ويرمى إلى تثبيت المركز الاقتصادى لكبار ملاك الأرض ، والإقطاعيين الذين يتصلون اتصالا مباشرا بالدوائر الرأسمالية » .

ويبدو واضحا أن الحكومة الروسية لا تشجع النجاح المطرد فى إيران فى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وإن هذا التصرف من جانب روسيا مطابق لسياستها نحو دول أخرى فى أنحاء مختلفة من العالم .

وصفوة القول أن احتمالات تحقق تقدم سريع مفيد لإيران يتوقف على الإجابة على الأسئلة الآتية :

١ — هل توجد هيئة كافية من الشعب الإيرانى لديها التصميم والإصرار اللازمان لتنفيذ برنامج شامل للإصلاح والتعمير ؟

٢ — هل ستنجح مجهودات الدعاية التى تقوم بها الحكومة الروسية فى عرقلة مشروع التعمير ؟

٣ — هل ستتخذ الحكومة السوفييتية إجراءات عسكرية أكثر شدة ، أم هل ستعقد اتفاقات دولية شاملة تؤدى إلى رفع الضغط السوفييتى عن إيران ؟

ملحق

العلم الإيرانى :

نص الدستور الإيرانى على أن يكون الشعار الذي يتخذه العلم الرسمى لإيران مكونا من أسد ذهبي وشمس ، فوق صفحة ملونة بخطوط خضراء وحمراء وبيضاء ، وأن يوضع الأسد فوق الجزء الأوسط من الصفحة ، وهو الجزء الملون باللون الأبيض ، وأن يكون رافعا سيفا فى أحد مخالبه المرفوعة ، وأن تشرق الشمس فوق ظهره .

وللشعار تاريخ قديم جدا ، فقد وصف الفردوسى — فى القصة التى أوردها عن سهراب ورستم — أعلام القواد المشهورين ، فكان من بينهما علم يحمل صورة الأسد ، وآخر يحمل صورة الشمس الصفراء ، والجمع بين الأسد والشمس على أنهما علامة لمنطقة البروج يتضح فى منتجات الفن الإيرانى ، ولكن أقدم استعمال معروف لهذا الشعار — على أنه اختراع خاص بإيران — يوجد فى قطعة من العملة الفضية الخاصة بغياث الدين كيخسرو ، ضربت بعد عام ١٢٠٠ م (٥٩٧ هـ) بقليل ، وهناك قطعة من القرميد على شكل نجمة تحمل العلامة نفسها ، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى). كما أن الصور الصغيرة (المنمنمات) — التى يرجع تاريخها إلى عصور متأخرة — تظهر الجنود الإيرانيين يحملون علما مزينا بصورة الأسد والشمس ، وتحمل نقود الصفويين — أيضا — هذا الشعار ، وقد وضع السيف فى يد الأسد منذ العصر القاجارى حينما كان كثير من أنواع النقود يحمل الشعار نفسه .

التقويم الإيرانى :

يكون عدد أيام كل شهر من الأشهر الستة الأولى — فى السنة الإيرانية — واحدا وثلاثين يوما ، وعدد أيام كل شهر من الأشهر الخمسة التالية لها ثلاثين يوما ، وعدد أيام الشهر الأخير تسعة وعشرين يوما ، أو ثلاثين يوما فى السنة الكبيسة ، وتبدأ السنة فى أول يوم من أيام الربيع ، أى فى ٢١ أو ٢٢ مارس .

وأسماء الشهور بالترتيب هى : فروردين ، أرديبهشت ، خرداد ، تير ، مرداد ، شهريور ، مهر ، آبان ، آذر ، دى ، بهمن ، اسفند .

وقد اتخذ هذا التقويم الشمسى — بقانون صدر فى عام ١٩٢٥ م — ليحل محل التقويم العربى القمرى ، وحينذاك أحييت أسماء الأشهر الشمسية التى كانت مستعملة فى الأزمنة القديمة .

العملة الإيرانية

النقود :

النقود الذهبية :

جنيه بهلوى — نصف جنيه بهلوى :

يحتوى الجنيه البهلوى على ٧,٣٢٢ جرام من الذهب الخالص ، و هو لهذا يساوى ما يحتويه الجنيه الإنجليزى (صورة الملك) من الذهب ، وكان يباع فى عام ١٩٤٧ م بمبلغ ٦٠٠ ريال إيرانى (١) .

النقود الفضية :

عشرة ريالات — خمسة ريالات — ريالان — ريال :

وقف سعر الريال الرسمى فى التبادل — فى المدة من عام ١٩٤٣ م إلى ١٩٤٩ م — عند ٣٢,٥ (٢) ريال لكل دولار أمريكى ، ويشار إلى الريال دائما باسم « قران » ، وإلى العشرة ريالات باسم « تومان » .

النقود الأخرى :

قطع نحاسية قيمتها ٥٠ دينارا — ويساوى الريال ١٠٠ دينار ، وهو يقسم عادة إلى ما يسمى « شاهى » . ولذلك فإن كل قطعة قيمتها ٥٠ دينارا

(١) يساوى هذا المبلغ ٤٥٥ قرشا بالعملة المصرية . (المترجم)

(٢) كان هذا قبل خفض العملة فى سنة ١٩٥٠ ، وكان سعر الجنيه المصرى حينذاك ١٣٢ ريال . (المترجم)

تسمى « ١٠ شاهى[1] » ، وتسمى القطعة التى قيمتها ١٠ دنانير « ٢ شاهى[2] » ، والقطعة التى قيمتها ٥ دنانير « شاهى[3] واحد » — وقطع من النحاس والألمنيوم قيمتها ٥٠ و ١٠ و ٥ دينار .

أوراق العملة (البنكنوت) :

تصدر أوراق العملة فى فئات هى : ٥ و ١٠ و ٢٠ و ٥٠ و ١٠٠ و ٥٠٠ و ١٠٠٠ ريال .

وتكون الأوراق ذات القيمة النقدية الكبيرة أكبر حجما ، وهى تحمل صوراً مائية لرضا شاه أو محمد شاه ، أو مناظر من الطبيعة الإيرانية أو السكك الحديدية الإيرانية ، أو الآثار التاريخية فى إيران .

* * *

الموازين والمقاييس الإيرانية :

منذ عدة سنوات ؛ اتخذت إيران النظام المترى ، ورغم هذا فإن النظام المحلى القديم ما زال يستعمل على نطاق واسع ، وقد عرفنا هنا ببعض الوحدات المعروفة مع نسبتها إلى النظام المترى .

الموازين :

١	سير	يساوى	٧٥	جراما
١٠	سير	»	١	جارك[4]
١	جارك	»	٧٥٠	جرام
٤	جارك	»	١	من تبريزى
١	من	»	٣	كيلو جرام
١٠٠	من	»	١	خروار
١	خروار	»	٣٠٠	كيلو جرام

(١) تسمى هذه العملة بالفارسية « ده شاهى » . (المترجم)
(٢) » » » » » « دو شاهى » . (المترجم)
(٣) » » » » » « يك شاهى » . (المترجم)
(٤) «جارك» كلمة فارسية مخففة من «جهاريك» أى «ربع» ويقصد بها ربع المن . (المترجم)

المقـايس :

١	زار	يساوى	١٠٤ سنتيمتر
٦٠٠٠	زار	«	١ فرسخ
١	فرسخ	«	٦٢٤٠ متر
١	فرسخ	«	الفرسخ ٦ كيـلو مترات تقريبـا وحوالى ٤ أميال.

المصـــادر

Afschar, M. La Politique Europiénne en Perse, Berlin, 1921 — ١

A Gift from Radio Tehe.an, Teheran, 1940. — ٢

Ayrian Almanac ٣ — سالنامه آريان ، بالفارسية ، طبع حديثا فى طهران

Bank Melli Iran Bulletin, Teheran, 1934—49. — ٤

Beroukhim, M., La Pensée Iranienne a travers l'Histoire, — Paris, 1938.

Boyce, A. C., «Education in Iran» Iran and the U. S. A. — ٦ (January 1947), Teheran.

Chardin, J., Voyages en Perse, et autres lieux de l'Orient, — ٧ Amsterdam, 1811.

Djazeri, C., La Crise Économique Mondiale et ses Repercussion — ٨ en Iran, Paris, 1938.

Filmer, H, The Pageant of Persia, New York, 1936. — ٩

Gray. F.A.G. Report on Economic and Commercial Conditions — ١٠ in Iran, during 1937, London, 1938.

Hadary, G, «Iran—A Survey of Agriculture,» Foreign Agriculture, — ١١ XIII, 9 (September, 1949).

Hamzavi, A.H., Persia and the Powers, London, 1946. — ١٢

Hayden, L. J., «Living Standards in Rural Iran,» The Middle — ١٣ East Journal, 111,2 (April 1949).

Hedayat, S., ١٤ — هدايت : نيرنكستان ، بالفارسية ، طهران ، ١٩٣٣

Herbert, I., A relation of some yeares travaile, begunne anno — ١٥ 1626-into Africa and the greater Asia, London, 1634.

١٦ — إيران امروز (اليوم) ، بالفارسية ، مجلة شهرية من مايو ١٩٣٨ إلى أبريل ١٩٤٢

Herzfeld, E.E. Archaeological History of Iran, London, 1935. — ١٧

Kasrovi, M., ١٨ — كسروى : تاريخ مختصر شيروخورشيد ، بالفارسية ، طهران ، ١٩٤٤

Keyhan, M. ١٩ — م. كيهان : جغرافياى مفصل إيران (بالفارسية) طهران ، ١٩٣١

Lenczowski, G. Russia and the West in Iran, 1918—1948, — ٢٠ Ithaca, 1949.

Lotz, J. D., «The Iranian Seven Year Development Plan Problems and Proposals,» Middle East Journal, IV, 1 (January, 1950). —٢١

Millspaugh, A C., Americans in Persia, Washington, 1946. —٢٢

Nakhai, M., L'Évolution Politique de l'Iran, Brussels, 1938. —٢٣

Nakhai, M., Le Petrole en Iran, Paris, 1938. —٢٤

Navai, M., Les Relations Economiques Irano-Russes, Paris,1935. —٢٥

Pars Almanac. ٢٦ — سالنامه پارس طبع فى طهران حديثا (بالفارسية)

Pirnia, H., A Short Survey of the Economic Conditions of Iran, Teheran, 1945. —٢٧

Pope, A. U., Editor, A Survey of Persian Art, London and New York, 1938. —٢٨

Relations Consulaires du Gouvernement Imperial de l'Iran avec l'Union des Republiques Sovietiques Socialistes Ministere des Affaires Etrangères, Teheran, 1949 —٢٩

Report on Program for the development of Iran, International Engineering Company, Inc., for Morrison-Knudsen International Company, Inc., July, 1947. —٣٠

Report on seven Year Development Plan for the Plan Organization of the Imperial Government of Iran, Volume 1. Summary and General Conclusion, Overseas Consultants, Inc., New York, 1949. —٣١

Roberts, N. S.: Economic and commercial conditions in Iran, H. M. Stationery Office, London, 1948. —٣٢

Sadiq, 1., «The Country and People of Iran» Iran and U.S.A. (July and August 1946), Teheran. —٣٣

Saleh, A. P. «Iran as viewed by American Authors,» Iran and the U.S.A. (May 1946) Teheran. —٣٤

Saleh, A. P., «A Bibliography of American Authors on Iran» Iran and the U.S.A. (December 1946), Teheran. —٣٥

Sandjabi, K., Essai sur l'Economir Rurale et le Régime Agraire de la Perse, Paris, 1934. —٣٦

Shafaq, S.R. «The Iranian Seven Year Development Plan: Background and Organization»,Middle East Journal, IV, 1 (January 1950). —٣٧

Sotoudeh, H., L'Évolution Economique de l'Iran et ses problèmes, Paris, 1937. —٣٨

Statistique annuelle du commerce extérieur de l'Iran, Ministère des Finances. Administration générale des douanes, Teheran, various years through 1946. —٣٩

United Nations : Report by the Security Council to the General Assembly covering Period from 17 January 1946 to 15 July, 1946. —٤٠

Upton, J., «Archaeology in Iran,» Iran and the U. S. A. (June 1946), Teheran. —٤١

World Oil (International Operation Issue), July 15, 1949. —٤٢

Young. T. C., «The Race between Russia and Reform in Iran» Foreign Affairs, January, 1950. —٤٣

ثبت بأسماء الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

فهرس الكتاب

صفحة

مطبعة نهضة مصر